حياة الرّايس

بغداد
وقد انتصف اللّيل فيها

رواية سيرية

نسخة مضافة ومنقّحة

عتبات

" الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، و انّما هي ما يتذكره،
و كيف يتذكره : ليرويه "
غ. غ. ماركيز

" إنّ حياتي تتجسّد حين أرويها وذاكرتي تثبتُ بالكتابة، وما لا أصوغه في كلمات وأدوّنه على الورق، سيمحوه الزمن حتما "

ايزابيل اللّندي

***

" لا أستطيع ان أدوّن جملة في أيّ نص الاّ إذا شعرت أنّ روحي استقرّت بها واتّخذتها مسكنا... لأطمئنَ ان القارئ يمكن ان يطيب مقامه بها."

ح. الرايس

***

"النص لا يستطيع ان يتخلّص من روح صاحبه أبدا "

ح. الرايس

اهداءات

إهداء أوّل:

إلى جدّتي التي بدأت لي حكاية وهي تهدهدني لأنام. فأخذها النوم وهي في عزّ الحكاية... ولكنها لم تفق بعدها...

إليها أواصل بقية الحكاية التي لن تنتهي لأني سأنام مثلها في عزّ الحكاية...

الى تلك المراة التي تسلّلت بتواطؤ منّي، لتكتبني كما تشتهي وتريد ...
لانّ حياة واحدة لا تكفي لنعيشها كما نريد ...
فليست الكتابة غير حياة ثانية تشتهي أن تكتبنا كما تريد ...

***

الى تلك الارواح التي فارقت وما غابت وما نُسيت. أراها ترعاني مثل النجوم في عليائها وأظنها ترنو اليّ بعين الرضا أيضا:
أبي الذي خالف تقاليد كل القبيلة ليتركني أسافر وأواصل تعليمي ببغداد.
نساء (العيلة) الاتي اودعنني حلمهن بالسفر والدراسة والمغامرة والحياة الطليقة... التي حرمن منها، بفعل ثقافة الكبت والممنوع والحرام لكل ما يجوز للرجال ولا يجوز للنساء، حينها:
فطوم والدتي /" امّي بيّة " جدّتي / دوجة عمّتي: شخوص رواياتي الحقيقيين. الرّحمة لأرواحهم جميعا.

فيِ بَغدَادَ مَا يَسْتَحِقُّ المُغَامَرةَ

واسيني الأعرج

"بغداد وقد انتصف الليل" نص إنساني جميل يحاذي السيرة الذاتية في كامل نبضها، ربما هذا ما يمنح لمثل هذه النصوص التي كثيرا ما تميل نحو التأريخ الفردي، حياة وديناميةكبيرة.نلمس بسهولة، ومن خلال التفاصيل الصغيرة بين بغداد وتونس، سيرة "حياة" في تناغمها مع سيرة مدينتين عربيتين، تونس ملاذ الطفولة والتعليم الداخلي، ومقاهي الحياة وبياض سيدي بوسعيد والمدينة القديمة، وبغداد التي وصلتها الكاتبة في عام ١٩٧٧، في منتصف الليل، وهي لا تدري بأنها، هي التي ذهبت للدراسة وتحضير شهادة بكالوريوس في الفلسفة، ستعيش جزءا من تاريخ المدينة والبلاد في عز العنف والخوف. فقد تمكنت الكاتبة من رؤية عراق آخر، حيث

حزب البعث بكل جبروته، ينشأ على العراق التاريخي القديم الذي كان واجهة تاريخية وعربية عظيمة تمتد حتى الزمن الحمورابي. الحرب العراقية- الإيرانية كادت أن ترمي بجهودها التعليمية في بغداد عرض الحائط لولا إرادتها الصلبة وإصرارها. كانت في سنتها الأخيرة، وفي تونس، عندما انفجرت هذه الحرب. تونس الذاكرة الحيّة بكل ألوانها وعفويتها من خلال وصف جانبها الحميمي في العلاقة مع المكان. جامع الزيتونة الذي أثث ذاكرتها وهو الذي جعل والدها بين ثقافة الأرض الأصلية وتربتها العميقة، ومشقة الحداثة التي منحتها حق السفر بلا عقد عائلية ولا مشاكل. والأحياء التونسية القديمة التي تعبق بالروح والتاريخ الصامت. سيدي بوسعيد جوهرة المتوسط التي تعطيها حركة الناس التي لا تتوقف، حياة وروحا. وشارع بورقيبة الذي أصبح علامة من علامات مدينة حية عرفت كيف تمتص التاريخ ومنجزات الحاضر، بأشجاره ومقاهيه التي تنام على الحواف. حتى العادات الصغيرة التي ارتسمت في المكان في نابل مثلا، أعطته لهذا التاريخ هوية. قصّة الماء الذي يرجعه الميت من فمه لحظة أنفاسه الأخيرة التي تصاحب موته. فتسقى به الشجرة وتسمى باسمه مثلما حدث مع حورية الصغيرة، ابنة عمتها دوجة، التي كانت أمها تلاعبها تحت شجرة الياسمين. ويوم ماتت حورية انتقل الاسم نحو شجرة الياسمين التي أصبحت تحمل نفس الاسم "حورية". ربما

قد تكون الفكرة من الناحية الأنثروبولوجية من بقايا فكرة تناسخ الأرواح في الطبيعة، ممارسات شعبية انقرض مصدرها وبقيت هي.

لكن بغداد احتلت المشهد، وهو ما يبرّر عنوان هذا النص السِّيري. شيئ من تلك المدينة بقي معلقا في ذاكرة الكاتبة. بغداد التي كان يمكن ان لا تتم فيها دراستها في سنتها الأخيرة وكانت بين أن تترك كل شيء أو تغامر بالعودة نحوها، في عز الحرب العراقية الإيرانية؟ وغامرت لأن في بغداد ما يستحق المغامرة. في فصل جميل مشبع بالخوف والقسوة، وصفت فيه الكاتبة رحلتها البريّة من الأردن إلى بغداد التي دخلتها تحت وابل القصف، وأزيز الطائرات، ورائحة الموت التي كانت تضوع في كل الأمكنة. بل كادت أن تفقد حياتها في إحدى رحلاتها مع صديقاتها إلى بلدة المدائن (سلمان باك) عندما امتلأ المكان بالأدخنة والانفجارات العنيفة بسبب القصف الجوي الإيراني المدمر. هذه الوقائع على الرغم من المآسي التي خلفتها على الأرض، تحولت إلى حالات وجدانية ربطت "حياة" بالمكان أكثر. فلم تكن الدراسة هي العامل الحاسم في عودتها إلى بغداد في عز الحرب المدمرة كما يبدو لأول وهلة، ولكن جنون الرغبة في عيش مشترك قاس، مع بلاد منحها السكينة والحب ونور العلم، بغض النظر عن أنظمة عربية دكتاتورية لم تعمل إلا على تكريس الخوف، والرعب، والحروب، والضغينة للاستمرار في الحكم، على الرغم

من الشعارات الحداثية والعلمانية والقومية التي رفعتها في وقت من الأوقات. بعض المآسي لا تأتي متفردة، إذ بعد حصولها على شهادة بكالوريوس فلسفة، ألقي عليها القبض بحجة العمل السياسي غير المرخص، وتلك قصة أخرى لأنها تستوجب تحليل مؤسسة سياسية تخاف من ظلها. السيرة تستمر حتى العودة إلى تونس والانخراط في حياة العمل، لكن بغداد تظل علامة هذه السيرة الحية.

الروائي و الناقد واسيني الاعرج

الفصل الاوّل

" بغداد وقد انتصف اللّيل فيها ".

هكذا جاء صوت المذيع من راديو سيّارة المرسيدس التّي جاءت لتُقلّنا من المطار إلى" أقسامنا الداخلية " بمنطقة " الوزيرية " ببغداد. كنّا أربعة طلبة: ثلاثة شبّان وأنا البنت الوحيدة بينهم. كان ذلك في الّليلة الفاصلة بين 6 و7 نوفمبر (تشرين الثاني) من سنة 1977

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها":

كأنّني أهّم بوضع رجلي اليمنى على العتبة. تتأرجح الجملة، كفاتحة الأشياء المغلقة، ناضجة كفاكهة المواسم، كالمبتدأ مبشّرا بالخبر. خاشعة كصوت آذان يفصل بين أوقات الزمن. كناقوس كنيسة عتيدة في لحظة رهبة. ثمّ تستقر واثقة على كفّ اللّيل وهويبسط لنا يدا كريمة لدخول بغداد آمنين...

كأنّها المصباح السّحري. وعلاءالدّين أمامي يستدّل به على الأفق الغامض، يفتح لي طريقا ويأتيني بالمستقبل على طبق

من ذهب. يالهذا الكرم. ويا لطرب الإيقاع في هذا الليل الواعد.

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها "

تتخلّلني الإشارة، حاسمة، بما لا يدع خطا للرّجعة. يشقّ صوت المذيع الرّخيم قلب اللّيل إلى شطرين وينشطر قلبي معه. في لحظة فاصلة تنقل حياتي بجملة واحدة، من زمن إلى زمن ومن بلد الى بلد. هل كان المذيع يؤرخ للحظة فارقة في حياتي؟ هل كان يكتب بدلا عنّي تاريخ مستقبلي؟ أنا المعلّقة بين فضاءين. أتأرجح على حافةالزّمن. أحاول أن أتماسك كيلاأسقط في مفارقة اللّحظة. وأن أستجمع طرفيْ الزمن في كفّي. مأخوذة بشهوة الأجنحة، نجمة مغامرة في هذا اللّيل التائه. أفتح خطّا في الأفق وأعد نفسي بأجمل صبح ينتظرني.

مازال صوت المذيع يرّن في قاع أذني،فاصلا بين حياتين وقدرين: بين تونس وبغداد. بين ماض، في تونس تُوّج بنجاحي في شهادة الباكلوريا آداب. ولم يحقّق لي رغبتي في التّوجيه الجامعي. كنت أريد قسم الأدب العربي فإذا بهم يوّجهونني إلى قسم الأدب الفرنسي. ولم أجرب حظّي وحقّي في إعادة التوجيه مرّة ثانية. فكأنّما كان ذلك تعلّة ومبررا، لأطير خارج البلد، وأحلق عاليا.. فقد كنت أريد أكثر من الشهادة.كنت أريد أن أغيّرحياتي كاملة وأعيش تجربة جديدة. وما قصّة التّوجيه سوى شماعة.

وبين مستقبل لا أعرف عنه شيئا سوى أنّني جئت إلى بغداد للدّراسة الجامعيّة.لاأملك إلاّ حفنة أعوام لم تتجاوز

العشرين: طريّة، نظرة، مشحونة، مجنونة بحبّ المغامرة والسّفر...والشّغف بمصير جديد أحسب أنّني سأصنعه بيديّ، غير الذّي كتب لي وولدت ونشأت عليه.

"بغداد وقد انتصف الليل فيها "

كالعلامة التّي تسبق ضوءالمسافات، تفتح باللّغة منارة وطريقا... أفترش حروفها حريرا وثيرا ورنّة ممؤسقة في رخاء اللّيل... وأستلقي رافلة، في أرض المتنبّي والتّوحيدي والجاحظ ببيانه وتبيّينه فتتبدّد غربتي. من قال أنّني أهاجر من بلد الى بلد؟لست أقيم سوى في اللّغة وأسكن بين الحرف والمفردة وأتوسّد الجملة وأتبسّط وسع الفواصل والنقط...

"بغداد وقد انتصف الليل فيها"

أبي كان يحّن إلى بغداد، مركز الخلافة الإسلامية. بلاد هارون الرّشيد وبيت الحكمة والجامعة المستنصريّة. والنهضة العلميّة الحديثة والشّرق المتمسّك بدينة في مقابل الغرب المتفسّخ...نكاية في وزارة التعليم العالي التونسيّة التّي وجّهتني إلى قسم الفرنسيّة التّي لم أطلبها. والتّي لا يحبّها أبي رحمه الله.

وأنا كنت أظنّ أنّني أسافر إلى بلاد شهرزاد لمواصلة الحكاية...وشمّ عبق ألف ليلة وليلة وتتبّع مساربها ودروبها السّاحرة. والتوحّدبـ "عشتار "ربّة الحبّ والخصب ... واقتفاء آثار جلجامش في البحث عن عشبة الخلود... والحلم بكتابي الأوّل في مطابع شارع المتنبّي.وانطلاقتي الأدبية من بغداد في رحاب بيت الحكمة. وأحلم بمشروعي الأدبي الذي أزعم أنه سيخلّدني، لكيلا أكون مجرد عابرة في هذا الزمن.

هكذا كانت بغداد في مخيال كلّ واحد منّا....

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها "

مفتونة بسحر اللّغة. يرجمني شيطان الإبداع الكامن بين الحرف والمعنى،بشهاب يضيء السّمع قبل البصر. ها أنّني أدخل بغداد من باب اللّغة الواسع.

هذا الصوت لا يشبه أيّ صوت آخر في أي إذاعة أخرى وبغداد لا تشبه إلاّ بغداد. ما هكذا كان ينتصف اللّيل عندنا. بمثل هذه البلاغة وهذه الشعريّة والرومانسيّة. بدا لي الفرق واضحا، فاضحا. أخذتني غيرة. لماذا أخذ الشّرق السّحر كلّه؟**أمن أجل هذا السّحرأنا هنا؟** ولماذا لا تكون اللّغة في أوج فتنتها وغنجها، في منتصف ليلنا؟ولماذا تخرج الإشارة باهتة من فم المذيع،وهويعلن عن زمن اللحظة الفارقة بحياد ورتابة،وجفاف صحراوي:" هنا منتصف اللّيل في إذاعة الجمهورية التونسيّة" كأنّه يغرس عمود حديد في حلق اللغة.مع كونه سليل ابن منظور والشّابي والمسعدي والحصري القيرواني...يسندني ويسعفني الحصري فجأة فأصدح من أعماقي:" **يا ليل الصبّ متى غده...؟** " لأدخل بغداد شامخة وقد انتصبت لي خيمة ضيافة، مخمليّة، وثيرة، عتيدة،راسخة،سابقة، على الزّمن، في ايقاع صوت المذيع الواثق، الحاسم، الدافئ، المؤنس...وأنا أشقّ اللّيل والمدينة واللّغةُ روح ساحرة تسكن الأشياء، تفتح المدن وتفتن مهجتي.

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها "

خلتني أدخل على بساط الرّيح قصر العبّاسة. يتناهي إلى مسمعي همس العامّة:" كناسة الكناسه يهيم بالعبّاسة "(في همز ولمز ساخرين من الوزير جعفر البرمكي الأعجمي

الذي طمع في الزّواج من بنت الحسب والنسب ابنة الملوك والخلفاء العرب. أخت الخليفة هارون الرّشيد)

و"درب زبيدة" التّي فجّرت عيون الماء في الطريق القاحلة الواصلة بين بغداد ومكّة لسقي الحجاج. نذرا للرّحمان ليرزقها بالولد الذّكر وليّا للعهد...وهارون الرّشيد،يبسط سلطانه على العرب والعجم. يقف في شرفة قصرة ويخاطب السّحابة العابرة:**"أمطري حيث شئت فخراجك كلّه عائد لنا"**.وأبوه المهدي سليل النّسل القيرواني: ابن أروى القيروانية، مفخرتنا بين النّساء زوجة أبوجعفرالمنصور.الذي أحبّها وعشقها والتزم بشرطها التّاريخي: شرط الصّداق القيرواني:بأن لا يتزوّج ولا يتسرّى عليها طوال حياته.

والأمين والمأمون وبيت الحكمة... يتراى لي شبح السيّاف "مسرور" من خلف الأبواب المواربة.يدحرج رؤوس البرامكة الواحد تلوالآخر...بحدّ سيفه اللاّمع في اللّيالي الهالكة. السّاند لظهر مولاه وسيّده وهارونه المستبد، لأن العاجز وحده من لا يستبد.

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها "

كان سفري حدثا في أواخر سبعينيات القرن الماضي. في عائلة محافظة لم تعرف فيها بنت من بنات خالاتي أوعمّاتي، مواصلة تعليمها الثّانوي فما بالك بالجامعي وبالسّفر للدّراسة في الخارج. كانت كلّ بنات العائلة الكبيرة،لا يكدن يصلن إلى الشهادة الإبتدائية،حتّى يجبرن على لزوم البيت وعدم الخروج.وليس بعد ذلك غير تحضير الجهاز للزواج وانتظار العريس. كنت استثناء وحدثا، محلّ حسد وغبطة في ذات الوقت، من بنات العائلة الكبيرة.

وسط دهشة الجميع، سمح لي أبي بالسّفر، لمواصلة تعليمي الجامعي بالعراق. بل بتشجيع منه خرجت وسافرت ودرست.
وكان يردّ على من يسأله لائما: كيف يسمح لي بالسّفر؟ كان يقول:"بعثتها لبلاد عربيّة ". أبي المحافظ " الحزّار " الذّي لم يكن يسمح لأمّي بالخروج سوى لبيت أبيها أوللحمّام التركي. كان يلزمها الإلتحاف" بالسّفساري" والخامة السّوداء على وجهها. مبالغة في التغطيّة كيلا يراها أحد غيره. وأنا أيضا غير مسموح لي بغير المعهد والمكتبات العموميّة.أمّا الخروج مع الأصحاب والحفلات المختلطة والسّينما فكلّ ذلك ممنوع ويهدّد مستقبلي، فيمكن أن يحرمني من الدراسة ويبقيني في البيت تماما لوحصلت مني أيّ زلّة قدم.
كانت تلك المرّة الأولى التّي أسافر فيها وأوّل مرّة أركب طائرة في حياتي وأوّل مرّة أغادر عائلتي وبلدي. في قلبي ينبت جناحان أكبر من عمري ومن حدود بلدي. من صغري أشعرأنّني أعيش بقلب طائر لا يخفق ولا يرفرف الّا للرّحيل والسّفر...
وكان حدثا في البلد.إذ كانت العلاقات مقطوعة لسنوات عديدة بين تونس والعراق لحدود سنة1977 بسبب حزب البعث العربي الاشتراكي، الممنوع في تونس حينها.حتّى جاء الوزير" محمد مزالي" إلى الحكومة وكان اتجاهه "عروبي" فأعاد العلاقات وفُتحت السّفارات.وأراد الوزير تعزيزها بتبادل البعثات والزيارات من بينهابعث وفد طلابي تونسي إلى العراق.وكنّا أوّل وفد رسمي يذهب للدّراسة في بغداد. في أواخر سبعينيات القرن الماضي. من بيننا محمد

كريشان الإعلامي بقناة الجزيرة الآن.ولكنّه لم يبق معنا فقد رجع في اليوم الثاني...

وكان حدثا في قسم الفلسفة. ذلك أنّني أوّل تونسية، تسجل إسمها في قسم الفلسفة ببغداد.

"بغداد وقد انتصف اللّيل فيها

ترى عن أيّ بغداد يتحدّث المذيع؟ لم نكن نعرف شيئا عن بغداد،سوى فوبيا حزب البعث العراقي. حذّرني الكثير من النّاس من السياّسةفي العراق ومن حزب البعث العراقي. ونصحني أصدقائي وأقاربي بعدم الإنتماء إليه مطلقا، إن كنت أريد أن أعود إلى أهلي سالمة.قال لي أحدهم: " حاذري وحاسبي كثيرا على كلامك. بل لا تتكلّمي في السيّاسة أبدا.ففي العراق يمكن أن تدخلي السّجن بسبب غلطة نحويّة أوصرفيّة في حقّ فكر حزب البعث.ههه..." كان هاجسي الوحيد: كيف سأنجومن "سيف مسرور "ومن براثن هذا الغول. وأعود سالمة إلى أهلي دون أن أسجن أوأن أهلك.

وكيف أتجاوز السيّاسي إلى الثقافي والحضاري الأرحب والأبقى.وكان لي إحساس قوّي بالقدرة على ذلك.

" بغداد وقد انتصف الليل فيها "

ولكن بغداد التي دخلتها " وقد انتصف الليل فيها " ستكشف لي عن وجهها الآخر أو شطر وجهها الآخر الذي يبتدئ بعد منتصف الليل .... حتّى أن هذ "الجملة الأثيرية " قد تحوّلت الى لازمة حميمية عند العراقيّين. وتعني حياتهم الاخرى التي تبتدئ بعد منتصف الليل، الذي يحتضنها ويلفّها وربّما يتستّر عليها ايضا ...

و اذا كان اذان الفجر،نداء للمصلين و الزهاد و المتصوفين...فان نداء منتصف الليل هو دعوة لأحفاد ابي النؤاس و شهريار والمتنبي... وحفيدات شهرزاد...لتاثيث ليل الحكاية: حكاية العشاق والمجانين وانصاف المجانين و الحالمين والشعراء والسكارى و ما هم بسكارى و المسكونين بالوجد و الغرام والحرمان و المتسكعين و التائهين و المخبولين و المغرمين والوجدانيين و التعبانين و العابثين و المتفلسفين و المهمشين... في ليل الوجد الحائر... و كل من اسقطهم النهار او نسيهم في ركضه المجنون وراء عربات الموت العمياء... يلتقطهم الليل و يحتضنهم و يلعق جراحهم و يبعثهم بشرا قد يشبهون أو لا يشبهون أنفسهم .

في حدائق ابي نؤاس وحول تمثاله الذي يرنو لهم من بعيد بعين الرضا، يبارك جنونهم، يرفع كأسه ويقاسمهم ليلهم الثمل، وقد عاج بهم يسال عن خمّارة البلد، سعيد بصحبتهم،منتشيا لنشوتهم ...وهم يطلعون من جوف الليل، يتبعونه منقادين راضين مرضيين و قد تخلصوا من عباءات زيفهم العفنة، الكريهة، المزيفة، المزركشة، الثقيلة كالهمّ فوق ظهورهم، واقنعتهم الماسخة لوجوههم الحقيقية و قد رموا بها في النهر منقذهم الابدي. يغتسلون في ماء دجلة القدسي، الجارف، الهادر، نحو الجنوب ليلتقي بصفيّه الفراتي عند بساتين النخيل في شط العرب ... ليعانقوا القمر متطهرين من ادرانهم ...وهو يضيء مبتسما، من اجلهم فقط.

وقد يعانق "ابو النؤاس" "عمرالخيّام" في كؤوسهم المترعة بالحبّ والعشق والتصوّف والزهد والجنون والمجون

والخمرة حين تلتمع ذءاباتها وتتجمّع في كاس واحدة وفي يد واحدة وفي نفس واحدة تريد ان تبتلع الحياة كلها في رشفة واحدة تشرق بها الروح العطشى، الولهى أبدا...

الفصل الثاني

ساعة الوداع الحارقة

أرخيت رأسي على ظهر مقعدالسّيارة الأمامي، الوثير. والطريق تمتدّ طويلة عتمة أمامي... الشّباب الثلاثة في

المقعد الخلفي لم أعد اسمع لهم ثرثرة. ربّما بسبب تعب السفر....كان ألم الفراق الخامد قد هدّني أيضا. مسحت دمعة مكابرة، حارقة، على خديّ دون أن يشعر بي أحد. كان شريط الوداع يتربّص بي حاضرا أمام عيني:
ساعة الوداع الفاصلة مازالت طريّة حارقة بقلبي،في مطار تونس قرطاج الدولي.دموعأمّي الغزيرة ونصائح أبي وعناق إخوتي وصحبي وبلدي... كيف اقتلعت نفسي من ذلك العش الحميمي الذي احتضنني عمرا.وخرجت منه في يوم بارد موحش.تشيّعني رعشة أغصان الشّجر ...تراب الوطن.... ورائحة المطر...
دموع أمّي تلاحقني. تنزل غزيرة، سواقي، على خدّيها الموردتين حرقة وألما وهي تمسحها في صمت، بمنديلها، الناعم، المطرّز. ملتحفة بسفساريها الحريري، الأصفر الفاتح ،المذهب الأطراف،الذي تلتحف به كجلّ نساء حاضرة تونسفي ذلك الوقت. تداري بطرف حافته وجهها الأبيض، الصافي. تكابد وتكتم مرارة الفراق كي لا تفسد عليّ فرحتي بالسفر.
قبل ذلك اليوم وفيأواخر السبعينيات. لم تكن تعرف عائلتنا الفراق أوالوداعأوالسّفر...كنتبكرة أمّي وكبيرة ثمانية إخوة: ثلاثة شباب:(فهري ويوسف ومحمّد، الذين ولدوا بنابل)وخمس بنات:زينب وروضة وألفة. وسارّة وهاجر: (اللّتين سمّيتهما بنفسي) كلّهنّ ولدن بتونس العاصمه. كنت بمثابة أمّ ثانية لهم أرعاهم وأحبّهم وأشعر بمسؤولية فائقة تجاههم.عشّ،دافئ،تجمعنا شقّة واسعة بحيّ"السانتارين " في"باردو" إحدى الضواحي الرّاقية لتونس العاصمةوالتّي كانت منتجع البايات العثمانيّين سابقا.تعيش معنا "أمّي بيّة

"وعمّتي دوجه " أخت أبي الكبرى التّي طلّقها زوجهابسبب عدم قدرتها على الإحتفاظبالضنا في رحمها... فربّتنا وأحبّتنا كما لوكنّا أبناءها وأكثر.
لم يكن أبي يحبّ الفرنسيّة ولا أدب"الكفّار"ويحقد على فرنسا الإستعمارية التي علّمته الفرنسية دون العربيّة وقد تشفّى منها قبل ذلك، عندما أدخلني "الكتّاب" منذ صغري. لكي أتعلم القرآن والعربية وأصول ديني قبل أن أدخل المدرسة.
والآن ها هويبعثني مطمئنا إلى بغداد. إلى الشّرق الإسلامي الذي مازال متمسّكا بدينه كما يظنّ.ربّما لينقذني من الجامعة التونسيّة التي يسيطر عليها الشيوعيّون وأصحاب الفكر الماركسي (اللّيما يعرفوشربّي) ومن تونس البورقيبيّة التّي تتفسّخ وتنحلّ أخلاقيا، بفعل مجلة الأحوال الشخصيّة وتحرير المرأة حسب رأيه.
كان أبي يحقد على الرئيس بورقيبة كثيرا. ولا يغفر له أنه أفطر النّاس في رمضان. ويحنق كثيرا وينفعل،عندما يرد ذكره بحبّ وافتخار كبيرين من نساء العائلة وخاصّة " أمّي بيّة " التي لم تكن تحكي عنهبغير"**سي لحبيب**". كان ذلك أشدّ ما يغيظ أبي فيقول لها متوعّدا، محذّرا:" إيبيهحضّرعظامك لجهنّم.أتوينفعك " سي الحبيب". اللّي عرّى نساء تونس، نحّالهمالسّفساريوقوّاهم ع الرّجال. وسيأتيه يوم الدّين..."
أبي لم يكن يغفر كلّ ذلك لبورقيبة... ويختلف مع أمّي التي تراه منقذا ومنصفا للمرأة وتسمّيه "محرّر المرأة " وكان ذلك سبب حنق أبي الدائم، عليها وعليه وعلى كلّ نساء تونس، السّافرات... ولم يكن الحجاب، قد دخل عاداتنا

وحياتنا بعد، في تونس، في منتصف السّبعينيات. ولذلك ربّما لم يفرضه عليّ ونجوت وخرجتقبل أن يكتسح الحجاب تونس عند المدّ الإخواني في أواخر السّبعينيات وأوّل الثمانينيات.

الفصل الثالث

... تلك "الأمّ الأسطوريّة "

"سَعدي سَعْدْ وسعدي سْعَدْ
وعندي بنتي خيرلي من ألف ولدْ
الولد اش نعمل به؟ بيدي للعسكر ندّيه
زين بنتي ما كيفو حدّ
سعدي بها وسعدي بها .تكبر بنتي ونقريها
ويخطبوني ما نعطيها .

ما نعطيك وما نعطيك كان يعطوني تونس فيك
بسوانيها،بدواليها حتى الفلف الأخضر فيها

ما نعطيها وما نعطيها ذهب البركة ما يرضيها،
زيت الساحل لقطاطيها وقمح فريقه عولة ليها
وحنّة قابس في رجليها .
حجبة وزغاريط عليها."

هكذا كانت تتغنّى بي" أمّي بيّة " كلّ صباح.تضعني على ركبتيها، تمشط شعري وتجدّل ضفائري...وأنا صغيرة.
ترنّ في أذني ترنيمتها القديمة: ترنيمة،مغايرة، لعقليّة كلّ القبيلة، التّي كانت تنتظر الولد.
"أمّي بيّة " التّي لم تدخل مدارس ولا تعرف شعارات الحركات النسويّة ولم تشارك في مظاهرات المساواة وحقوق الانسان...
هي فقط كانت تنصت إلى صوت قلبها، على الفطرة الأولى."أمّي بيّة" كانت تؤمن بي لأنها تؤمن بنفسها كأنثى.
"أمّي بيّة" التّي دلقت ورائي إبريق الماء. وهي تشيّعني بدعواتها وإيمانها القويّ بنجاحي وقدرتي على المغامرة.
" **أمّي بيّة"** تلك **"الأمّ الأسطوريه"**. **"الأمّ الكبرى"** أمومة فائضة كما **"عشتار"** تماما.
أخت أمّي الكبرى وأمّ كلّ العائلة وكبيرتها وبمثابة الجدّة.
أمومة أسطورية: ربّت ثلاثة أجيال من ثلاث أمّهات مختلفات في العائلة الكبيرة: هنّ زوجات الفلاّح الإقطاعي الكبير "علي بن عثمان" جدّي لأمّي. الأولى "للّا عويشة".

أنجبتها أوّلا ثمّ أخوين اثنين: ولد وبنت. وماتت مبكرا كأنما لتوكل لها مهمّة تربيتهما.
والزوجة الثانيّة " للّا محبوبة " النابليّةالطرّازة المعلمّة، التي لا تحبّ الفلاحة. معلمّة تطريز وحياكة وشبكة وكروشي وكلّ الفنون اليدويّة... طلّقها علي بن عثمان وكسّر محامل التطريز الخشبيّة ومزّق وسادات حبكة الشبكة عندها... ليُكسر أنفها ويجبرها على النزول إلى الأرض مثل كلّ العمّال عنده. لكنّها لم تقبل. وأبت أن تعفّر يديها بالتراب والطّين للغرس والزّرع والسّقي والحرث هيّ "المعلّمة المتحضّرة ".وكانت قويّة،عنيدة،عصيّة على كلّ رجل من رجالها الأربعة الذين تزوّجتهم تباعا.منهم الطبيب والمهندس والتاجر.والتّي لم تعمّر في بيوتهم أكثر من بضع سنوات.ولكنّها خرجت منهم جميعا بحصيلةأربعة أبناء: ذكر وثلاث بنات.
انتزع منها "علي بن عثمان" بكرها الذّكر: (خالي حمّادي) ابن الحولين. فرمت له ابنتها: فاطمة (أمّي)ابنة الشّهر الواحد:"زنطة " بعدما جرّدتها من كلّ ثيابها في لحظة قسوة مجنونة. تلقفتها أمّي بيّة. قطعة لحم. لفّتها، في فوطتها وقمّطتهاواحتضنتها وربّتها من يومها مع أخيها: ولدا الزوجة الثانية. التي قايضها علي بن عثمان طويلا الحقل بالولد. فتركت له الجمل بما حمل: البيت والحقل والولد والأملاك الشاسعة...ورجعت الى صنعتها الأولى "معلمّة "ب "الإتحاد النّسائي الإسلامي"في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي.
حتّى لحقت الزّوجة الثالثة " للّا زبيدة ". فأنجبت فريق أبناء وبنات. أوكلت تربيتهم كلّهم إلى أختهم الكبرى من الأب "

أمّي بيّة " لتثقل كاهلها أكثر فأكثر وتتفرّغ هي لزينتها وإدارة الأملاك. يد بيد مع زوجها المزواج مخافة أن يستبدلها بأخرى. أوأن يفرّط في الرّزق. وكانت زوجة أب شمطاء عرفت كيف تسيطر على الرّزق وتخضع الجميع لخدمتها وخدمة أولادها. لكن أمّي بيّة كانت عطاء مطلقا دون تمييز بين الإخوة ودون حساب فربّت الجميع في حضنها.... وأحبّوهابدورهم مثل أمّهاتهم وأكثر و**كانت الوسّاده التي غلبت الولاّدة.** كان كلّ هؤلاء يسكنون الدار الكبيرة، قلعة جدّي الفلاّح. الذي يملك نصف منطقة "الحرايرية" تقريبا.والذّي قدم جدّه " يشار بن عثمان"من اسطنبول في حوالي منتصف القرن التاسّع عشر.

ثم إنّ كلّ هؤلاء الإخوة تزوّجوا وأنجبوا واستقلوا ببيوتهم، فرّبت أمّي بيّة الجيل الثاني كلّه...وكنّا لا نفارق حضنها أبدا نتداول على استضافتها في بيوتنا على مدار السّنة.كنّا محظوظين بها أكثر،إذ كانت إقامتها الدائمة عند أمّي وأختها الكبرى " للّا شريفة" باعتبارهما كبيرتي العائلة.

ويوم السّعد من تدخل "أمّي بيّة " بيته وتبقى مدّةعنده، تدخل معها البركة والأمان والمحبّة والحنان والعطاء والسّخاء...

ثم تزوّجنا وأنجبنا وكان كلّ مولود جديد تتلّقفه في حضنها. تنظّف وتقمّط وتغسل وتلبّس،توكّل وتشرّب وتدلّل وتحبّ حبّا لا حدود له. طاقة خرافية على العطاء وفيضا من الأمومة لم نعرف مثله.

كان حضنها رحيما بأخطائنا وبطَيشنا وبحماقات صغرنا وشقاوتنا. تنهرنا أحيانا وتوّجهنا وتلومنا وتعاتبنا وتنصحنا لكن دون عدائية أبدا.كان قلبها شلاّلا من الغفران ينسكب على أرواحنا،الصغيرة،المرتجفة،عند وعيد أمّي أوغضب

أبي... أعطتنا زادا من الأمان والإطمئنان والحبّ والحنان يكفي عمرا كاملا.
هي الوحيدة التي تستطيع أن تقف في وجه أبي عندما يتوعّد أحدا منّا. وتقول له:
" إيه نسيت روحك وقت اللّي كنت صغير.آش كنت تعمل؟
" هي وحدها طبعا،التّي تعرف ماذا كان يفعل هؤلاء الكبار في صغرهم ههه...ولا أحد يستطيع أن يتكلّم معها إذا وقفت أمامه.ونحن مختبئين وراء ظهرها. تردعهم كلّهم بأسلوبها الحاسم، الواثق، الرصين الراكز... ودون تشنج، تجلس معنا وتكلّمنا كحكيمة بأسلوب هادئ، راق، كبنات المدارس. هي التّي لم تدخل مدرسة قطّ. وكانت الكلمة المفتاح التي تحلّ بها كل المشاكل " السياسة. كلّ شيء يتحلّ بالسيّاسه " وكانت تقصد بها الكياسة طبعا...
كانت هي التي تُهدّئ كلّ جو مشحون بالتوتر وتحوّل كلّ نار إلى رماد.
كانت لا تحبّ العنف أبدا وترتجف من أبسط عراك. هي القويّة، الصّبورة. كانت تقول دائما: " بدني ما يحملش العرك. يجعل ربّي يحبّني قد ما نكره العرك ". حتّى عندما يتقاتل الصّغار فيما بينهم وخاصّة الذكور على أتفه الأسباب. تتدخل وتحلّ كلّ مشكلة وتغدق من كرمها المادّي والمعنوي لجبر الخواطر بين الإخوة في كلّ بيت....

كنّا نشعر بأمان وسلام لا مثيل لهما عندما تكون بيننا.ونشهق بالفرح عندما تفتح الباب علينا وتعود لنا بعد طول غياب، نرتمي كلّنا في عنقها دفعة واحدة،نكاد نوقعها أرضا،من الشوق لها والفرح بها.

ويوم نعود إلى البيت ولا نجدها. نحزن ونسقط في الفراغ وكأننا تيّتمنا فجأة. ونغدو كئيبين،بائسين،كأن لا أب ولا أمّ لنا. نظلّ نبحث عنها في الدار غرفة غرفة. نصعد الطابق الفوقي و ننزل :"ويني أمّي بيّة؟ ويني أمّي بيّه؟؟؟"فترد أمّي:" جات للّا شريفة وأخذتها ... ماهو كلّ واحد شوي شوي " تقول أمّي ذلك وصوتها منكسر يكابد نفس الوحشة. ويسقط البيت كلّه في الفراغ والخواء من جديد.

"أمّي بيّة "هذه " الأمّ الأسطورية " لم تتزوّج أبدا! بسبب حدبة ظهرها الذّي تقوّس، منذ الصّغر من كثرة العناء والتّعب من أعمال الحقل وحمل إخوتها فوق ظهرها.
ولكنّها لا تعتبر ذلك إعاقة.ولم تقعدها عن الحركة أبدا.بل كانت نشطة، مهووسة بالنظافة. ستّ بيت ممتازة، طبّاخة ماهرة تساعد أمّي في شؤون البيت وفي تحضير الأكلات التقليديّة الثقيلة على كاهلها. مثل العصبان والمدموجة والرفيسة... وإعداد العولة والبسيسة وكلّ التوابل والمصبّرات والمخلّلات ومعجون الطماطم ومربّى الفواكه: الإجاص والرمّان والبرتقال خاصّة. كأطيب ما يكون....وصينيات حلويّات العيد. حتّى في غير أوقات العيد...

ولم تتذمّر يوما ولم تشكو أمرها لأحد.ولم تأسف على زوج أوعائلة خاصّة بها. كانت تعتبر أنّ الله حباها بأكبر عائلة وبكلّ هذا العدد من الأولاد.وقد أحبّتنا كما لم يحبّنا أحد. كانت تفرح لفرحنا وتبكي لبكائنا وتحزن لحزننا وتزغرد لنجاحاتنا و اعراسنا...ولا تقام أيّ مناسبة في كامل العائلة

الموسّعة من غير أن تكون "أمّي بيّة " حاضرة،حاركة في كلّ تفاصيلها، واضعة يدها للبركة... نستشيرها ونعود إليها في كلّ كبيرة وصغيرة. نعزّها ونجلّها ونحترمها ونقدّرها حقّ قدرها...

كانت راضية بقدرها رضاء خرافيّا. سعيدة بنا. لا تسمع من فمها غير الحمد والشّكر لله والصّلاة على النّبي رسول الله. وكانت زاهدة في الدّنيا وفي كلّ شيء، لا تغريها أملاك ولا عقّارات...وكانت تقول قولتها الشّهيرة دائما: " قلبي ما مليان كان بالصّلاة ع النّبي. وغير هذا ما نحبّ حتّى شيء ". فعلا كان قلبها عامرا بالإيمان وبالرضا بقدرها وأوسع من قلوب كلّ الأمّهات مجتمعة.

كان لها حنو خاص على أمّي. وحينما تزوّجت انتقلت للسكن معها في" دار شعبان " في مدينة نابل مسقط رأس أبي. ربّت معها تسعةأطفال أنا بكرتهم. كأنّما خلقت أمّا بالفطرة. لتعطي درسا للعائلة ولكلّ من عرفها أنّ الأمومة ليست علاقة بيولوجية دائما وإنّما هي فيض عطاء بدون حدود ويمكن أن تتفوّق عليها أيضا.

"أمّي بيّه "هيّ الوحيدة التّي كنت أستطيع أن أنام على صدرها بكلّ أمان وأن أفضفض لها بأوجاعي وخوفي وأحلامي وأخطائي الكبيرة والصّغيرة والبسيطة وبتفاهاتي... وكلّي ثقة في الغفران والدّفاع عنّي أمام صرامة أبي وحزم أمّي وعقابهما. وكثيرا ما كانت تنسب زلاّتنا إلى نفسها للإفلات من تقريع أبي وغضبه.

هي أيضا سالت على خدّيها دموع غزيرة يوم سفري....وغصّت بحرقة الفراق وإن لم تظهر.
"أمّي بيّة "هيّ نفسها التّي كانت تصحو كلّ يوم، عند الفجر لتتوضّأ وتكشف شعر رأسها للنجوم والسّماء وتدعو ربّها أن يستجيب لدعائها ويعمّر حزام أختها فاطمة بنت محبوبة،بصبيّ بعدالبنتين الأوّلتين:(الأولى أنا والثّانية أختي مفيدة التّي توفيت في شهرها السّابع وتركتني وحيدة). حتّى تستطيع أن تعمّر في عشّ الزوجية. بعدما زاد همز ولمز السّلفات والجارات عن حدّه، سرّا وعلانية عن التونسية (يعني من سكان العاصمة)التّي لم تنوّر وتفرّح دار الرايس بالذكرفي مدينة " دار شعبان الفهري "مسقط رأس أبي.وتملأ البيت الكبير للعائلة زهوا ونخوة بالذَكر.
كان"سيدي الفهري"وليّا صالحا، صاحب كرامات وخوارق ومعجزات...ويده تجمّد الماء.في مخيال أغلب الأهالي الذّين يقومون بزيارته،كما سكان البلدان المجاورة على مدار السنةللتضرّع والتبرّك والنذر والتوسل(لقضيان الحاجة) وما قصده أحد وأخلص النيّة إلاّ ولبّى الوليّ الصالح طلبه.
فالمهم النيّه الصافية والوفاء بالنذر. كما يعتقدون.
كانت هيّ أيضا تتردّد على "زاوية سيدي الفهري" مثل كلّ العائلة تحمل الشموع والبخور وتعقد النيّة وتكثرمن الدعاء والتوسّل بالولي الصالح أن يحقق حلمها وحلم كلّ العائلة بالذكر.حكايات كثيرة كنت أسمعها منذ صغري،عن بركات سيدي الفهري واعتقادات العامّة وعاداتهم وتقاليدهم... فالعروس لا تبدأ ليالي الحنّة إلاّ بعد أن تحمل الشّموع لسيدي الفهري وتتبرّك به.والعرسان كذلك يزورون الزّاوية ويغتسلون بمائها ليلة دخلتهم قبل أن يرتدوا كسوة العرس.

وحتّى التلاميذ والطلبة يزورونه أيضا قبل اجتياز امتحاناتهم بالإضافة إلى المواليد الجدد والمرضى طلبا للشفاء.
ويوم ولدت أمّي الذكر، لدار الرّايس سمّوه"محمد الفهري " وأوفوا بالنذر و ذبحوا الخرفان وقدمّوا مثرد الكسكسي باللّحم.وكان يوم عيد في الزاوية.وجابوا "وجق الفهري" ل"السّابع"(اليوم السّابع بعد النفاس) في الدّار الكبيرة.وكذلك فعلوا يوم ختانه.وزاد جدّي محمّد الرّايس رحمه الله فتبرّع بختان بعض أبناء الفقراء والمحتاجين في الزاوية على عادة أهل دار شعبان الفهري.
وكان تعلّق أغلب الناس بسيدي الفهري، حدّ التقديس لكون نسبه يعودإلى الرسول (صلعم) فهو الشيخ أحمد الفهري بن محمد بن الفضل بن عتبة بن سهل بن إسحاق الأنصاري القبّي الخزرجي النجاري بن قصي بن وهب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم
ولد بالسّاقية الحمراء بجنوب المغرب الأقصى في بداية القرن الرابع للهجرة.وكان منذ صغره رجلا صالحا يهتّم بأمور الدّين والعلم.حفظ القرآن وتعاليم اللّغة وتضلّع في أمور الفقه والسّنة وقيل أنّه جاء بلاد المغرب لمطاردة الشيعة...
وقد استقرّ به المقام قرب قصر" شعبان "حيث تزوّج ابنته. وبمرور الزّمن تكوّنت من أحفاد الفهري جنوب قصر شعبان، بلدة عرفت بزاوية الفهري إلى جانب أهل شعبان المستقرّين حول القصر.
وقد اقترن من حينها اسم "دار شعبان الفهري" بهاذين الشّخصين والعلمين التاريخيين اللذين ربطت بينهما علاقة وشيجة: شعبان مشماش، وإليه تنسب بلدة دار شعبان، حيث

كان ممثلا للدولة الإسلامية بمنطقة الوطن القبلي المطلّة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وأحمد الفهري الأنصاري الذي يعود نسبه الى جده رسول الله (صلعم)الذي قدم من السّاقية الحمراء.

وبقي الشّيخ أحمد الفهري على اتّصال بالعلماء وأقطاب التصوّف في عصره. وتقدمت السّن بالشيخ حتى توفي سنة (389 هـ) بعد أن قضّى بدار شعبان الفهري ما يقارب عن الثلاثين سنة.ودُفن هناك ولا يزال قبره إلى الآن حيث أقيمت عليه زاوية،من طرف أتباعه وأولاده الذين أتوا من بعده وقد بقي زائروه إلى اليوم يَقدمون لزيارته من داخل البلاد وخارجها.

والذّي كنت أسمعه من صغري أنّ معارك صغيرة وحزازيات كبيرة كانت تدور بين الفهوره والشعابنيّة رغم أن المراجع الرسميّة التاريخية تقول:

أنّه إثر الاستقلال وبتاريخ 9 جانفي 1957 وعند تأسيس أول بلدية بهذه الربوع توفق أهل البلدتين إلى توحيدها ضمن اسم واحد يشملهما معا وهو"دار شعبان الفهري"، عملا بمبادئ الإسلام المحرّضة على تمتين صلة الرّحم ومن منطلق موقف حضاري يمقت التفرق ويدعو إلى الوحدة.

الفصل الرابع

غربة اللّيلة الأولى

قطعتالسيّارة،مسافةطويلة،لتوصلنامنالمطار،إلىأقسامنا الدّاخليّة، بمنطقة "الوزيريّة". بدأ المرافق،المكلّف،بإيصالناإلى سكننا،من طرف وزارة التعليم العالي،العراقيّة،بإيداع الشباب أوّلا،فيمبيتاتهم، التّيكانت صغيرة ومتفرقةبمنطقة الوزيرية.

أمّا أنا فقدأوصلني إلى القسم الداخليّ الرئيسيّ للبنات وهو أكبر قسم، حسبما عرفت فيما بعد.

وقفت السيّارة أمام بوّابة حديديّة،عملاقة أمامها حارس، كهل، يحمل كلاشينكوف، يعلوكتفه ويتدلّى ثقيلا حتّى خاصرته وهويقطع البوّابة الرئيسيّة العريضة جيئة وإيّابا، ارتعبت أوّل ما رأيته.ولم أكن أعرف أن حرّاس المبيتات يحملون سلاحا صارخا وظاهرا بهذا الشكل من قبل. فمبيتات الطلبة عندنا مفتوحة ودخولها حرّ وبدون استئذان من طرف الطّلاب ذكورا كانوا أوإناثا. وبدا لي وكأننا ندخل ثكنة. استأذن المرافقُ الحارسَ وأعطاه ورقة فيها إذن

السكن ليفتح لنا الباب. دخلنا بهوالإستقبال الفخم، الفسيح المفروش بسجّاد أحمر سميك، تصطف على جانبيه أرائك جلديّة بيضاء:يسمّى "الإستعلامات" عندهم.الإستعلامات التّي ستكون لنا معها حكايات وحكايات....أودعني المرافق إلى المشرفة الليلية التي تجلس إلى مكتب خشبيّ قبالة الباب. تسهر على تسجيل دخول وخروج الطالبات وتراقب أوقاتهن وخرج.وقدانتهت مهمّته إلى هذا الحدّ في يومها الأول. بعدما تمنّى ليالنجاح والتوفيق في دراستي والإقامة الطيّبةفي السّكن.

إستقبلتني"السّت وداد أمّ سعد"، المشرفة،الليليّة،بحفاوة ودهشةوسألت المرافق (وهويقدّم لها ورقة إذن السكن)قبل أن يغادر، إن كنت أُحسن الكلام بالعربيّة؟ ولمّا نظرتُ إليها بإستغرابودهشة قالت لي: " يقولون إنّكم بتونس ما تحكون عربي؟"

تعمّدت أن أجيبها بالعربيّة الفصحى. وأغاضتني هذه الأفكار المسبقة عن بلدي تونس...ولكنّها كانت وديعة، ودودة،إمرأة محجّبة في مقتبل العمر.رمقتني بنظرة حنون وقادتني إلى الغرفةال 51من الطابق الثالث. مررنا بأروقة واسعة وغرف فارغة وحيطان باردة عبر طوابق شاسعة..كان المبيت كبيرا، موحشا، خاليا تقريبا من الوافدات في أوّل السنة الجامعية. وهي تقودني، كمن يقود طفلا مشرّدا وجده في الزحام إلى أقرب ملجإ. تعطيني بعض التّعليمات وتسدي إليّ بعض النصائح: أهمّها موعد إغلاق باب المبيت في السّاعة السّابعة مساء، مما زاد في ضيق نفسي...، تتلّطف في معاملتي،كأنّها حدست غربتي بحكم إستقبالها للوجوه الطلابية الجديدة كلّ يوم... كانت تنظر إليّ وتقول: " خطيّة

طالبة عربية ". (وخطيّة عند العراقيّين معناها مسكينة وفيها حنو كبيروأمومة: كلمة تتردّد كثيرا عند العراقيين).تونس كلّش بعيده.

تملّكتني وحشة غريبة، أوّل ما خلوت إلى نفسي بالغرفة ال 51 الكبيرة الواسعة. في انتظار أن تلتحق بي ثلاث طالبات أخريات كما هوالنّظام في القسم الرئيسي: أربع طالبات في كلّ غرفة.
كان "القسم الرئيسي" أكبر سكن للطالبات ببغداد، يقع بمنطقة"الوزيريّة":في مجمّع "باب المعظّم": بمدخله على اليمين،كليّة الآداب التي تمتدّ على كامل الممشى حتّى الأقسام الداخليّة الصغيرة للبنات وعلى يساره كليّة الصّيدله وبجوارها في آخر الممشى أيضا قسمنا الداخلي الكبير:"القسم الرئيسي " تفصل بين الجهتين أشجارالنخيل على طول ممشى المجمّع.
كان السّكن بناء كبيرا، فخما،يقع في أربعة طوابق، به بلكونات أماميّة فسيحة تطلّ على ممشى الشّارعوأخرى تطلّ على الحديقة الخلفيّة:
الطّابق الأرضيكلّه بهواستقبال كبير:"الإستعلامات"علىشكل صالوناتجلديّة ومخمليّة،عديدة،في كامل أرجائه. فوق سجّاد سميك أحمرووثير. واجهة المدخل كلّها بلوريّة شفّافة على طول الحائط. تغطّيها من الدّاخل ستائر السّاتان، الأحمر، الداكن. بحيث ترى مَن بالخارج ولا يراك أحد. مقابل الباب مكتب، خشبيّ، مستطيل، بسيط، تتناوب على الدوام به، مشرفة صباحيّة وأخرى لبعد الظهر حتّى قدوم المشرفة الليليّة، لمراقبة الدّاخل والخارج. وغير مسموح لأيّ ضيف

الصعود إلى الغرف. بل انتظار صاحبة الزيارة في البهو حتّى تنزل لاستقباله. أوانتظارها حتّى تعود من الخارج.
أربعة مصاعد كهربائيّة معدنيّة، رصاصيّة اللّون، كبيرة، تسلّمك إلى فسحة، شاسعة، في كلّ طابق بها جناحان طويلان، فسيحان:الجناح الأيمن للطالبات العربيّات والجناح الأيسر لعراقيات المحافَظات (الولايات).
على طول كلّ جناح صفّان من عشرة غرف: صفّ اليمين يفتح على الشارع وصفّ اليسار يفتح على الحديقة الخلفيّة.
تتوسّطهما على طول الرّواق المغاسل والحمّامات. بأوّله المطبخ الكبير المشترك وبآخره قاعة المكتبةوالمراجعة المشتركة أيضا، المؤثثة بعديد الطاولات الفرديّة والمزدوجة،المجهّزة بمصابيح المكاتب والأرائك الوثيرة والسجّاد السّميك الدافئ وجهاز التلفزة.
بالطابق الأوّل توجد الإدارة وبها تنام مشرفة الغرف الليلة.
أمّاغرفنافتحتوي كلّ واحدة على أربعة أسرّة فرديّة، من خشب الأبنوس الأحمر، الأنيق، بحشايا وأغطية وثيرة: كلّ سريرين يمثّلان زاوية قائمة.والزاويتان تقسمان الغرفة الواسعة إلى قسمين: الشطر الأول للنوم. والشطر الثاني فسحة، كبيرة، بها طاولة وكراسي للأكل أوللدّرس. دولابان للثياب لكلّ نزيلتين، من الجهتين، تملآن عرض الحائط،مننفس الخشب. ينقسم كلّ دولاب إلى قسم علوي للتعليق وقسم سفلي للأدراج، كلّ بمفتاحه الخاص. الجهة اليمنى التّي سأحتلها أنا وصباح. ونوّال ونهى من جهة اليسار.وفي الغرفة ثلاجة كبيرة.و"صوبا" وهي مدفأة أسطوانية الشّكل عالية. تسمّى "علاء الدين " نضعها في

الوسط ونلتف حولها أيّام البرد في الشتاء. فوقها إبريق الشّاي الذي لا يفارقنا.
وتبقى البلكونة المستطيلة، الحجرية،الدّاكنة،الفسيحة،المكشوفة، التّي تمتدّ على مدى مترين أمامنا،بعرض ثلاثة أمتار والتي تطلّ على المدخل الخارجي ملاذنا وترفنا ومتنفسنا، خاصّة في ليالي الصّيف التي يشتّد بها الحرّ وهي امتيازنا أيضا لأن غرف الجهة الغربيّة، للسكن تعطي على الحديقة الخلفية الجرداء.
أمّا نحن سكان الجهة الشرقيّة، فيقابلنا صفّ النّخيل الشّامخ، الذّي يستظلّ به أصدقاؤنا الشباب عند انتظارهم لنا، بعيدا عن أسئلة الحارس "العمُّ أبو جاسم " وسلاحه الممشوق على كتفه أبدا. ورقابة مشرفة الإستعلامات التيتسجّلكلّ الزيارات وكنّا نراهم من البلكونة فننزل لهم.
كانت هذه الغرف أكثر انشراحا وتختصّ بها الطالبات العربيّات فقط. وكانت الطالبات العراقيات،الوافدات من كامل محافظات العراق، يشعرن بنوع من الحيف والغيرة جراء ذلك وغيره. ويتحسّسن منه ويسمعننا: أنّنا نحن العربيّات مدلّلات أكثر منهنّ. في غمز خفيّ لسياسة صدّام حسين، التّي تولي الوافدات والوافدين عموما، إمتيازات، أكثر منهنّ. في نطاق سيّاسة الإستقطاب الثقافي للطلبة العرب. لكنّنا كنّا نتبادل الزيارات بيننا ونسهر مع بعض حسب إنسجامناومزاجنا... والحقّ أنّنا عموما قليلات الإختلاط بهنّ في المبيت أوفي الكليّة.
"رقية عمّتي دوجة "

تملّكتني وحشة غريبة، أوّل ما خلوت إلى نفسي في غرفة كبيرة واسعة. يدقّ برأسي تنبيه وقانون "السّاعة السّابعة " كناقوس خطر يكسرالأجنحة المرفرفة في أضلعي.
ارتميت على أوّل فراش بزاوية اليمين. فتحت حقيبة يدي الجلديّة، لأجد زجاجة ماء الورد، الصّغيرة، الفوّاحة، التي دسّتها "عمّتي دوجه " في حقيبتي. والتّي تستخرج خلاصتها بنفسها قطرة قطرة كما تفعل جلّ نساء "نابل" في موسم تقطيرالزّهر(زهرالنارنج:القدّاح)والعطرشيّةوالنسريوالفليّووا لورد....الذي نشتهر به.
كانت تلك هواية وتسليّة "عمّتي دوجه"من وقت ما أصبحت أرملة لتشغل نفسها بها. ولتتكفّل بتوفير وتوزيع "فاشكات" (الزجاجات طويلة العنق مدوّرة البطن) الزّهر والعطرشاء على كلّ العائلة من إخوتها وأخواتها ويمتدّ عطاؤها إلى جيراننا المقرّبين أيضا وبعض الأصحاب... وكانت تلك منتهى سعادتها. وكانت رحمها الله تخصّني كلّ موسم بفاشكة -المجموعة (الكوكتال)التي تشتريها خصّيصا من" سوق الجمعة " بنابل لتملأها بمجموع كلّ تلك الزهورالتّيتقطرها.وهيفاشكة مشغولة ومطرزّة ومشبّكة بدانتيلا شرائط الحرير. وهي صعبة التقطير كما أفهم منها تخصّني بها أنا كبيرة العائلة المدلّلة.
كانتعمّتي "دوجه" لا تستطيع أن تحتفظ بالضنا في رحمها أكثر من بضعة أشهر، تُسقط بعدها. أجهضت عدّة مرّات وفي المرّة الوحيدة التّي وضعت فيها بنتا جميلة مثل القمر.أسمتها " حوريّة "كانت فرحة بها فرحا ملأ عليها كلّ حياتها. تضعها في سريرها الدوّاح، تحت شجرة الياسمين الوارفة العالية التي تغطي ركن الفيراندا القبليّة لبيتنا العتيق،

في بلدة "دار شعبان الفهري" بنابل.ركنهاالمفضل.تظلّ تناغيها وتلاعبها، تدلّعها وتدلّلها، تناوشها وتغني لها ...وفي ليلة حالكة مرّت عليها البومة كما تحكيلنا نساء العائلة دائما. وسلبت منها روحها وهي في حولها الأوّل.كانت عمّتي قد تركتها لتعود لها برضعة الحليب. فإذا بوجهها الصّغير، الأبيض، المورّد، قد غدا أزرق فجأة وكذلك كامل جسمها.
ليلتها كانت وحدها بالبيت الكبير. إذ الكلّ هرع بأمّي التّي كانت ولادتها عسيرة إلى العاصمة. بعدما عجزت جارتنا القابلة " عائشة مرت عطيّه " عن توليدها، وكذلك القابلة الطليانية " جنّات " بعد ثلاثة أيّام من الطلق، العسير. نصحت بأخذها إلى مستشفى العاصمة لأن الضنا مقلوب في بطنها.
تلك اللّيلة لم تدرعمّتي، المفجوعة في وحيدتها، التّي تحتضر بين يديها ماذا تفعل لها سوى أن تسقيها بعض جرعات من الماء، في محاولات يائسة علّها تردّ إليها الحياة. لكن الصّغيرة كانت تردّ الماء ولا يقبله فمها. لم تكبّ عمّتى الماء الذي ترجعه فقيدتها، بل احتفظت بالكأس وسقت به ياسمينة ركنها المفضّل ومحلّ فجيعتها (وكانت عادة عنّا بنابل ألا نكبّ ماء الميّت الذّي يرجعه من فمه ونسقي به شجرة نسمّيها على اسمه ...)
وكانت كلّ عشيّة تجلس تحتها. مرّة تبكي ومرّة تجمع حفنة ياسمين وتدسّها في صدرها تحت - حصّارتها - وتتنهّد، عندما تهبّ عليها نسائم العشية:" ما أفوح ريحة بنتي حوريّة!" ومنذ ذلك الحين والياسمين عند عمّتى دوجةو عندي أيضا مرتبط بتعلّق الرّوح بالرّوح .

تلك اللّيلة وصلت أميإلى مستشفى "شارل نيكول " بالعاصمة وكانت ولادتي على يدي"توحيدة بن الشيخ".
و"توحيدة بنالشيخ" هيّ أوّل طبيبة، نسائية، تونسيّة، تخرّجت، من جامعة باريس. هرّبتها أمّها خفية من الباب الخلفي،لفيلا الدار بعدما جاء كبار رجال العائلة، يوم سفرها لمنعها من الخروج، بوصفهم اولياء أمرها، بعد وفاةوالدها،المحافظ،شيخ جامع الزيتونة. معترضون على سفر بنت من بنات عائلة " بن الشيخ " العريقة.والعيش بمفردها في باريس. في زمن كانت النّساء لا يجتزن عتبة البيت إلاّ مع أزواجهن أومع أولياء أمرهنّ في تونس، في مطلع القرن الماضي.
هل أورثتني "توحيدة بن الشيخ" حبّ السّفروالمغامرة والتحدّي وحبّ باريس والدّراسة في الخارج...؟ لكن عمّتي "دوجة" كانت تعتقد أنّ الله بعثني لها وعوّضها بي خيرا في الصّبح المشرق، بعد ليلة حالكة، اختطفت منها البومة ابنتها "حورية ". ومن حينها تعلّقت عمّتى"دوجة" بي، تعلّقا غير عادي... وقد أعياها إقناع أبي أن تتبناني بكتب رسميّ،معتقدة، جازمة أنّ الله بعثني إلى حضنها الذّي خلى من إبنتها، التّي فجعت فيها في غفلة منها. ولكن سرعان ما طلّقها زوجها، الذي كان ينتظر هذه التعلّة للزواجبامرأة أخرى مغرم بها من قبل. فلم تأسف عليه.فجلبها أبي للعيش معنا وكان ذلك منتهى سعادتها أن تجتمع بي وتحضنني وتضمّني وتحبّني كما تشتهي. وكانت تسهر على تربيتي: تخيط لي فساتيني وتشتري لي شرائط شعري وتصنع لي دمى، من القماش وأعواد الخشب، تحشوها بالصّوف أو القطن وتكسوها بالثياب الداخلية والتنانير القصيرة

والقمصان الملوّنة وتصبغ وجوهها بالكحل وقلم الشفّة وتعطيها أسماء من عندها: (أمّك طنغو وهلالة كشكش) وهي شخصيات شعبيّة مستمدة من نساء حارتنا "بدار شعبان الفهري ".وتسافر خصّيصا الى "نابل" لتأتينا "بعرائس السّكر" التي نزيّن بها مثرد الكسكسي في رأس السنة الهجرية. تختار ديكة للصّبيان وعرائس للبنات حسب العادة في توزيع الدمى السكريّة، الملونّة في هذه المناسبة التي ننتظرها لنتباهى بعرائسنا امام أطفال الجيران الذين لا يعرفونها لانّها خاصيّة نابليّة.فتفاجئنا عمّتي الكريمة أنّها حسبت حسابهم أيضا. كانت تساعد أمّي كثيرا في شؤون البيت....وإنتقلت معنا للسكن في العاصمة بحيّ السنتارينبباردو. وربّت مع أمّي كامل إخوتي لأنّها كانت طاقة حنان خرافي.

عمّتى دوجة التي كانت تحبّني وترعاني بصفة خاصّة رأت مناما، ليلة سفري. روته لي قبل أن أخرج وهي تودّعني وكأنها تزّف بشرى لكلّ العائلة: **" البارحة رأيتك يا عمري في المنام.تسيرين في بلاد بعيدة.تدفعين جموعا غفيرة.وتشقّين طريقا عسيرة وتخرجين منها سالمة، غانمة. لتتربّعي على قمّة ربوة عالية، كأنّها بمكّة المكرّمة "**. قال لها أخي فهري:" يا عمّتي إنّ حياة ماشية للعراق موش للحجّ " قالت:"أعرف. ولكن الله جعله جبل عرفة، لتصدق رؤيتي ".ضحكنا لتكون دموعنا لحظة الوداع بطعم التفاؤل.

أفتحزجاجةماء الورد. أشمّه، فتعبق رائحة عمّتي التقيّة،الصالحة، الحنون،البسيطة...أسكب ماء الورد على صدري وأغمر وجهي بعطرها. كما كانت تغمرني بقبلاتها

وفيض أمومتها ودعواتها في صلواتها بالنجاح والصلاح... فتنعش روحي المتعلّقة بها. وتختلط بها دموعي...رائحة أهلي والحنين لاتزال طريّة طازجة...

أرخي رأسي على الوسادة وأتمدّد بجسدي المرهق على السّرير... فأكاد أتحسّس يد عمّتى، الحنون وهي جاثية بركبتيها،عند فراشي، ترقيني رقيتها المعتادة. التي ورّثتها إيّاها أمّها: جدّتي" شلبيّة بنت البير " بعدما "دفلت" لها في يدها، لتثبيت التوارث مثلما كانت تقول دائما.

أكاد أسمع رقياها وأكاد أردّدها معها من كثرة ما حفظتها... وقد نفثت ثلاث مرّات نفثا خفيفا في كفّها، ثمّ أغلقته على حبّات الملح والسينوج وشرعت تكركب وتمسح جسدي طولا وعرضا. لتطرد منه الشرّ والعين والنفس الشرّيرة والغيرة والحسد خاصّة الذي تردّ إليه عمّتي كلّ ما يمكن أن يصيبني.

تبسمل وتصلّي على النبيّ:

" باسم الله الذي لا يضرّ ولا يؤذي مع اسمه شيئ.

اللّهم صلّي على النّبيّ حاضر محمد وعليّ وفاطمة بنت النبيّ...

كانك من البنات إطلع ما تبات. كانك من الذكور إطلع ما تبور. كانك من الرّجال اطلع بلا هبال. كانك من النساء اطلع واتنسى... العين الزرقاء العين البرقاء اللّي شقّت البحر فرد شقّه... اللّهم صلي على الرّسول يعطيني ربّي ما نقول... رقيتك مثلما رقات فاطمة بنت النبيّ. رقات جمل بوها بات ينين صبح يسير ببركة ربي العالمين. اللّهم صلّي على النّبيّ وفاطمة بنت النّبيّ. يا نفس يا نجيسة أخرجي من هالفريسة."

وكنت أضحك عندما تنطق كلمة "فريسة " منذ صغري. وأشعر حين تمسّدني وكأنّها تدغدغني وأقوم خفيفة، نشطة. أمسح دموعي وأكتم حرقة مكابرة، تأبى أن تنكتم وصوت صامت يعاود العواء بداخلي...ما ينفك يزعزع دواخلي المبعثرة،على عتبات التحدّي والمغامرة:"ما الذي جاء بي إلى هذا البلد الغريب؟ وكيف تركت ورائي بيتا دافئا وإخوة يحبّونني وأمّي وأبي؟ لم نفترق يوما ولم نغترب عن بعضنا أبدا. ما الذي حدث معي؟ ومنأغواني أنا كبيرة إخوتي بالهجرة؟وكيف تلبّسني شيطان السفر؟؟؟"

يهدئني ويداري شهقتي، صدى صوت أمّي وهي تردّد لجدّتي ولنساء (العيلة): **"نحّبها تطلع كيف جيلها وأندادها"**وهي تكابد ألم فراق إبنتها البكر. من أجل أن تفتح لها مصيرا مختلفا، غير الذي كُتب عليها منذ الصّغر. وألا تحرمها ممّا حرمت منه في الكبر.

هيّ: فاطمة بن عثمان إبنة الفلاح الكبير:عليّ بن عثمان، رحمه الله،الذي كان يملك نصف منطقة " الحرايريّة "وأراضيه تمتد من "شبّدة" بالعاصمة الى "المرازقة" بولاية نابل. لم يعلّمها ولم يدخلها المدارس،على سعة رزقه، في ذلك العهد من بداية القرن الماضي. كانت حسرة بقلبها، أنّها لم تتعلّم القراءة والكتابة. ومن أدرانا أنّها لم تكن تتوق للسفر هيّ أيضا؟وأنّ بقلبها يرفرف جناحان تمّت قصقصتهما منذ الصّغر.تبكيتا لرغبات الإناث الممنوعة والمحرّمة.

لوأزحنا فقط غشاء الكبت الهشّ، عند نساء ذلك العصر. لتبيّن لنا حجم الأحلام والآمال والرّغبات والإختياراتوالطموحات التي قُمعت، بفعل الحرام والحلال

والعرف والعادات والتقاليد التي يشرّعها مجتمع الذكور، المقنّنة بالشرع، المتستّرة بالدّين.
أدلق على وجهي ورقبتي وجسمي ماء الورد، لأطفئشجني وأعدهنّ: **"لن اخذلكنّ نساء (العيلة) ابدا ".**

الفصل الخامس

باريس الحلم...

المشرفة الصبّاحية على القسم الدّاخلي وهي تستقبلني في أوّل يوم. تكرّر على مسامعي في دهشة: أنّي أوّل تونسيّة تسكن القسم الرئيسي وهذا امتياز كبير، لأني موفدة من الحكومة التونسيّة، إلى شقيقتها الحكومة العراقية، في نطاق تبادل طلابي رسمي. لكنّني لم أكن أشعر بأي امتياز. بل كنت أشعر بانقباض كبير، خاصّة لمّا جنّ الليل، في هذا اليوم الاوّل والجناح خال ولم يأت أحد لرفقتي بعدُ في

الغرفة.كلّ ما كنت أريده أن ألتقي بتونسيّات وأسمع كلاما تونسيا يبدّد غربتي. ولا يهمّني أينما كنت.
أردت أن أخرج، لأقوم، بفسحة مسائية، أتنفس هواء نقيّا وأزورالأقسام الداخليّة المقابلة، علّني أجد فيها تونسيّات، أحكي معهنّ. أردت أن أختبر هذا القانون، أوأن أخترقه بالأحرى، فمنعني الحارس " أبوكلاشن ".
وأعادت على مسامعي، مشرفة الإستعلامات الليليّة، أنّ باب المبيت يغلق في السّاعة السّابعة. وكلّ تأخير يجب أن يكون مبرّرا، من إتّحاداتوروابط الطلبة. أمّا الخروج بعد السّابعة، فهوممنوع منعا باتا، إلاّ لحالات الطوارئ.تذكرت عقدة السّاعة السّابعة في بيتنا أيضا: هيّ أقصى توقيت، لرجوعنا إلى البيت، من معاهدنا كلّنا.والويل لمن يتأخّر بعد ذلك. فلن يسلم من أبي ولا من أمّي، التي تتحمّل مسؤولية تأخيرنا، في ملفّات التّحقيق، المرعبة، لنا.والتّي لن تغلق بسهولة، من طرف أبي....
أحسست أنّي أختنق وأنّي في سجن (خمسة نجوم)بطوابق فخمة،شاسعةولكنّها خالية ومقفرة وموحشة كقلعة مهجورة،إلاّأنّهامحروسة بمسلح، يرابط أمام البوّابة، العملاقة،بكلاشنكوف، كأنّنا في حالة حرب.
غصصت بأسئلة موجعة... وأنا أستلقي، على سريري، الوثير، المريح، الّذي لم ينجني، من وخز أسئلة، لم أفصح عنها ولكنّني كنت أسمعها، ترجّ كياني المتعب: "ما الّذي جاء بي إلى هذا البلد الغريب، البعيد؟" تذكرت أهلي، والتفافنا حول الموقد، في اللّيالي الباردة ودفء أمّي وأبي وإخوتي... تذكرت بكاء أمّي المرّ وهي تودّعني...كيف رميت نفسي بهذا الصقيع الموحش؟

عندما مرّت المشرفة اللّيلية، تتفقّد الغرف، عند السّاعة التّاسعة، رأت بعينيّ، أثار بكاء، قالت:"خطيّةإنتالطالبة التونسيّة اللّي جتّ الصبح؟ "
أومأت لها بنعم وأنا أغصّ بغربة مكتومة. انخلعت المسكينة وقالت لي:"هايشبيتج عيني؟ أكوحدزعلج؟ أنت هنا معزّزة مكرّمة في حمايتنا..." قلت لها:"وهل هناك أحد حتّى يزعلني؟" قالت لي: " أكوبعض العراقيات في الجهة الثانية.ونحن كرّمناك وأعطيناك أحسن غرفة. بأحسن جناح وستأتي الطالبات، العربيّات وستتعرفين إلى أخواتك، العراقيات...."
ثم أخذتني من يدي وذهبت بي إلى غرفة، في آخر الممّر، الموحش، العتم، من الجهة الثّانية. بها طالبتان عراقيتان، صغيرتان، جاءتا حديثا، من محافظة الأنبار، كما فهمت. حكتهما باللّهجة العراقيّة ولم أفهم كثيرا، سوى:" خطيّة طالبة تونسيّة. تركت أهلها وجاءت للدراسة. خطيّة، تونس كلّش بعيدة..."فهبّتا إليّ وصرختا بعفوية فضولية:" تونسيّة؟أوّل مرّة نرى في حياتنا بنيّة تونسيّة"وهلّلتا لمقدمي وأكرمتاني، ثمّ وضعت إحداهما، طنجرة"دولما"(الأكلة العراقيّة الأشهر)علىالطاولة وعزمتاني على العشاء.وكنت مخنوقة لا أريد أن آكل شيئا، زيادة على كون روائح الأكل والتوابل القويّة كانت تقلب معدتي.ولم استسغها وخجلت أن أشعرهن بذلك. هما الكريمتان،المحتفيتان بي.
تلك اللّيلة لم أنم. فقد استيقظت فيّ أسئلة، ما كانت تستطيع أن تخمد أكثر، في هذه الليلة البائسة، الحالكة والسكن

موحش، فارغ وبارد...وأنا وحدي، مرمية، في بلاد لا أعرف فيها أحدا.
هل أنا التّي اخترت فعلا، الدّراسة في بغداد؟ أم أنّ أبي هوالذي يواصل اختياراته لي؟ من الكُتّاب،إلى المدرسة الإبتدائية إلى معهد:"نهج الباشا للفتيات" إلى بغداد؟
بوّابة القسم الدّاخلي، الحديديّة، العملاقة، تسدّ أنفاسي. تذكّرني ببوّابة: مدرستي الإبتدائية:" مدرسة الحبيب ثامر" بباردو. تلكالبوّابة الخشبيّة، القاسية، الّتي تُغلق دوننا إذا ما تأخرنا قليلا.ويبتعد حارسها وسط السّاحة ولا يسمع دقاتنا. فنتأخر أكثر. ولن ننجوبعد ذلك، من عقاب المعلّم والمدير.
وكم كنت أحبّ المدرسة، الفرنسيّة، التّي كانت على بعد خطوتين، من بيتنا:مدرسة **"جون ماسي"** الإبتدائية؟ كنت كلّ يوم، في طريقي إلى مدرستي، الأبعد بكثير، أمرّ أمام بابها القصير، الأزرق السّماوي، الذي يشرح القلب.وأتمشّى جنب السّور القصير أيضا، المغطّى بشجرالبوقانفيليي، الملوّن. وكم كنت أتمنّى،أن أقفز إلى ساحتها وألعب فيهامع صاحباتي، بنات جيراننا:زينبوهندةوسعاد اللآتي أدخلهنّ أباؤهنّ، المدرسة الفرنسيّة. وكنّ يتوسّلنني، كلّ يوم أن أقنع أبي، لينقلني إلى مدرستهنّ. لنذهب كلّ يوم ونعود مع بعض... أبي لم يكن يقبل، مجرد التّفكير في ذلك... وكنّا حديثيّ عهد بالإستقلال (سنة 1960).وكان أبي يمقت الإستعمار الفرنسيّ. ويعجب من بقاء هذه المدارس الفرنسيّة حتّى بعدما خرجت فرنسا؟ بل هو لا يعتبرها موجودة أصلا. كما الكنائس الّتي تركتها فرنسا.
أنا كنت أريد فقط، أنأرتاح من مدرستي، ذات البوّابة، الشّاهقة.والسّاحةالقاحلةوالمعلّمالقاسي،الذي يضربنا

بالمسطرة،
الرصاصية،الطويلة،الثقيلة،علىأطرافأصابعنا،المتجمّدةمنالبرد...وكنت أسمع من صاحباتي: أنّ الضرب ممنوع في المدارس الفرنسيّة.
ماذا كان سيكون مستقبلي لودرست في مدرسة "جون ماسي" الفرنسيّة؟لكنت ربّما الآن في جامعة باريس؟
باريس الكلمة التّي ترعب أبي.... أبي الذي اشترط على وزارة التربية،يوم تحصلت على (السيزيام): الشّهادة الإبتدائية، أن أواصل الدّراسة الثانوية في "معهد نهج الباشا للفتيات" العريق.وإلاّ فإنّه لن يتركني أواصل تعليمي. ولا أعلم مدى جديّة هذا التّهديد؟ ولكنّهمإستجابوا لطلبه، رغم أنّنا كنّا نسكن ضاحية"باردو" أي من غير سكان المدينة العتيقة.
والسّر أنّ معهد "نهج الباشا للفتيات" هوامتداد لأوّل مدرسة عريقة للبنات فقط. كانت تسمّى " المدرسة الإسلاميّة للفتيات "ولذلك كان يحبّها أبي. مدرسة تعود إلى بداية القرن العشرين، أي منذ 1912. حيثإتّخذت مقرّها الرّسميّ بنهج الباشا.(أحد أنهج المدينة العتيقة) واستقرّت في فضاء، كان على ملك عائلة "باش خوجة". يتميّز بموقعه وبمعماره اللّذيْن يشدّان العائلات التونسيّة، المسلمة. ويبعثان فيها الطمأنينةَ على مصير بناتهنّ، لقربه من قصر القصبة، وانصهاره في النّسيج الإجتماعيّ للمدينة العتيقة، بنفس شارع الباشا الذي يمتدّ من حيْ باب بنات حتّى حيْ القصبة. وتتفرّع منه، أكثر شوارع وأنهج وأزّقة المدينة العتيقة، لحاضرة تونس العاصمة. حيث تقيم العائلات الأرستقراطية التونسيّة،المحافظة. أوما يسمّى "بالبلديّة ".وقد تأسّست "

مدرسة نهج الباشا " أيضا، في مقابل المدارس التبشيريّة، الفرنسيّة. التي كانت تنفر منها العائلات التونسيّة. خوفا على أبنائها من التّنصير. وقد فهمت أيضا، لماذا لم يدخلني أبي مدرسة "جون ماسي " الفرنسيّة، التّي في حيّنا، بل هي جنب بيتنا. وأدخلنيإبتدائية"الحبيب ثامر" (أحد زعماء الحركة الوطنيّة) في ضاحية "باردو"، البعيدة نسبيّا عن حيّنا "السّانتارين". إنّه لا يثق بالفرنسيّين أبدا.
كان أبي يشتغل بوزارة الشّباب والرياضة، حينها. في "باب بنات" على بضع خطوات، من معهد نهج الباشا. وكنت أخرج من المعهد وأقصد الوزارة ولا أخرج منها حتّى ينهي أبي عمله،لنعود معا إلى البيت.وكنت أذهب إليه أيضا لاستئذانه في الذّهاب إلى "مكتبة العطّارين ": المكتبة الوطنيّة:أكبروأقدممكتبة في العاصمة.وقدأدمنتها.إذ وجدت فيها ضالّتي وأحبَّتيوعائلتي الأخرى:هناك عرفت ابن خلدون والمتنبّي والمعرّي وأفلاطون وفيكتور هيغووموليار وفولتير وروسووكورناي وراسين وغيرهم.... ممن أصبحوا هم عالمي وعائلتي وملاذي....ولم يكن أبي،يسمح لي بغير ذلك. لأن المكتبة بسوق العطّارين، على مقربة من المعهد، بنفس المدينة العتيقة، وسط الأسواق العربي، بجانب جامع الزّيتونة المعمور. كلّ هذا،يعطي أبي اطمئنانا، بأنّني لن أحيد عن" الطريق الصحيح ". وأنّي في حماية كلّ هذه المقدّسات. خاصّة إذا أضفنا إليها مزار "سيدي محرز ابن خلف". الوليّ الصّالح الذي يتبرّك به أهل المدينة ويسمّى"سلطانالمدينة"أيضا.
أمّا أنا فلم يكن عليّ سلطان،سوى سلطان المعرفة والفضول والمغامرة واكتشاف المدينة: شارعا شارعاومحلاًّ محلاًّ

وزاوية زاوية..خاصّة تلك الممنوعة عنّي: المدينة العصريّة،التّي تقع على مشارف، المدينة العتيقة،مباشرة. يفصل بينهما قوس باب البحر العتيق، المنتصب بساحة بباب البحر نفسها، كسيف فاصل بين القديم والحديث. بين المدينة العربيّة الشرقيّةالقديمة. والمدينة العصريّة الحديثة،ذات الطّراز المعماري الغربي. التّي بناها الفرنسيون أيّام الإستعمار. بين الأسواقالتقليديّة وبين المغازات العصريّة...بين البيئة المحافظة والبيئة المودرن. بين الحياة البسيطة والحياة الصاخبة. بين السفساري (العباءة التقليديّة الحريرية التونسيّة البيضاء) وبين لباس الميني جيب (القصير): موضة تلك الأيّام. بين ما هومسموح لي بهوبين ما هوممنوع عنّي.

إلى هذه المدينة "الشيطانيّة" التّي بناها"الكفارالفرانسيس"كما كان يسمّيهم أبي. كنت أنفذ خلسة، يجرفني تيّار جامح أن أعرف الشيطان المختفي فيها. وكيف أنّ مجرد التّجول في شوارعها يضعف الإيمان؟ كما كان يسمعنيأبيدائما.وعبثا أحاول أن أقنعه أن فرنسا خرجت،والأمور تغيّرت. لكنّه كان يبتسم بشيء من اليقين المرير: "فرنسا خرجت وتركت كفرها".

ــ"الكفر الكبير هوالإستعمار يا أبي. وقد أخرجناها من وطننا قهرا: من هذه المدينة التّي هي أرضنا وبناياتها تُعدّ من غنائم الحرب. فلماذا نحرم أنفسنا منها؟ فلا تخشى عليّ الكفر يا أبي." هكذا كنت أطمئنه دائما.

كنت مؤمنه بالله واليوم الآخرولكنّني أحبّ " اليوم الحاضر" أكثر. وأتوق إلى أن أعيش بمدينتي كحمامة، غير موثوقة السّاق إلى خيط، يرجعها إلى قفصها،كلّما همّت بها

أجنحتها... ولذلك كنت لا أفوّت أيّ فرصة،بل أخترع الفرص، كلّما غاب أستاذ أوكلّما خرجنا باكرا أوفي ساعات الفراغ لأهرب مع صديقاتي إلى هذا العالم الآخر.... أوأراوغفي الإدلاء بجدول أوقاتي الحقيقي وربّما أضيف إليه ساعات أخرى ...
كنت أنفذ إلى هذه المدينة الممنوعة، كما ينفذ المغامرون إلى الغرفة السّابعة في الأساطير والخرافات القديمة... يدفعني فضول مجنون. يزيّن لي هذا الممنوع المرغوب.
كنت أتسلّل من نهج الباشا، إلى نهج سيدي بن عروس،إلى سوق العطارين المغطّى، أراوغ بين الأزّقةمن زنقة " الجنون" الى زنقة "بوسعديّة " (الشخصية الشعبية المشهورة للرّجل الزّنجي الذّي يخفي وجهه بقناعويلبس جلود الحيوانات ويرقص عازفا على آلة حديديّة.وأتذكر كيف نرقص معه،عندما كنّا صغارا،عندما يمرّ بحيّنا في الأعياد الإسلامية...)
أتجاوز المكتبة الوطنيّة وجامع الزيتونة، وسط أصوات الباعة، أمام دكاكين الصّناعات التقليدية،التّي تنتصب على الشمال واليمين،تحاصر المارّة ببضاعتها، المزركشة، المتنوّعة، تفيض على الأرصفة التّي أحتمي بها على ضيقها، ملتصقة بواجهاتها،خشية أن يعترضني أبي أوأحد من أفراد العائلة الذي يحقّ له أن يسألني عن وجهتي؟ويخبرأبي.ويمكن أن يردّني في الحال إلى البيت، إذا تبيّن له أنّني أحيد عن طريق المعهد.
ومن مفارقات هذه الطريق التّيأتسلّل منها من الأسواق العتيقة إلى باب البحر، أنّها دائما مزدحمة، بأفواجالسيّاح الأجانب القادمةفيالإتجاه المعاكس، من باب البحر إلى

المدينة العتيقة. منتشرين، متوغّلين في أنهجها، المتداخلة وأزّقتهاالضيّقة. ما بين نهج جامع الزيتونة وتفرعاته: موزعون بين نهج سيدي المرجاني ونهج الصبآّغين وجامع سيدي يوسف داي، نهج سيدي صابر،جامعحموده باشا، نهج القصبة،نهجالقصر،دار الجنرال حسين، نهج الآغا،نهجالديوان،دار الجلد....

والدليل يشرحلهم خلفيّة خارطة الأسماء وأصلهاالدّيني والتّي تكشف الوجه الإسلامي للمدينة، سواء لأنها تمثل عبارات دينيّة أولأنّها تشير إلى شخصيّات دينية:مثل نهج جامع الهواء وزنقة مسجد القبّةونهج الزّاوية البكريّة وزنقة الجامع وزنقة الصّلاة ونهج الحقيقة ونهج الشّاهد ونهج الشهداء ونهج الصّائم ونهج الوليّ ونهج الحكيم ونهج الإمام وزنقة الفقيه ونهج القارئ.... ويتوقفون طويلا أمام نهج الشادليّهوزنقة التيجانيّة اللّذان يحملان إسميْ أشهر طريقتين صوفيتين. وكذلك زنقة سيدي محرز ونهج سيدي بلحسنالشّادلي.تلتهمهم نداءات الباعة في أسواقها، يعرضون بضاعتهم ومنتوجاتهم التقليديّة: سواء في سوق الطويلة أوسوق العطارين، سوق البركة (سوق الذهب)،سوق القرانه،سوق البلاط، سوق الوزر،مقبلينبشغف،علىالأطباقالنحاسيّة والأواني الفخاريّة والملابس البربريّة المطرّزة والمشغولات الفضيّة والسجاجيد المصنوعة يدويّا والزرابي القيروانية... والشراشف المطرّزة طريزة نابل والعطور والزيوت وزجاجات ماء الزهر والورد والنّسري....

يتأمّلون بيوت المدينة العتيقة، ذات الأسطح الموصولة ببعضها البعض والزوايا ذات القباب والمآذن الممتدّة نحو

السماءوالتي تعطي المدينة وضواحيها طابعا إسلاميا واضحا.
يطيلون الوقوف أمام البوّابات العاليّة، ذات الواجهات الفخمة، أو البسيطة، ببواباتها الخشبيّة المزركشة، بالمسامير الحديديةوالأسوار الشاهقة، المنغلقة على عوالمها الداخليّة...
بينما أنا أسعى سعيا إلى بازارات المدينة الحديثة وعماراتها ذات الطوابق الشاهقة...كلانا، يبحث عن الدّهشة والمغامرة والغريب الذّي لا يشبهه. ويهفو إلى عالم آخر لا يعرفه. ولكن حاملا في ذات الوقت ملامح تميّزه.
أخرج من الأسواق العتيقة المعتّمة الضيّقة، تشيّعني أصوات المآذن، لتستقبلنينواقيس الكنائس ولا أشعر إلاّ برحمة التنوّع...
أصل "باب البحر" وهوأحد أبواب المدينة العتيقة الذي بقي من السّور الشّرقي القديم، الذي بناه الأغالبه سنة 1860.والذّي كان يحيط بمدينة تونس.والذي تهدّم بمرور الزّمن. مثلما تهدّمت بقية الأسوار، التّي لم تعد لها قيمة ولا دور تلعبه في حراسة المدينة.ولكن بقيت بعض الأبواب ومنها باب البحر، الذي بني على شكل قوس والذّي مازال قائما،شامخا،شاهدا على وصل المدينة العتيقة بالمدينة الحديثة.
قوس ظلّ قائما قبالة بحيرة تونس. رغم أنّ بعض المعتقدات تروي بأنّ مياه البحر كانت تصل إليه وهوما لم يحدث قطّ.حسب المؤرخين والجغرافييّن.
ولكنّه يقوم بتسهيلالحركة،بين المدينة والمرفأ في البحيرة. يسمّيه البعض "باب فرانسا "، لأنّ تلك هي تسميّته

الأولى،خلالالإستعمار الفرنسي.ولأنّه يفتح على شارع فرنسا، الذي مازال قائما إلى اليوم، بنفس الإسم. رغم تهديم كلّ البنايات المحيطة به منذ 1931.ليبقى وحده في صدارة المدينة العصرية، في ساحة باب البحر.

أُحبّ هذا الباب وأقف أتأمّلهُ، عندما أصل إليه. وأحيانا أُسند ظهري إلى حجارته، الملساء، كأنّني ألمس التّاريخ.وأفكر كيف فُكّك وأعيد تركيبه،في مدخل شارع البحريّة؟بطلب منالقنصل الفرنسي "ليون روشي" الذي كان قد أخذ الإذن من بايتونس، ببناء مقر القنصليّة، خارج أسوار المدينة، على شارع البحريّةسنة1857. كما روى لنا أستاذ التاريخ"مسيوبليّش" الذي حبّبنا في معالم المدينة وجعلنا جزء منها، عندما نلتحمبتاريخها، عبر الخرائط والصور والقصص والحكايات المشوّقة،عن قديم وحديث الزّمن. وخاصّة هذا الباب الذي شهد العديد من التحويرات على امتداد تاريخه الطويل وقد وزّع علينا أستاذ التاريخ حينها، نسخ رسم أحتفظُ به إلى الآن،يعود إلى القرن السادس عشر ميلادي للرّسام "فارماين" الذي كان يرافق "شارل كوينت" ويبدو باب البحر في شكل قوس مرتفع العلوّ، يعلوه متراس ذي شرفة ويتقدّمه برجان مربعان من كلّ جهة.

وأتنفّس الصّعداء. إذ أضع رجلي، عل ساحة باب البحر، الفسيحة، ليحضنني الفضاء الرّحب والضيّاء والشّمس والألقوالشّوارع الفسيحة. فيقابلني شارع " فرنسا " بمغازاته الكبيرة على جانبيه، تجلبني الفيترينات البلوريّة وهي تعرض أجمل الثياب والفساتين والأحذية والحقائب اليدويّة

لأحدث ألوان الموضة بكلّ أناقة وتفنّن...ومختلف أنواع الأقمشة المستوردة.
ولا بدّ أن أعرّج على كشك الجرائد، أسأل عن المجلاّت الأدبيّة، العربيّة والأجنبيّة...المحاذي لكتدرائية"القديس فنسنت دي باو" المقابلة لسفارة فرنسا.والتّي فتحت للجمهور أوائل القرن العشرين، بعدما كانت حكرا على الفرنسيين.
أقف طويلا أمامها، أتأمّل معمارها الهندسي،الذييمتاز بدمج الأساليب المتنوّعة في بنائها: البناء المغربيّ والنّمط القوطيّ إضافة إلى أساليب البناء النيوبيزنطيّة، لتصبح من المعالم الأثريّة والفنّيّة، المتميّزة، في العاصمة التّونسيّة. أدخلها أحيانا، مأخوذة برهبة وخشوع عتمتها وأجوائها الداخليّة وأشهد طقوس،صلوات المسيحيّين، في أعيادهم وصباحات الآحاد.
وتغريني المطاعم والمقاهي، المتناثرة، وراء الأشجار المصطّفة، على جانبي شارع " الحبيب بورقيبة ": امتداد شارع فرنسا وقلب العاصمة ورمز تونس الحديثة.
ثمّ اكتشفت دور السينما العديدة، في العاصمة. وصرت أخطّط مع صاحباتي لفلم آخر الأسبوع سرّا طبعا. هناك عرفت قوما آخرين:عرفت"أنيجيراردو" و"ألان دولن" و"شايلا" و"بريجيت باردو"...: نجوم السبعينيات. وشدّني وجه "أني جيراردو" لما فيه من فيض أمومة آسرة وصرت أحضر كلّ أفلامها. حتّى جاء فلمها الشّهير، الذي أثار زوبعة، في عقولنا حينها وفي عالم السينما والواقع المسكوت عنه. "الموت حبّا": قصّة التلميذ الذي وقع في حبّ أستاذته: أستاذة الفلسفة. التّي بادلته نفس الحبّ وعاشا حبّا مجنونا عاصفا بعثر كلّ أقنعة المجتمع الزائفة.

بعد الخروج من السينما، أحبّ أن أجلس مع صاحباتي، في "مقهى باريس " في نفس شارع باريس، المتفرع عن شارع " الحبيب بورقيبة " وأحسّ أنّنيأترشّف القهوة،بمذاق طعم الحياة في باريس ونكهة باريس.
في "مقهى باريس"، أشعرأنّني صرت على قاب قوسين أوأدنىمن"باريس ".وأنّه لم يعد يفصلني عنها سوى بضع سنوات،منالدّراسة.وأنتقل للعيش فيها بحجةمواصلة تعليمي....
كنت أحبّ هذه المدينة حبّا يفوق حبّي لكل بقية مدن العالم مجتمعة. وأحلم بالعيش فيها أبدا. وكان أن أنهيت دراستي بتفوق،سعيت إليه سعيا. لكي أحظى بمنحة الدّراسة في الخارج. وأردت أن أذهب إلى باريس، لمواصلة دراستي. ارتعب أبي وقال لي:" أنا بعد الإستقلال مباشرة، عرض عليّ الفرنسيّون السّفر معهم للعمل هناك، براتب مغر وسكن قارّ وحوافز... لكنّني رفضت، خوفا عليكم من بلاد الكفار، خفت أن تبتعدوا عن دينكموأن أخسركم."
ابتلعت غصّتي حينها وغيّرت للشّرق وجهتي. أمام استحالة موافقته. هل كان القدر مستعجلا جدّا عندما رمى بي في بغداد بينما كنت أريد باريس؟
ما أصعب أن تعيش في بلد وتحلم ببلد آخر....وهذه ليست المرّة الأولى، التّي يغرّبني فيها قدري عن حلمي....
فجأة. راودتني فكرة مجنونة. في هذه اللّيلة (الكحلة)، المقيّدة لحريّتي: ماذا لوهربت من بغداد؟ وانتقلت للدّراسة في باريس، دون أن يعلم أبي.وأواصل سفري وتمويهي؟ كما كنت أفعل وأتسلّل من " معهد نهج الباشا " إلى المدينة الحديثة "مدينة الفرانسيس"تماما. خلسة منه....

كنت أقلّب الفكرة...حتّى دقّت المشرفة اللّيلية، الباب. تتفقّد الغرف...

الفصل السادس

بين الفلسفة والأدب

في صباح اليوم التالي، جاءنا باكرا، الأستاذ المرافق الذي أودعنا أقسامناالداخليّة،ليبدأ معنا إجراءات التّسجيل بالكليّة. أخذني مع بقية الشباب، الذين جاؤوا معي إلى وزارة التّعليم العالي.
هناك خيّرونا فيما نحبّ أن ندرس بالجامعة؟ وإلى أيّ قسم نريد أن نتوجّه؟ بكلّ حرّية.
كنت أنوي أن أختار قسم الأدب العربي. ولكن عندما أعطانا مدير التوجيه فرصة لنفكر، انزويت بنفسي،برهة، لأحسم حيرتي، بين دراسة الفلسفةودراسة الأدب العربي: المادّتان اللّتان كنت أحبّهما وأقبل عليهما بشغف كبير في دراستي الثانويّة. المستحوذتان على كلّ اهتماماتي: الدراسيّة

والثقافية.وكنت من بين الأوائل فيهما دائما.وقد نجحت بامتيازفي امتحان الباكالوريا، بسبب تفوّقي فيهما.
قلت في نفسي:الفلسفة،مادّة أصعب من الأدب العربي. وعليّ أن أواجهها بتحدّ أكبر.أمّا الأدب العربي فذاك كان شغفي من الصغر،من كثرة ما طالعت من كتب وما قرأت من دواوين شعريّة وروايات وقصص....
كنت أقبل بهمّتي على قراءة، أمّهات الكتب التراثيّة والأدبيّة والنقديّة، الحديثة والقديمة. ببادرة شخصيّة،دون أن يطالبني بها أحد. وأكثر بكثير ممّا كان مدرجا،في برامجنا الرسميّة في المعهد. التّي لم تكن تقنعني كثيرا.ولم تكن تروي شغفي ونهمي المعرفي واهتماماتيوطموحاتي... كنت أُعدّ نفسي بنفسي،لإقتحام،ميدانالكتابةالأدبيّة،وليس لمجرد العدد أوالإرتقاءأوالشهادة. فكنت في كلّ سنة دراسيّة،أُلزمنفسي ببرنامج خاصّ،موازللبرنامج المقرّر علينا ولكن أثرى وأعمق. فيمحاور وأعلام الأدب العربي...أداوم فيه في المكتبةالوطنيّةأوالمكتبةالخلدونية،في سوق العطارين طوال السّنة.وكنت أختلط بطلاب كليّة الآداب،في المكتبة الوطنيّة. وأحضر معهم حلقات النقاش،في جلساتهم الثقافيّة في المقاهي أو في مدارج الجامعة.ولا أحبّ أن أبدوأقل معرفة منهم. فكنت أجهد نفسي، للإلتحاق بمستوى معرفتهم الأدبيّة.وكثيرا ما أدخل معهم،قاعات الدّرس وأستمع إلى محاضرات أساتذتهم في " كليّة الآداب والعلوم الإنسانية"بشارع" 9أفريل " (نسبة إلى شهداء الحركة الوطنيّة) القريبة من معهدنا،بنهج الباشا ومن المكتبة الوطنية،بنفس المدينة العتيقة،تقريبا.

تساءلت: ما يمكن أن تضيف لي الدّراسة في الجامعة؟ ما دمت أستطيع أن أكوّن نفسي بنفسي،في الأدب العربي. ككّل الأدباء العصاميّين. إضافة إلى امتلاكي اللّغة العربيّة منذ "الكتّاب".

تذكّرت، معلمّ العربيّة،السيّد "عادل الهلالي" للسّنة الخامسة إبتدائي،الذي تكهّن لي بمستقبل أدبيّ باهر. وهويُرجع لنا أوراق إمتحان الإنشاء والتعبير الكتابي،مشيدا بتفوّقي الدائم وتميّزي فيهما.

ولا يمكن أن أنسى،يوم ذهبت "للمكتبة الخلدونية"وقد ارتقيت إلى صفّ أوّل ثانوي. بعد اجتيازي للمرحلة الإبتدائية ودخوليالمعهد. ممّا شجّعني على طلب " مقدمة ابن خلدون ". لكن أمين المكتبة لم يقتنع بسنّي وشكلي. نظر إليّ باستغراب وتردّد.وتلكّأ في البحث عنها. ثمّ سألني: من الذي طلبهامنّي؟وهل هي مقرّرة علينا؟وبأيّ سنة أكون؟وبأيّ معهد؟ قبل أن يصعد السّلم إلى أعلى رفوف المكتبة... لكنّي كنت مصّرة.ولم أتزحزح عن مكاني ولم أخرج، كما أراد أن يحرجني أو أن يخجلني، عوض أن يشجّعني.ولم أتنازل عن طلبي،بل عدت إليه مرّات ومرّاتلمراجعة " المقدمة "التّي لم تكن سهلة. بل تحتاج إلى جهد كبير للفهم... أنا التّي نشأت في بيت، ليس فيه كتاب واحد. إلاّ نسخة من القرآن الكريم، هي موجودة للبركة.ولا أحد يستطيع قراءتها: أمّي كانت لا تحسن القراءةولا الكتابة، كجلّ بنات جيلها في ذلك الوقت، من ستينيات القرن الماضي. وأبي كان لا يعرف إلاّ الفرنسيّة، لأنّه عاشر الفرانسيس، في صباه وقد تطوّعت مدام"جورجاتبلانشو" أن تعلّمه قراءة وكتابة لغتهم، ليسهل التعامل معه.وقد سلّموهعدّة مفاتيح

ومسؤوليات بالقريةالتّي دخلها بنّاء وتقني كهرباء. ثمّ أصبح مشرفا على شؤون المطعم ثمّ محاسبا لثقتهم به. " قرية بئر الباي "بحمّام الأنف.التّي كانت مضافة لهم،لإستقبال وفود شبابهم....والتّي أصبحت الآن " المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي" التابع لجامعة تونس..

وكان يفهم الإنجليزية قليلا وكذلك الألمانية. أخذهما عن جنود الحرب العالميّة الثانيّة.وكذلك بعض جمل إيطالية بحكم احتكاكنا بالطليان، الذين كانوا يجاورون مزارع جدّي الفلاح. وأذكر منهم " جانّي " وزوجته روزاالتي علّمت أمّي وخالاتي حياكة الصّوف بالإبر. وعلّمنها طريزة نابل. أبي لم يكن يحسن كتابة العربيّة جيّدا. وربّما لذلك السّبب، حرص، شديد الحرص،على إدخالنا إلى الكتّاب.وقد بدأ بي لأنّي البدريّة،كما كانت أمّي تسمّينيوتفخر بي لمن لا يعرفني: " ابنتي البدريّة ".ذهبت إلى " الكتّاب" بمفردي، قبل أن يلتحق بي أخي الفهري وبقيّة الذّكور والإناث أيضا. كلّنا مررنا بالكتّاب.

قبل وفاتها أعطت جدّتي " امّي شلبية "رحمها الله قلّة السّماح لأبي إن أدخلني المدرسة.وهنا ارتعبت أمّي وباقي نساء العائلة خوفا من أبي الذي كان يحبّ أمّه إلى درجة التقديس ولا يخلف لها وعدا أبدا. ارتبكن واحترن وهنّ يعرفن مدى حبّ "أمّي شلبيّة "لي، وفرحها بي،كبكرة العائلة الكبيرة كلّها. ولكنّها كانت تخاف عليّ،خوفا جعلها لا تأمن عليّ من الشارع والاختلاط ... كانت تقول:"أن أأمن مكان للحفاظ على الدرّة، هوبقاؤها في الصّدَفة."ولم تصدّق أمّي يوم ذهب أبي وسجّلني، في مدرسة الحبيب ثامر،

بباردو.ولا أنسى إشراقة الدّمع في عينيها، عندما كانت تنتظرني أوّل يوم على باب المدرسة.

الفصل السابع

"... ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون"

كنت مكرهة جدّا للتردّد يوميّا على كتّاب الحيّ الذي أودعني أبي به. عند "سيديالمدّب الدزيري" الّذي كانت

عصاه الغليظة لا ترحمولا تتسامح مع من يتهاون في حفظ القرآن أويخطئ بقواعد اللغة العربيّة المقدّسة. تلك العصا التيترتفع وتنزلبيد سيدي المدّب في وجوهنا معايقاع صوته الجهوريّ الذي يصل حتّى الشارع ونحن نعيد وراءه ونكرّر في شبه تخميرة غنائية إيقاعية:" ألف لاشئ عليه ... الباء نقطة من أسفل ... التاء اثنين من فوق والثاء ثلاثة من فوق ...."

كان الكتّاب ضيّقا والحصير موجعا والعصا الطويلة عقدتنا التّي تنهال علينا بين الفينة والفينة،بسببوبدون سبب وبلا شفقة ولا رحمة...: "كرّروا...يلاّكرّرواوأعلاش راكم ما تكرّروا؟....

والفلقة المعلّقة بالحائط المتكلّس المشقّق، ترقبنا وتتوعّدنا. تحتها تغفو أكوام ألواح، صغيرة،مستطيلة،مرصوفة فوق بعضها، مخطوطة بحروف صمغ أسود غليظة أوباهتة....متشقّقة من بعض أواسطها أومتآكلة من زواياها وأطرافها. بعضها من شجر الزيتون وبعضها من كتف الإبل ...تمسكها بالنّهار أيديناالصّغيرة، المرتجفة لتبعث فيها الحياة... ينزلق قلم القصب المدبّب على سطحها الأملس، يفتح أبواب الغيب والسّماوات والأرض: " نون والقلم وما يسطرون "...نردّدمع (سيدي المدّب) في شبهتخميرة:" نْعَم أسيدي.نونوالقلم وما يسطرون "... نكرّر أساطير الأوّلين مأخوذين بسحر إيقاعها. وتجري ألسنتنا بالوعد والوعيد"...ألم تر كيف فعل ربّك بعاد، إرم ذات العماد التّي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصّخر بالوادي

وفرعون ذي الأوتاد الذين أكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربك صوت عذاب.إنّ ربك لبالمرصاد "....
ثم يتركنا " سيدي المدّب " لوعدنا ووعيدناويعود إلى زاويته يعالج ويعدّ بعض الأقلام لنا، يقتطعها من خشب أشجار القصب المبعثرة جانبه. يأخذ قلم القصب الذي لا يتجاوز طوله شبرا وعرضه إصبعا، يصقله بموس حادّ بيده،يبريه بدقّة ومهارة،يدبّبطرفه،يشقّه من مقدّمته ليصبح صالحا للكتابةثمّ يغمسه في دواة الحبر، الذّي يتّم صنعه واعدادهمن الصّمغ باستعمال صوف الخرفان بعد حرقه و رحيه،حتّىيصبح مثل الطحين، ليضاف له الماء ويستعمل في الكتابة بالريشة، الرقيقة، للغة العربية، و السميكة للأرقام.
ولسانه يملي علينا قصار السّور ونحن نردّد وراءه...
يكتب الحروزوالتعويذات ويتأنّق في كتابة الآيات والسّور... يخلط الزيوت والعقاقير، في الزّجاجات والقراطيس لنساء الحيّ.ويحدث أن يزرنه في الكتّاب أيضا. فيسلّمهن حروزالسينوج المخلوط بالملحوصحون الخزف المكتوبة بماء الزعفران...فيدسسن في كفّه بعض القطع النقدية.... تنبسط أسارير "سيدي المدّب" وينشرح وجهه.
بينما يخرجأحدنا لمحو لوحته، بعدما حفظها عن ظهر قلب وقد أجاز له سيدي المدّب محوها لينتقل الى آية أو سورة أخرى... نخرج الى جانب الكتّاب لنطلي الألواح بحفنة الطّين، لكي يُزال الحبر بسهولة، ثمّ نشطفها بماء الابريق النحاسيّ الذي تُوفّره احدى الجارات، كلّ يوم، ربحا للثّواب.لتستعمل لاحقاً للكتابة أكثر من مرّة.

ثم فجأة يتذكّرنا "سيدي المدّب" فيقوم لنا بعصاه يلوّح بها بعصبيّة يمنة ويسرةوكيفما اتّفق في الهواء، فوق اجسامنا وعلى ايدينا الصغيرة المرتجفة ..صائحا:
--" كرّروا يلاّ كررّوا... وآشرآكم ما تكرّروا؟؟؟..."يلاّ كرّروا..."
وكان تكرارنا القرآن يستعيد نشاطه فترة، ثمّ ما يلبث أن يخفت،شيئا فشيئا إلى أن نخمد ونسكت تماما.ويحدث أن ننام في الظهيرات القاسيّة، عندما يقوم "سيّدي المدّب " إلى صلاة الظهر... فيعودلنا مرّة أخرى بعصاه في جولة مرعبة اخرى. المهمّ أنّها تُرجع الحيويّة للمربّع الضيّق، الذي نتقاسمه نحن وايّاهورفوف قوارير عقاقيره وألواحنا....ولا أذكر منه غير بهرة فتحة الباب، الموارب وعتبة بها أحذيتنا الصّغيرةفوق بعضها البعض...
كنّا لا نصدّق متى يحين آذان العصر، ليسرّحنا " سيدي المدّب "ويخرج للصّلاة بمسجد الحيّ.نقوم،فنتزاحم على تلك العتبة الصّغيرة ويدفع بعضنا البعض، للبحث عن أحذيتنا لنطلق أرجلنا، الصّغيرة، للرّيح... ونضيع في أنهجحيّنا في "السنتارين" في هستيريا من الصراخ والضحك:"نْعَمْ أسيدي سرّحنا، اللهيمدّ عظامك في الجنّه..."
أما الشيخ مسعود فإنّه يتنفس الصّعداء أيضاويتحرّر من عناء الصبيّة وصخبهم... فيقوم لإبريق الماء،يملؤهوينتبذ به حائط الكتّاب الخلفي. للوضوءليخفّوينشط وينشرح صدره للصّلاة ثم العودة للكتّابلإستقبال مرضاه....
ما بين العصر والمغرب، تكون زيارات النّسوة، المتعبات، من عصيان أبنائهن، أوتخلّفهم المدرسي ورسوبهم.وخيانة رجالهنّ أوحسد السّلفات والجارات أوفكّ عقدة المعرقلة

والعانس وفكّ المربوط والمجنون والمعتوه وتقريب القلوب وقليلات الحظ،والمقهورات من غبن الزمان ولاعدالة الأقدار، ينشدن حجابا، رُقية أوتعويذة تردّ عنهن شرور الحسد والعينوالبغضاء وغدر الرّجال الذين لا يؤتمن جانبهم تماما مثل الزمان....
لم نكننحبّ من الكُتّاب سوى يوم " الختم " الذييتحوّل إلى عرس صغير، نلبس فيه ثيابنا الجديدة وننتظر الهدايا البسيطة الموعودين بها.نمسك ألواحنا المزخرفة بالسّمق والمحاريب كحُصروززرابي بيتنا العتيق وسجّادات الصلاة.المزيّنة بمخ البيضة العربي الذي تجلبها " أمّي بيّة" معها من الضيعة.والسمق الأسود ممزوجابالأصفر الفاقعلرسموتخطيطالآيات القرآنية المزخرفة،كأنهاالفرح الملوّن بأيدينا الصغيرة ونحن ندور بها على الجيران يتبعنا كلّ أصحابنا من سكّان الحيّمهلّلين فرحين معنا. لنيل الحلوى والكعكوما تجود بهنساءالبيوتالكريمة... تشجيعا على حفظ القران والعلم والمعرفةوالكلّ فرح بصدورنا التي أصبحت عامرة بالقرآن: الذي حفظ حزبا والذي حفظ حزبينوالذي حفظ الرّبع...
ويوم وصلت إلى جزء: " قل أوحي إليّ..."ذبح أبي السردوك(الدّيك) وعملت أمّي عشاء سيدي المدّب:"إن شاء الله عظيماتوفي الجنّة اللّي قرّى ورّى "
تلك اللّيلة، بعد صلاة العشاء، طوى الشيخ سجادته أمامه،ردّد بعض الأدعية، تخفّف من بعض ملابسه واستوى في جلسته. مدّ يده إلى جرّة ماء مشقّقة الفم، فوقها مشرب من فخّار، رطب الحافة، لا تقترب منه الشّفاه إلا بالبسملة والتمتمة... جنبها إناء نحاسيّ قديم. على يمينه رفّ، به

صفّ زجاجات، بها دهون وعطور، تحتها فتائل زرقاء... قراطيس بخور نصف مفتوحة...وأوراق أعشاب متنوعة... يقابله الباب الخشبيّ، العتيق، مواربا، تتسرّب منه بهرة ضوء قمر خافتة....

امتدت يده إلى "صينية" الطّعام وكلّ نهار وقسمه من طبخنسوة الحيّ. تمنّى لوأن إحداهن تشاركه طعامه...وليله وسهره وقيامه... ولكن من يعبأ بأحلامه؟ الكلّ يأتي متعبا ينشد فرجا لآلامه...أوربّما يتصوّرن أن "سيديالمدّب"، العزّام، لا يحلم،لايتمنّى،لايعشق،ولا يشتهي....وهناك من يتحدّث عن معاشرته لجنيّة متلبّسة به، تلبّي له كلّ رغباته وشهواته...وهناك من يقول إنه متزوّج من حوريّة من حوريات الجان، لا تظهر أبدا في النهار... وهناك من أقسم أنه رأى طيفها ليلا،وهويدخل على حين غفلة على الشّيخ العزّام.

كلّ هذا يحدث في حيّ "السّنتارين" Saint Henri”، كما يدلّ عليه اسمه، بضاحية باردو: الحيّ الذي انتقلنا إليه من "دار شعبان الفهري". حيّ القدّيسهنري "الذي خلّفته لنا فرنسا ورحلت.

هل فسح "القدّيس هنري"المجال للشّيخ مسعود: مؤدّب الحيّ ليعلّمنا القرآن ولغتناالعربيّة، التي حاول المستعمر الفرنسي محوها؟هل رحل القديس مع فرنسا حقّا؟ أم أنّها خرجت وتركته مع لغته وديانته وثقافته؟

الحقيقة أنّه لم يكن أحد من أغلبيّة السّكان يعرف أصل التسميّة. الكلّ تعوّد على نطقها معرّبة"السنتارين".

وأنا نفسي لم أنتبه لها إلاّ عندما كبرت قليلا ودخلت المدرسةوصرت أفكّ الحرف الفرنسي (السّنة الثالثة ابتدائي

تحديدا) عدت يوما إلى البيت فوقفت أمام اللّوحة، النحاسيّة،العتيقة،ذات الأحرف الصّغيرة، الأنيقة، المحفورة بها: بالرقم 11 في نهج أشجار الخوخ. بباب عمارتنا. نقشها الفرنسيون كعنوان قبل أن يغادروا.
والحيّ كلّه كان سكنا للفرانسيسوالطلاين والمّالطيّة... قرأت:" SaintHenri"
ففهمت أنّها تعني " القدّيس هنري ". فصعدت ركضا الطوابق الثلاثة حتّى دخلت شقتنا. فوجدت "أمّي بيّة"جالسة علىكنبة غرفة الجلوس، المخملية، العنابية اللون، في ركنها المعتاد، بيدها مسبحة العنبر وهي تتمتم، بالحمد والإستغفار....قلت لها فرحة باكتشافي:" أمّي بيّة،أمّيبيّة.تعرف آش معناها " السنتارين؟ " قالت لي بكلّ ثقة دون ان تترك المسبحة من بين اصابعها:"إيه نعرف.هوالحيّاللّي نسكن فيه.شبيك يا بنيتي؟ جاك جديد؟ " قلت لها:لا، لا أقصد معنى "السانتارين". قالت: يسمّعني الخير. أنا ما نعرف كان الصّلاة ع النبي."قلت لها "السان هنري " يعني إسم القدّيس هنري. قالت لي: آش معناه قدّيس؟ قلت لها يعني مثل وليّ صالح لكن متاع الفرانسيس. قالت لي: هم الفرانسيسعندهم أولياء صالحين؟ قلت نعم. يعني؟ فانتفضت المسكينة وضربت على فخذها. حتّى وقعت مسبحتها. قالت لي: يعني ببّاص؟ (وببّاص في تونس تحريف لكلمة البابا في الكنيسة وكانت محمّله بشحنة كره كبيرة للكفر والشرك بالله.ولملّةالآخرمن النصارى المستعمرين). فُجعت المسكينة وصارت تلطم:" وعد الله علينا، أحنا أولاد سيدي الفهري وسيدي محرز، ولّينا نسكن في آخرعمرنا، في حيّ الببّاصة، النصارى، الكفار؟كيفاش

يعمل بوك هالعمله فينا؟ توه يجي ونتفاهم معاه...." قلت لها ولكنّه أرقى حيّ تركه الفرنسيون لنا بضاحية باردو:منتجع الملوك والبايات سابقا.
ولم تقتنع. قالت:" كان الأولى أن نسكن بجوار "سيدي محرزأوسيدي بن عيسى وإلا سيدي بالحسن الشادليوننال بركتهم. صُلاّح البلاد."ومن حينها وهي تستغفر ربّها، كونها تسكن في عمارة ببّاص. تزور الأولياء الصالحين وتعتذر لهم. ولم تغفر لأبي ذلك أبدا.
كان بيتنا خاليا من أيّ كتاب ومن أي مكتبة ولكن كان عامرا بصدى ترديد وتكرار سور القرآن كل ليلةفي أرجائه... يجبرنا عليها أبي أوّل الّليل، بعدما نتعشى وقبل أن نأوي إلى فراشنا. ولم يكن حينها موجود لا تلفزاتولا شاشات ولا هواتف ولا انترنات... لم يكن هناك إلّا تكرار ما حفظناه بالنهار في الكتّاب ومحوناه من الألواح،وترديدهكيلاننساه.كان أبي يقول: القرآن إذا نسيته يوما نساك شهرا وإذا نسيته شهرا نساك سنة...وكان أبي يخاف من ذلك وأن يحاسب عليه يوم القيامة.كان يخاف من أن ينساه الله من رحمته ولم يكن لنا سواه.

الحقيقة أنّه بعد قضاء يوم كامل،في الكتّاب، لم تكن لنا رغبة في الرّجوع إلى ما حفظناه. لكن أبي كان يجبرنا ويكرهنا على ذلك وكنّا نذعن مكرهين.ونفرحلوخرج أبي بعد العشاء،فنتحرّر من الزاماتههذه.ونركض لحضن " أمّي بيّة " التّي تنتظرنا في السرير بحكاياتها التي لا تنتهي،عن فاطمة ومحمد ابن السلطان و" عجوزة الستوت،الله لا ترحمها نهار اللي تموت " لأنها شرّيرة وتصنع المكائد

دائما وكنّا نضحك لحيَلها ونحزن لإنتصارات مكائدها...وحكايات عمّك الفيكران (أي الفكرون: السلحفاة) اللّي يدور بالأسوار ويحيّر في بنات الأكبار (الأكابر)....

أمّا تكرار القرآن قبل النّوم، فقد تحوّل إلى كابوس. لأن أبي يحدث له أن يخرج. لكنّه أوّل ما يعود، يسأل أمّي.هل كرّر الأولاد،أم أنّهم ناموا دون تكرار؟ ...ودون أن ينتظر جوابها وهي لا تعرف كيف تكذب. يواصل:" هل تعرفين أنّ الدار التي لا يتلى فيها القرآن لا تدخلها الملائكةولا تنزل بها البركة؟ وعندما يتأكّد أنّنا لم نكرّر وأنّنا خامدين في أسّرتنا خوفا، نتصنّع النوم. يحدث أن يستنهضناويجمعنا بالعصا عقابا لنا لأننا خالفنا وهتكنا عادات البيت المقدسة.... كان تكرار القرآن أمرا مقدّسا بالنّسبة لأبي.وكان ذلك عقدتنا اللّيلية وأقسى ما يمكن أن تتحمّله طفولتنا التّي تريد أن تنعم بالسكينة والدفء والإطمئنانوالحنان وخاصّة الحكايات قبل النوم.

أمّا أمّي، فكانت تكتفي قبل النوم بأن تروي لنا بعض الحكايات على تعب وبين النوم واليقضة،لننام.وكثيرا ما تعيد علينا حكايات: "أمّي بيّة ". فننتفطن لذلك ههه ونشفقعليها وندرك بإحساسنا الفطري،كم هي منهكة بالنهار... لكنّها كانت حريصة على أن تذكّرنا وتردّد معنا الفاتحة والمعوذتينوالصمديّة ثلاث مرّات كلّ ليلة...وليلة الجمعة كانت تحفّظنا دعاء القبر وتعيده علينا:

" اللّيلة ليلة جمعة.يا مُجمّع يا عيد كلّ أنام.
أنسنيليلة قبري. ليلة وحشي والظلام."

وكانت تقول لنا:من قرأ هذه الآيات وهذا الدّعاء لن يصيبه شيء حتّى الصّباح ويأمن عذاب القبر.لكن فرائصنا الطريّة كانت ترتعد تحت الأغطية، من عذاب القبر والوحشةوالظّلام. ولا نرى الاّ الكوابيس ...

حسمت أمري لصالح دراسة الفلسفة. ربّما للوصول إلى " الحقيقة " وطمعا في أجوبةعن أسئلة البدء والموت والقبر والوجودوالماوراءوحقيقة الكون...التّي كانت أمّي تنهاني عنها ويضربني سيدي المدّب على أصابعي الصغيرة ويتوعدنيإذاعدتإليها.ويقفز عليها المعلّم،لأنّها ليست ضمن البرنامج المقرّرعلينا.ويزعم الأستاذ إجابات لا تزيد إلا تعميقحيرتي...وينفر منها البعض باعتبارها أسئلة مكروهة،ممنوعة.أومحرّمة أوهي في أحسن الأحوال ضرب من العبث.

اخترت الفلسفة أيضا للمصالحة بين لغة الفلسفة ولغة الأدب: بين لغة العقل والتحليل المنطقي ولغة الوجدان والعاطفة الإنسانية.

وربّما لمقاربة " الحقيقة " بلغة السّرد الأدبي من رواية ومسرح وقصّ وشعر...تخفيفا من صرامة اللّغة المنطقية،العقلانيّة،الجافّة،التّي لا تسمح حدودها من ملامسة نبضات وأشواق وكشوفات الرّوح، التّي تتجاوز العقل.كما يقول نيتشه الذي قدّم فلسفته بصورة سرد روائي في عملهالشهير "هكذا تحدّث زرادشت"وكما فعل غيره من الفلاسفة،الذين صاغوا فلسفتهم وأفكارهم،بواسطة الرواية والمسرح ك "جان بول سارتر و"ميلان

كونديرا"و"البيركامو" وغيرهم ... وربّما كتحدّ لأفلاطون،الذي طرد الأدباء والشّعراء خاصّة،من جمهوريته.

الفصل الثامن

البحث عن عشبة الخلود

"كلّ شيء منذور للموت إلاّ ما كتب"

هكذا بتصرف،قال قدماء المصريّين. كلّ الشخصيّات والأحداث والأفعال والأقوال يمكن أن تموت، إذا لم تكتب.

وقد قال الأديب الكبير محمود المسعدي:" إنّ الرّجل يكتب،تعويضا عن حرمانه،من تجربة الولادة عند المرأة ". ولكن لماذا تكتب المرأة؟ إذا كانت قد حبتها الطبيعة بهذه النعمة؟وكيف استبدلت أنا فعل الولادة بفعل الكتابة؟ كيف استبدلت الرحم بالكلمة؟من الذي أوهمني أنّ الخلود مع القلم وليس مع الولد؟ومن أطول عمرا الكتاب أم الولد؟ولماذا يموت كلّ أبنائناويبقى المتنبّي حيّا لا يموت والمعرّي وابن خلدون؟ ولماذا قالت صاحبة الحانة " سدروي" لجلجامش مشفقة عليه بعدما أنهكته رحلة البحث عن عشبة الخلود:

"تمتّع بهناءاتك وما يولد لك من أطفال.

الآلهة أعطت الموت للإنسان واحتفظت هي بالخلود.

وهوما نحن عليه ولا محيد لنا عنه"

ولكن هل عمل " جلجامش " بنصيحتها؟ وهل هناك كاتب يستطيع أن يتمتّع بهناءاته وما يولد له من أطفال. دون أن يرمي بنفسه في متاهة مغامرة البحث عن عشبة الخلود؟ ...وكيف تركت أنا ورائي، خطيبا، يستعد للعرس ويحلم بالزواج والأطفال. وألغيتكلّ شيء ورميته وراء ظهري وسافرت إلى بلاد جلجامش،للبحث عن عشبة الخلود؟

نشأت،طفلة بلا طفولة. فقد غرّبتني أحلامي مبكرا،عن أترابي ولعبهن...فلم أشارك بنات جنسي اللّعب بالدّمى ولم تستهوني مسرحيّة العريس والعروس،التّي كنّ يقمن بتمثيلها، في سقائف وأزقة حيّنا في حومة دار "شعبان الفهري" بمدينة نابل. كنّ يمثّلن دور العروس والعريس ويحلمن بالزّفة ويضعن قطعا من الدّانتيلاّ فوق رؤوسهن ويثبّتنها بتيجان من الأزهار.ويحملن باقات النوّار في

أيديهن... وأنا أرفع بصري عن الأرض وأحلّق عاليا.... وأحلم بتاج مرصّع بنجوم السّماء...يتوّجني في غير هذه المناسبة...متى وكيف لم أكن أدري بعد؟

مقصيّة عن أصحابي وعنطفولتي.مبليّة بأحلام شاهقة، كبيرة وثقيلة على كاهل طفلة لم تتجاوز الرّابعة أوالخامسة من عمرها...ولم تدخل المدرسة بعد. أحلام تباعد بيني وبينهن.ولكن تفتح لي طريقا نحوالسّماء....

كانت الفتيات في مثل سنّي، يلعبن بالدميّة / العروس ويحلمن بالعريس وينتظرن الزّفاف...وعندما يكبرن قليلا، يبدأن في إعداد وتطريز جهازهنّ، استعدادا للحياة الزوجيّة،كأول وآخر أمانيهن في الحياة....

كنت غريبة وسط، هذه الألعاب وهذه الأحلام....

كما لم يستهوني عنف لعب الذكور. كنت أبحث عن شيء آخر مختلف، لم أتبيّنه في الأوّل....

لجأت إلى عالم الكبار، علّني أجد فيه نفسي وحلمي... كانت أمّي، تأخذني معها أينما ذهبت، ربّما لأنّني بكرتها، فكانت تتّخذ منّي رفيقة وصديقة.ولأنّني كنت خجولة، هادئة (عاقلة) كما كانوا يفخرون بي. بعيدة عن شيطنة وشقاوة الأطفال.

كنت أتابع حياة نساء "دار شعبان"وضاحيّة "باردو" فيما بعد في العاصمة. مع جاراتنا ونساء العائلة القريبات والبعيدات....

لم أر شيئا غير الإنجاب والطّبخ والغسل والكنس وكيّ الملابس وشطف الأرض ومسح الغبار عن الأثاث واستبدال الملاءات على المفارش ونشر الغسيل وجلي المواعين وتغيير الحفّاضات وتحضير الرضّعات وتقشير

الخضار وتحريك الطناجر والوقوف أمامها ساعات كي لا تحترق... خدمة للزوج والأولاد....
و"**هي**" أين هي؟؟؟؟؟؟؟ كنت أبحث في صمت وهلع عنها.
فلا أجدها..تلك الطّفلة التّي كانت تحلم بالزّواج والأولاد....
ها هي قد تزوّجت وأنجبت! فبماذا تراها تحلم الان؟ هل انتهى الحلم؟ هل سقطت في الفراغ؟
لا! لم ينته الحلم.إنّه يتكرّر....إنها تحلم الآنبأن يكبر الأولاد...وتحلم بتزويجهم... وأقصى أمانيها أن تعيش حتّى ترى أولادهم...
وأنا أتابع في هلع،كيف تتحوّل المرأة إلى" كائن غيري " لم يعد يعيش لنفسه بل يعيش للآخر: من أجله ومن خلاله... وهذا أخطر أنواع الإغتراب عن الذّات، في عيني.
كنت أحبّ هذا الآخر أنا أيضا. ولكنّني، كنت أحبّ نفسي أيضا ولا أرضى لها أن تعيش، من خلاله ومن أجله فقط.
وارتعبت من دوّامةـ دائرة الحلم المكرورـهذهوخشيت السّقوط فيها بدوري... وجزعت من هذا الحلم،الذي يحصر كيان المرأة في وظائفها البيولوجيّة ويقبر كلّ ملكاتها الإبداعية....إرتعبت لارتهان المرأة الكامل للأفراد الآخرين.
رأيت المرأة داخل الخليّة العائلية، لا تعطي جسدها وزمنها وجهدها وطاقتها فحسب، بل تهب حلمها ورجاء غدها أيضا إلى غيرها... توظّفُ في شخصالرّجل زوجا بشكل أخّص ثمّ إبنا،كلّطموحها وأحلامها.وتجيز له مشروع تساميها وعُلوّها على ذاتها وتحقّقها الأعلى.
كنت ألاحظ بمرارة كبيرة، على صغر سنّي، كيف أنّ القضايا المصيريّة والإقتصادية والعلاقات العامّة: هيّ همّ

الرّجل. والرّجل همّ المرأة. هدف الرّجل بناء نفسه ومكانته، هدف المرأة بناء الرّجل ومكانته. سعادة المرأة من سعادة الرّجل والأبناء.كنت أشعر على صغر سنّي أنّ هناك خللا ما،في العلاقة بين المرأة والرّجل.

ولشدّ ما كانت عبارة " وراء كلّ رجل عظيم امرأة " تزعجني وتربكني ولا تضعني في مكاني الصحيح. كما أنّها لا تنصفني فلا تقنعني.

كنت أشعر أنّها تهمّشني وتقصيني وتبعدني عن مدار العظمة. تركلني للوراء وتحجبني في الكواليس.

ألا يمكن أن أكونعظيمة أنا أيضا؟ هل العظمة خاصيّة رجاليّة؟هل قدري أن أكون ـ وراء العظماء ـ لا مكانهم؟

كانت طموحاتي وأحلامي أكبر من أن تقنعني بالعمل في الظلّ أوفي الكواليس.... وسحبت نفسي مبكرا من صنف النّساء العاملات في الظلّ من أجل الأزواج والأبناء والإخوة والرفاق والرؤساء... النّساء المختفيات في كواليس السيّاسة والغرف الدّاخليّة، في قصور الحكام والملوك،منذ أقدم العصور. لم يكن يعنيني هذا الدّور الخفيّ للمرأة،كما لم يكن يغوينيبل إنه كان يهينني.

هل العمل الحقيقي عار،يجب أن نخفيه ونكتفي بالتّستّر عليه في الخفاء، مثل التّنظيمات السريّة أوالأعمال الشائنة؟

هل العمل نوع من الحشيش يجب أن نتداوله سرّا؟ لم أفهم لماذا لا يمكنني أن أكون كائنة بذاتي. لا بغيري!

وبدأت أسحب نفسي من عالم النّساء الكائنات بغيرهن لا بذواتهنّ. قصارى ما تحلم به إحداهن وما يمكن أن تبلغه، أن تكون أمّ فلان وزوجة فلان.

مقصيّة مرّة أخرى من عالم النساء. بعد ما أقصيتُ من عالم الأطفال.ووجدتني وحيدة متوّحدة بذاتي في مواجهة الزّمن والموت. مثل كوكب حائر، طاش عن مداره وبقي دون محور استنادي.وكان عليّ أن أوقف هذه الصيرورة، الهابطة. وأخلّص نفسي من الإقامة الجبريّة في الآخر.والإستغراق في ذاته والتّمحور حوله.زوجة أوأمّا أوعاشقة... وأن أخلع رداء التبعيّة وأخرج من دائرة القوالب الجاهزة والصورة المرسومة مسبقا.والأنموذج المقرّر سلفا والتاريخية الجاهزة التي تنتظرني كالقدر منذ الولادة،لتفتح لي ذراعيها وتطبق عليّ.وبدأت أشعر بالإختناق في هذا العالم والغثيان لهذه النمطيّة البائسة.

كان عليّ أن أخلّص نفسي وبنات جنسي،من دوّامة دائرة الحلم المكرور هذه. التّي تختزلنا في آلة إنجاب.... لم أكن أشعر أنّني معنيّة بتعمير الكون.ولا بتأثيثه بالأرواح والأجساد. ولست وسيطة الإمتدادالبشري وشرطهاالأساسيوراعيتهولاحارسة السّلالات والتّكاثرعلى الأرض....

كنت أبحث عن مشروع إبداع وتسام...كنتأريد أن أنجب ذاتي باستمرار، كما أنجب الأولاد.... مشروع يخرجني من محدوديّة الوظيفة الجنسيّة إلى أفق الإنسان... به أنجب امتدادي الزّماني والمكاني وأعطي لمراميَ وأحلامي جسدا لا يشيخ. خاصّة وأنّني كنت أرى النّساء حولي ولا زلت،ممّن نذرن حياتهنّ للإنجاب فقط.كيف ينتهين وحيدات متروكات، متى تجاوزن عمر الخصوبة، بعدما ذوت نضارة شبابهنّ... وحيدات في هامش الهامش، بينما يجري البحث عن دم جديد لجنديّة مجهولة جديدة...

تشبّثت بمقعد الدّراسة،فهوالمقعد الوحيد الذي أشعرأنّه مكاني الحقيقي. ولا أجلس فيه نيابة عن غيري ولا أحلّ فيه محلّ غيري. كان مقعد الدّراسة هبة السّماء من رجل خالف تقاليد كلّ القبيلة ليدخلني المدرسة ويتركني أواصل تعليمي العالي ببغداد،أبي، الذي أهديته باكورة سموّي الأوّل عن شرطي التاريخي: كتابي " ليت هندا...! "
كان مقعد الدراسة منقذي من الزّواج المبكّر. أهرب إليه وأتعلّل به بالنّسبة لأهلي ولكن في الحقيقة كنت أهرب إلى ـ الحرف ـ لأنه سيمنحني عمرا لا يفنبالنسبةلنفسي...
بدأ سنّ الزّواج يقترب وبدأت أرتعبوصرت أختبئ في زوايا الكتب. بينما بنات جنسي يستعرضن،مفاتنهن في حفلات الأعراس ويتودّدن لأمّهات الذّكور.... كنت أتشبّث بالحرف وأتسلّح به، لأقوى على تجاوز ذات،مهدّدة بالذوبان الكامل في الآخر. كنت أجاهد للإمتلاء بمشروع آخر، كيلا أنتهي عند حدود الزّواج والإنجاب. كنت خائفة حدّ الهوس أن يأخذني الزّواج والأولاد من الكتابة.
فمن منّا لا يعرف كاتبة أهملت الكتابة أوفنّانة تخلّت عن الفنّ أوطالبة توقفت عن الدّرس عند عتبات منزل الزوجيّة؟صار هذا المنزل الذي سأدخله،مُروّعي ومُنزل كلّ البلاوي بي...
ولأخمد هذا الهوس الذي يصيبني من كلّ ما من شأنه أن يعيقني عن الكتابة. فقد استقلت مبّكرا من كثير من شؤون الحياة التي يمكن أن تشغلني:كالمجاملات الاجتماعية والزيارات العائلية وحفلات الأعراس والطقوس الهادرة للوقت وللطاقات.

ووجدتني أسلك من جديد، نفس تلكالطريق التّي سلكها جلجامش،منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. رائدا ما وراء بوّابة الشمس،لملاقاة جدّه – أتونيشتم – الذّي نجا من الطوفان واكتسب الخلود. رجعت أنا أيضا إلى جدّي المعرّي الذي نجا من النّسيان واكتسب الخلود والمتنّبي وابن خلدون وغيرهم كثير....

وكدودة العنكبوت، عشّشت ما بين الحرف والحرف، الذّي علق بي وبدا مغريا، جميلا، لألاء، شاقّا، ثقيلا، طويلا، عميقا، كالدّهر.وتهت في متاهات النسّيج وصار الحرف عمقي وبُعدي، حياتي وموتي، بدايتي ونهايتي، دافعا عنّي فجيعة العمر ورادّا عنّي نكبة الأقدار،تعويذة أتّقي بها من شرور الحياة، وأقاوم بها هلع الفناء وفجيعة الإندثار.

وقد كنت أراني قبل ذلك حفنة تراب، تبعثرها الرّياح وقت العاصفة، لتؤول غبارا وهباء منثورا...

مسكت بيدي على الحرف كالماسك على جمرة في زمن تزاحمني فيه بنات جنسي وتتحدّينني في مواجهة الموت بما يتدّفق من أرحامهن.

وكما تحمل الأمهات أطفالهن وكما حمل "جلجامش"عشبة الخلود حملت الحرف ليكون الشاهد الوحيد على الحضور بعد الغياب.

الفصل التاسع

أوّل تونسيّـــــــــة...

عندما ذهبتإلى كليّة الآداب، للتّسجيل في قسم الفلسفة مع "كتاب الوزارة "، وقد كان يرأسه حين ذاك الدكتور "عرفان عبد الحميد" رحمه الله.
استقبلتني سكرتيرة القسم،بدهشة كبيرة وكأنّها أوّل مرّة ترى مخلوقا على وجه الأرض.ولم أفهم؟ حتّى قالت لي: " تونسيّة؟؟؟...قلت لها نعم...طبعا
قالت: " أوّل تونسيّة تدخل عندنا قسم الفلسفة.وكانت سيّدة طويلة،جذّابة. تلبس كثيرا من الأكسسواراتوتضع كثيرا من الماكياج على وجهها. تتأمّلني وتمسك القلم،بينأصابعها،المصبوغة الأظافر الطويلة،بالأحمر الفاقع. لتسجّلني في السّنة الأولى بالسّنة الجامعيّة الجديدة (1977 ___1978) وهي تعيد وتكرّر باستغراب،كأنها تكلّم نفسها إذ تكلّمني. تتحسّس القلم بين أصابعها وتقول: " آني... آني أوّل مرّة أسّجل طالبة تونسيّة..." كأنني كائن ينزل من

كوكب آخر على قسم الفلسفة. ثمّ أردفت: "إذا ستكونين أوّل طالبة تتخرّج من عندنا. أتمنّى لك النجاح والتوفيق عيني ". وأنا أشعر أن كلّ شيء حولي، يأخذ لونا جديدا وطعما جديدا وإنّني أولد من جديد وأنّ بلدا غريبا يحتضنني وأنّ قدرا جديدا يكتب لي وينتظرني... ومصيرا مجهولا يطوّح بي...ولا أكاد أستوعب كثيرا ما يحدث لي.مأخوذة بدوّامة الدهشة ولذّة الإكتشافوكأن بساط الرّيح لم يستقرَ بعدُ بي. غير أنّ وجه السيّدةالوضّاء كان يغمرني بمسرّات النّجاح والفرحويبعث على التفاؤل.

أمّا المشرفة الصباحيّة للقسم الداخلي فقد أتعبتها كثيرا وأنا أتردّد عليها
يوميّا وأتوسّل إليها أن تنقلني إلى قسم البنات التونسيّات.وكان قد أعياها إقناعي، بأنني بأحسن سكن، تتمناه كلّ طالبة منهنّ. وقد حاولن السّكن بالرئيسي دون جدوى لأن اغلبهنّ في الثانوية العامّهولسن من بعثات رسميّة. ككلّ من جاء قبلي. كنت مصرّة ولم يكن يعنيني كلّ ذلك، المهمّ أن أبقى مع بنات لهجتي في أوّل أيّامي ببغداد.وبعد أربعة أوخمسة أيّام اقترحتْ عليّ المشرفة بأن أذهب وأرى بنفسي، السّكن الذي أريد أن أنتقل إليه، قبل أن أوّقع على قرار نقلي.
ويوم ذهبت وجدت أوضاعا مزرية وغرف صغيرة، بائسة ورواقا ضيّقا متّسخا وناموسا يلدغ جلدهن...
فرح بي البنات كثيرا لكنهنّ استغربن موقفي وكيف أستبدل القسم الرئيسي الذي يحلمن به دون جدوى. بهذه الأقسام الصغيرة التّعيسة؟ صُدمت أنا بدوري. وتعقّلتورجعت إلى

قسمي الكبير. أحمد ربّي أنّني لم اتسرّع في إمضاء قرار نقلي.

بعد أربع سنوات عشتها مع بنات القسم الداخلي. صرت أرطن بكلّ اللّهجات وبطلاقة أيضا وحُلّت عقدة لساني.وتشتّت قاموسي التّونسي وغاب عنّي...ولمّا عدت إلى تونس بعد كلّ تلك السّنين. عاد حديثي مطّعما بكثير من المفردات التّي لم تسقط منه إلى الآن. فهل ترى نحن نسكن بلدا أم لغة تسكننا وتحلّ فينا حيثما حللنا؟

الفصل العاشر

كلّيـــة الآدابـــــــــــــ

من المظاهر الغريبة التّي لفتت إنتباهنا، أوّل ما دخلنا الكليّة. وجود بعض الطالبات بعباءاتهن التقليديّة السّوداء. ولم نكن نعرف طالبات يلبسن السّفساري مثلا في كلياتنا بتونس أوفي الإدارة التونسيّة.والأغرب منه هوأنّني شاهدت خلع بعض الطالبات، لعباءاتهن، عند مدخل الكليّة، قبل اجتياز البوّابة والإستعلامات. ثم ردهّا على رؤوسهن عند الخروج فبدَون لي كأنّهن يخلعن قناعا ويلبسن آخر. ولا أدري ما

هوالوجه الحقيقيّ لهنّ؟ولكنّني كنت أفهم توقهن إلى الحريّة والإنعتاق من كلّ ما يمكن أن يكبّل أجسادهنّ وحركتهنّ وخطواتهنّ وأرواحهنّ.وفهمت أنّهن مجبرات علىلبس العباءة، حفاظا على التقاليد والعادات الإجتماعية، كونهنّ جئن من الولايات الداخليّة وليس من العاصمة بغداد. كما عرفت فيما بعد، عندما استفسرت، عن الظاهرة. إنّ الإلتزام بالعباءةكرمزللمحافظة على الأصول وصيانة الشّرف،هوشرط أولياء أمرهن،الأساسي للسّماح لهنّ بمواصلة الدّراسة الجامعيّة في بغداد.ورغم أنّه شرط تعيس وبائس، إلاّ أنّ الطالبات يلتزمن به ظاهريا، في سبيل الدّراسة والعلم والإنتقال للعيش وحيدات في بغداد. كأن العباءة هي حارسهن العتيد.

تعتبر كليّة الآداب من أعرق الكليّات العراقيّة. أسّست في أواخر أربعينيات القرن الماضي (سنة 1949) وكانت تسمّى حينها (كلية الآداب والعلوم) حتّى انفصلت هذه الأخيرة سنة 1958.ومن رحم الكليّةولدت جامعة بغداد.فكانت الغرسة الأولى للتّعليم الجامعي في العراق والنواة الحقيقيّة لجامعة بغداد.

تقع كليتنا بباب المعظّم أو "باب الإمام الأعظم" نسبة إلى الإمام الأعظم. كما كان يسمّى في عهد الدّولة العثمانيّة.وهوالباب الّذي يفتح على الطريق المؤدية إلىنفس الجامع: جامع الإمام الأعظم: أبي حنيفة النّعمان في الأعظمية ويقع شمال وسط بغداد. في المنطقة المحصورة بين جسر الصرّافيةوجسر السّنك. ويضمّ باب المعظّم مباني قديمة تعود إلى نهاية الدّولة العباسيّة والدولة

الأليخانيةوالجلائريّةوالعثمانيّة وكذلك العهد الملكي. ويعتبر الباب أحد أبواب ومعالم مدينة بغداد.
ومن أهمّ معالم باب المعظّم " الميدان " وهوساحة متربة كبيرة، تتجمّع فيها العديد من خطوط حافلات النقل العموميالحمراء، ذات الطابقين كما في لندن.ولا عجب فهوما تبقى من ميدان سباق الخيل، الذي كان قد أمر بإقامته الخليفة أبوجعفر المنصور منذ بنى بغداد مدينة السّلام.
وكانت على مقربة من كليّتنا، المكتبة الوطنية ودار الوثائق العراقيّة وهي مكتبةقديمة التأسيس. نهرع إليها كلّما احتجنا بعض المراجع أوالتنقيب عن الكتب والمخطوطات النادرة.
كما كنّا نهرع إلى المكتبة الوطنيّة في سوق العطّارين بالمدينة العتيقة في تونس العاصمة، بعد الخروج من معهدنا بنهج الباشا للمراجعة والدّرس.
ولأنّها قديمة وعريقة فقد كانت بنايةكليّة الآداب بسيطة، عادية، تمتد أقساما متفرقة، على مساحات شاسعة جدّا.لكنّ المبنى ظلّ على حاله، قديما واثقا لا يكترث ولا يهتّم بتغيّير شكله ومنافسة التّصاميم المعماريّة الحديثة للكليّات العصريّة. لكنّ ذلك كان يحزّ في نفوسنا، نحن التونسيّون على الأقل: أنّ كليّتنا ليست مثل الكليّات العصريّة ومعمارها الحديث.
كان قسم الفلسفةيقع في أوّل الكليّة على شمال المدخل مباشرة. يكفي أن تقطع ممشى الحديقة الصغيرة ببضع خطوات حتى تصل إليه. في حين كانت أقسام اللّغات الشرقيّة بعيدة، في الطرف الخلفيّ للكليّة، التّي تمتدّ على مساحات رحبة جدّا لا نكاد نعرفها كلّها.وكان قسم الفلسفة من أوّل الأقسام التّي وجدت في الكليّة منذ تأسيسها حين

بدأت بثلاثةأقسام فقط: قسم اللّغة العربيّة وآدابها وقسم الإجتماعيات (تاريخ وجغرافيا) وقسم الفلسفة، في أواخر الأربعينيات كما أسلفنا. في حين أنّ هناك بلدانا أخرى من دول الخليج خاصّة تخشى تدريس الفلسفة في معاهدها الثانويّة وفي كليّاتها إلى الآن.

ثم أضيفت سبعة أقسام أخرى هي: اللّغة العربيّة، اللّغة الانكليزية، والآثار والحضارة والإقتصاد والتاريخ والجغرافيا والإجتماع،ثمّاستحدث قسم اللّغات الأوربية وقسم الدّراسات الشّرقية (التركيّة، العبريّة، الفارسيّة) وقسم اللغة الكرديّة ولم نكن نعرف أنّ هذه اللّغات تدرّس حتى فهمنا تركيبة المجتمع العراقي... وكانت تضمّ قسم السيّاسة وقسم علوم الدّين وقسم الإعلام التّي استقلّت فيما بعد في كليّات خاصّة بها أوأدمجت في كليّات أخرى.

وكان النادي يجمع بين كلّ الطلبة وهونقطة الإلتقاء في كلّ إستراحةوعلى كامل اليوم.وهوعبارة عن مقهى كبير يوفّر الشّاي والسندويتشات وبعض المشروبات الغازية..بأسعار زهيدة جدّا.

وكنت لا أحبّ التردّد على "غرفة الطالبات " الضيّقة المختنقة بدخان السجائر... والتّي تهرع إليها المدخّنات، العراقيّات خاصّة، بلهفة كبيرة في أوقات الإستراحةوبين كلّ ساعة وساعة من أوقات الدّرس، للتّدخينوتلطيخ وجوههنّ بالماكيّاج الثّقيل، الصارخ في غير ذوق ولا

أناقة.وكان ذلك دائما محلّ تندر وسخريّة الشّباب التّوانسة خاصّة من هذه "اللّوحات الزيتيّة " كما كانوا يسمّونها والتّي تضمّ الأزرق والأخضر والأحمر وكلّ الألوان الفاقعة، الصارخة، على وجوه بعض العراقيّات المشهورات

بالماكياج الثقيل والرخيص.على أن للعراقيات جمال طبيعي صارخ لا يحتاج الى ماكياج.
أمّا الطالبات العربيّات فيدخّن في النّادي دون حرج وكنت أكره هذا التقسيم والتّدخين في السّر...
كانت كليّتنا فضاء كوسموبوليتيا يجمع بين ثقافات عدّة وجنسيّات متنوّعة من الطّلاب. هناك عرفت طلبةشباب من روسيا،آسيا،الهند، الصين، اليابان،باكستان،ماليزيا، أوروباالشرقية، أمريكا، البرازيل ومن إفريقيا...بالإضافة إلى كلّ الجنسيّات العربيّة وخاصّة من فلسطين ولبنان والكثير من أبناء المغرب العربي أيضا...كانت فسيفساء ثقافيّة الألوان وعادات وديانات وسلوكات مختلفة تجمع بيننا المعرفة والعلم ورحابة صدر هذه الكليّة التي تشعرك كأنّك في قلب العالم. وقد ضمّت مختلف الحساسيّات والأقليّات العرقيّة والدينيّة والثقافيّة.... وهي نسخة مصغّرة لما يحدث من إحتفالاتفي المناسبات الوطنيّة الكبرى على مستوى العراق ككلّ إذ كثيرا ما تتحوّل الأعياد الوطنيّة إلى تجمعات شعبيّة كبرى تدعى فيهاالجاليات العربيّة والأجنبيّة المقيمة في البلاد لاستعراض خصوصيّاتها الثقافيّة... للتمازج والتزاوج والتشاركبينها وبين العراق الذي لا يفوّت الفرصة لنشر ايديولوجيته وفكره البعثي، القومي، بإشراف أعضاء القيادة القوميّة أوالقطرية لحزب البعث العربي الإشتراكي. إضافة إلى أنّ أرض العراق التّي تعتبر واحدة من أكثر البلدان المتعدّدة الأعراق والديّانات في الشرق الأدنى. تشتمل على أقليّات قوميّة وعرقيّة وديانات وطوائفلم نكن نعرفها في بلادنا وفي منطقة المغرب العربي عموما. مثل الأكرادوالآشوريين المعروفين باسم "الكلدان الآشوريين"

أيضا والتركمان وهؤلاء الثّلاثة يمثّلون أعلى نسبة قوميات غير عربيّة في البلاد. يليهم الأرمن والشركس والغجر والفرس... وهناك أيضا الشبك واليزيديّة والصابئهوأعداد صغيرة من البدوالإيرانيينواليهود والأذربيجانيّين والجورجيّين...
وتشمل الجماعات الدينيّة من العرب السّنة والشّيعة والصابئه والمسيحيّين واليهود والشبك والزرادشتيّينوالبهائيّين واليزيديين...
وبالتوغلأكثرفي المجتمع العراقي.وبعيدا عن المصادر الرسميّة. كنّا نسمع عن أخبار الأقليّات المضطهدة التي لم تكن تتمتّع بوضع متساومع غالبيّة السّكان العرب. في كامل أنحاءالعراق.وقد ضيّق عليهم حزب البعث العربي الإشتراكي بشدّة خلال حكمه رغم كلّ الشّعارات... ممّا اضطرّ بعضها إلى انكار هويّتها تحت حكم البعث.

وقد كانت كليّة الآداب تعدّ من الكليّات الفريدة التّي استطاعت أن تحافظ على التّقاليد الجامعيّة وكانت وعلى مدار السّنة، خليّة نشاط ثقافي في كلّ مجالات المعرفة الإنسانية. تعقد فيها أهمّ الندوات والمؤتمرات والأمسيات الشعريّة...كما كان لها موسم ثقافي خاص بها.
ولقد رفدت المشهد الثّقافي العراقي بأسماء لامعة وبنتاجات علميّة رصينة. وفي أروقتها أقيمت أكبر المؤتمرات والندوات الثقافيّة،حضرها وحاضر فيها الكثير من العلماء والمفكرين, ولقد تخرّج منها الكثير من رجال العلم والتربيّة من العراقيّين والعرب والأجانب، واحتضنت فرسان المعرفة والثقافة العراقيّة والعربيّة أمثال طه باقر وجواد

علي وعلي جواد الطّاهر وعلي الوردي وجعفر خصباك وياسين خليل وخليل عماش وإبراهيم شوكت وجاسم محمد الخلف وعناد غزوان وصالح احمد العلي وسامي سعيد الأحمد ومدني صالح وكامل الشيبي وحسام الألوسي وقيس النّوري ومتعب مناف السّامرائي وعلاء البياتي وكمال مظهر والقائمة طويلة جدّا...

شياطن أيّام الجامعة.

في صفّ أوّل جامعة على ما أظنّ كان لنا احتفال كبير بيوم الشّاعر وما أكثر إحتفالاتالجامعه حينها. حتّى أنّا كنا نسمّيها عطلة سنوية تتخللها بعض الدروس. بين يوم المعلّم ويوم الطالب ويوم الشاعر ويوم فلسطين ويوم الأرض وذكرى الثورة.... وكان يوم عيد الشاعر وأقيم احتفال كبير في الكلية وعزمتُ صديقتي صباح السّورية من كلية العلوم وكانت صغيرة مثلي حينها لنحضر الإحتفال معا. دخلنا قاعة كبيرة فيها منصّة طويلة للنقاد شاغرة.وصفوف أولى شاغرة ولكن كراسيها مخمليّة حمراء، وثيرة، مغريّة جدّا. تردّدنا ثم تشجعنا وجلسنا في الصّف الأول (وكان معظم الجمهور في الوسط والخلف) ولم يرنا أحد فانبسطنا وقلنا فزنا بالكراسي الشرفيّة. وبعد قليل جاء شاب يبدوأنّه منظّم الحفل. تقدّم نحونا بأدب وقال لنا: لطفا هذه الكراسي محجوزة للشعراء فقط. فارتبكنا وكتمنا ضحكة عابثة ونظرات زائغة وقلنا في أنفسنا: إذا قمنا معناه أنّنا تهزّأنا أمام الطلبة..مرّت لحظات حرجة.. وإذا بي أقول له بكل ثقة: " نحن شعراء. نعم شعراء! " إرتاب في أمرنا ونظر

إلينا نظرة شكّ ثم قال أين قصائدكم؟ قلت له بعد تدبّر وتفكير: نحن ننتظر شيطان شعرنا. وموعدنا هنا على هذه الكراسي المخمليّة وإذا قمنا لن يأتينا. فنظر إلينا بريبة ورفق وكان مهذّبا خجولا. كتم ضحكة مواربة وخرج.... لكن الشيطان أظنّه من حينها دخل عالمي وقلمي وأوراقي وسكنني .... وصار ملهمي الأبدي.....

الفصل الحادي عشر

عمار القسم الدّاخلي

بعد أيّام قليلة بدأ " القسم الدّاخلي " يمتلئ بالعراقيات من المحافظات(الولايات) الداخليّة للعراق وبالطالبات العربيّات الوافدات من كلّ البلدان العربية وأغلبهنّ من فلسطين في أكبر نسبة. ثمّ الأردن (سكان الضفّة) واللّبنانيّات وأغلبهن من طرابلس ومن الجنوب (صيدا وصور) يأتين عن طريق" الرّفيق " الدكتورعبد المجيد الرّافعي عضو القيادة القوميّة لحزب البعث العربي الإشتراكي. المقيم منذ أربع عقود بالعراق. بعدما كانقبل ذلك بعقد على رأس القيادة القطرية لفرع حزبالبعثفي لبنان. وقد كان له شأن كبير في السّلطة حينها.

وكان معنيّا باستقطاب الطلبة اللبنانيّين إلى العراق وإلى حزب البعث العربي الاشتراكي خاصّة. بتوفير فرص الدّراسة لهم. كان مناضلا خدوما محبوبا من الجميع،له

شعبيّة واسعة في العراق وعند بنات الدّاخلي. وأغلبهن جئن عن طريقه وهوالمسؤول الأوّل عنهنّ والرّاعي لشؤونهنّ.... ويعتبرنه الأب الروحي لهنّ.

أغلب الوافدات أيضا سوريات، من سكان الخليج (خاصّة الكويت) في نطاق الهجرة إلى الخليج، هروبا من نظام حافظ الأسد أومن أجل فرص العمل والاستثراء... وأكثرهن لاجئات فارات من حزب البعث السّوري حيث يكرم حزب البعث العراقي وفادتهن ويبالغ فيها. يحتضنهنّ ويمنحهنّ إمتيازاتوكرامات مقابل خدمات ونشاطات وفعاليّات.... ولكنهنّ ممنوعات من الدّخول إلى سوريا. بعدما قُطعت العلاقات نهائيا بين العراق وسوريا، بسبب زعم اكتشاف صدام حسين سنة1978مؤامرة ضدّ نظام الحكم في العراق. اشتركت فيها أطراف قياديّةسورية... ومن حينها قطعت العلاقات بالكامل بما فيها إمكانية سفر مواطني كلّ من البلدين إلى الآخر.

أوّل من التحقت بي بالغرفة 51 من الطابق الثّالث بالقسم الدّاخلي الرئيسي" نوّال عبد المجيد السّعدي": فلسطينيّة من سكّان الكويت. دخلت تجرّ حقيبتها الصفراء الضّخمة والتّعب باد عليها، ارتمت على أوّل سرير أمامها..كنت شبه نائمه والغرفة معتّمة، فتحت عينيّ على الحركة، فرأيت أمامي فتاة طويلة سمراء، نحيفة، ممشوقة القوام، أنيقة، بعينينسوداوين واسعتين، وجه بيضاوي،قمحي،وشعر طويل أسود، مرفوع لفوق على شكل ذيل حصان، متعبة ومرتبكة قليلا... قالت أعتذر عن الإزعاج. أنا نوّال من فلسطين. سأسكن معك الغرفة.وما إن سمعت كلمة "فلسطين"حتّى

هببت من غفوتي واستويت جالسة على سريري وشهقت:" **فلسطينيّة!"**

كأنّني فتحت عينيّ فجأة على فلسطين أمامي: فلسطين المغتصبة التّي حملناها عمرا في قلوبنا:وطنامقدّسا، منذ صغرنا وتربّينا على حبّها والتعاطف مع قضيّتها التّي نعتبرها قضيّة كلّ العرب. قمت ذاهلة، أتأمّلها بدهشة، ثمّ احتضنتها بفرح كأنّي أحضن القدس وأرض فلسطين بين يديّ... فغصّت بعبرةمكتومةوارتبكت ثمّ اعتذرت عن وجودها. قلت لها أهلا وسهلا بك هذه غرفتك أيضا، لماذا الإعتذار؟

قالت لي بعد تلكؤ، وتردّد لنفس مغتربة: " ظننتك في الأوّل شهقت خوفا منّي.أورفضا لي كوني فلسطينية مشردّه ليس لي وطن." فصدمت بدوري من إحساسها.وبقيت أرحب بها وأشرح لها دهشتي، لأزيل سوء التفاهم... حتّى انفرجت أساريرها...

كانت نوّال أيضا تشبه ممثلة لبنانية، طويلة ممشوقة القوام راقية الحضور بجمال أرستقراطي شامخ. عودها يابس وصلب وطباعها حادّة وهي صاحبة مواقف ومبادئ في جلّ أدوارها. عيناها سوداوان واسعتان نفس عيني نوّال تماما. تميّزت بدور " نجمة " في مسلسل " عازف الليل " الذي أحببناه كثيرا في تونس عندما بثّته التلفزه التونسيّةكثاني مسلسل لبناني بعد " ابن الحرامي وبنت الشاويش" بطولة"سميرة بارودي " وإحسان صادق الذي شدّنا أيضا..كأوّل عهدنا بالمسلسلات في منتصف السّبعينيات...أحببت نوّال لأن أمّي كانت تحبّ كثيرا " نجمة

" بطلة المسلسل. أراها فأتذكر أمّي وسهراتنا العائلية الدافئة حول التلفزيون، أيّام كان المسلسل يجمعنا. وكنت تعبت في تذكر إسمها الحقيقيّ كممثله.أصفهاوأعيد للبنات حتّى عرفن انّها: " هند أبي اللمع".
ثم التحقت بنا "صباح محمد عرب" السّورية. أصلها من قرية "النبك "التي تفتخر بها كثيرا وبجدّتها التّي كانت مديرة مدرسة بها وتذكرها دائما بكثير من الحبّ والحنين. من سكان الكويت أيضا.
"صباح عرب" التّي ستحتّل سرير زاويتي في الجانب الأيمنمن الغرفة وستظلّ الأقرب إلى نفسي.والتّي ستبقى معي بنفس الغرفة، طوال السّنوات الأربع، للدراسةالجامعيّة، فيبغداد. وإن كنت أنا في كليّة الآداب قسم الفلسفة بالوزيرية. وهي في كليّة العلوم قسم البيولوجي بالأعظمية...
صباح كانت طريفة، خفيفة الظّل والحركة، ليست طويلة. يميل بها دائما عودها الميّاس الطريّ الناعم البضّ إلى اليمين في شبه إنحناءة عطوف، ودود، على كلّ من حولها. كأن نسائم دمشقيّة تحرّكها، ينسدل معها شعرها الطويل الفاحم النّاعم على كتفها، سرعان ما تردّه إلى الوراء بحركة من يدها، ليستقيم ظهرها ولتشعل بشراهة سيجارة "الكانت " المفضّلة عندها والتّي تكاد لا تستطيع أن تبدأ أيّ حديث بدونها، غير عابئة بسحب الدّخان التي تشوّه بشرتها الياسمينية البياض كبشرة أغلب الشاميّات.
أغراضها مبعثرة ولا تبالي بالنّظام كثيرا وإن كان نظام الغرفة ونظافتها وترتيبها التزاما وشرطا أسّاسيّا بيننا. والويل من نوّال لمن يخالفه.

صباح كانت شابّة تحبّ الحياة. ولا تأخذ شيئا مأخذ الجدّ. عكس نوّال التّي كانت جادّةجديّةصارمة،تتعبها، وتجعلها عصبيّة دائما وصعبة التعامل والتواصل مع من حولها. ولكنّنا كنّا نراعي طبعها ذاك ونحترمها لإستقامتهاومواقفها ومبادئها الثابتة ونحبّها لقلبها الطّفولي الصّافي. أحبّ حديثها الذي تبدأه دائما:" وحياة ربّنا...." تأكيدا على ما ستقول.

أمّا رابعتنا فهي "نهىالعلي" اللبنانية، بنت الجنوب من صور تحديدا. كجلّ الوافدات اللّبنانيات وإن كانت من سكان الكويت أيضا في نطاق الهجرة الجماعيّة من بلاد الشام إلى الخليج. بحثا عن الأمن والرّزق. خاصّة بعد سنوات الحرب الأهليّة اللّبنانية. تهذي طول اليوم بمعبود اللبنانيات الدكتور عبد المجيد الرّافعي.
"نهى" كانت طويلة ممتلئة، بحركات خرقاء. بها شيء من الأنانيّة. لا تفعل إلاّ ما تراه صالحا بها وحدها،ولا تراعي نفسيّة أحد ولا تزن كلامها. وعندما تضحك أوتغضب، يخرج الكلام طشّا مبتلاّ من فمها الواسع، غير المنسجم مع الشفتين المرتخيتين، على بعضهما، بسبب خلل في رسمهما وانفراج مبالغ فيه عند الزاويتين، كعجوز شارفت الثمانين. تسخر من كلّ من لا يعجبها شكله،كأنّما خلقت كاملة.ولا ترى عيوبها، التّي كانت صباح تذكرها بها دائما دون مجاملة. لا تعرف الإعتذارلأحد. مهما طلبت منها صباح ذلك، في حقّ أي أحدتسيء إليه، بكلامهاأوسلوكها.... تعوزها الدبلوماسية في التعامل في أحيان كثيرة،على عكس بقيّة اللبنانيات الأنيقات في كلامهنّ وأسلوبهنّ ولباسهنّ...

وكانت الأقلّ انسجاما معنا.ولكنّنانحبّها،فكلّ طيشها طفولي، عبثي وذلك ما يشفع لها.

وسأتعرّف لأوّل مرّةإلى المسيحيات.... إذ لم نكن نعرف في تونس مسيحيين عرب غير النصارى الأجانب.

بنات غرفتي كنّ كلّهنّ مسلمات. أمّا جيراننا في الغرفة 52 دعد ووعد التوأم الفلسطيني، الذي جاء من الكويت أيضا. فهما مسيحيتان أنيقتان في سلوكهما وحكيهما، عليهما آثار نعمة ورفاه الخليج وأصالة ورقي العائلات الأرستقراطية الفلسطينيّة ينحدران من عائلةنابلسية عريقة. لم يقدر على تشويهها الزّمن. رغم التّشرد منذ هجرة ال 1948والتبعثر في المخيّمات تارةوعند الأهل والأصحاب تارة أخرى. بين الأردن ولبنان وسوريا... حتّى استقرّ بالعائلة المطاف في الكويت بلدالنعمة.
وغيرهن كثيرات من مسيحيّات لبنان والأردن وسوريا والعراق ومصر ...
خديجة اللّبنانية أيضا كانت مسيحيّة،وكان الكلّ يعجب من إسمهاالذي يحمل مرجعيّة إسلامية تحيل على زوجة الرسول محمّد(صلعم)وتظلّ تشرح أصولها الإسلامية قبل أن تصبح مسيحية ...)
بعثيّة،شخصيّةكاريزماتيّة،يحترمهاالجميع. حتّى من يختلفون عنها في الدّين وفي الحزب.وندلعها "خدّوج " من مدينة صيدا.مسؤولة، حازمة، نشطة،ملتزمة في حزب البعث علانيّة وليس سرّا. تقضي اللّيالي الطويلة، فيالتعريف، بمبادئوأفكار وقيم حزب البعث العربيالإشتراكيوشرح

نظرياته وشعاراته في كتب الرفيق ميشيلعفلقوغيره من منظرّي الحزبللفتيات،الوافدات،الجديدات،وتسهل لهنّ معاملاتهنّ وتهتّم بشؤونهنّ وهي همزة الوصل المباشرة بينهن وبين الدكتور عبد المجيد الرافعي.

كان نظام "القسم الداخلي "يجمع الطالبات العربيّات في أجنحة خاصّة ومميّزة.والعراقيّات في باقي الأجنحة كماأسلفت. ولم نكن نفهم معنى هذا الفصل؟والحال أنّنا يجب أن نختلط، لنقترب من بعضنا أكثر.
ولم تأت أيّ تونسيّة أوحتّى مغاربيّة لحدّ الآن لتسندني وتبدّد غربتي.ولكنّني بدأت انسجم...
في اللّيل نتبادل الزيارات.وتعجّ الغرفة أوقاتا بصاحباتنا من الغرف الأخرى. وتقلّ وقت الإمتحانات. إذ تلزم كل واحدة ركنهافي غرفتها أوتنزوي بالمكتبة...
ويحدث أيضا، أن نخفي ضيفة، عن المشرفة اللّيليّة، التّي تمرّ لتفقد الغرف،السّاعهالتّاسعة. نخفيها في البلكونةأوفيالحمّام، حسب الطّقس. وعادة يحدث ذلك مع أخوات أوصاحبات بنات قسمنا، من ساكنات، قسم الأعظمية، لطالبات الثانويّة العامّة، اللاّتي يتقن إلى الكليّة وإلى سكن الطالبات الرئيسي.أويشتقن إلى أخواتهن...

المسيحيّات العراقيّات

وكانت نيفين " المصلاوية“(نسبة الى سكان الموصل اين توجد نسبة كبيرة من المسيحيين). من أصلآشوري.جميلة،شقراء،كجلّالموصليات. طالبة في سنة التخرج من كليّة الآداب قسم التّاريخ. استأنست بها كإبنة

كليّتي، أنا " الغريبة "بين بنات العلوم. بعدما اكتشفت في أوّل لقائي بها أنّها تحدّثني بفرنسيّة ممتازة.
كانت كثيرا ما تزورنا في الغرفة. تطلّ علينا بشعرها الأصفر المتهدّل على كتفيها وبيجاما نومها الورديّة. و "ببنسوارها وكمون صافا؟ " ثمّ تتوجه إليّ مباشرة ...كأنها تأتي لتقوم بإمتحانمراجعة،وممارسةللغة الفرنسيّة، معيكيلاتنساها. أو لتتباهي بها امام باقي البنات ولاستعراض مواهبها في اللغة.وكانت تفتخر أيضا كونها تتقن اللّغة السّريانية: لغة بلاد الرّافدين المسيحيّة قبل الفتح الإسلامي. ولكي تقول لي أشياء لا تريد أن يفهمها أحد.
وكانت دائما في شبه نشاز مع من حولها من طالبات وطلابعرب، مسلمين أو بعثيين بشبهإستعلاء أيضا ...

وكنت استأنس بها، لأن بيننا لغة مشتركة.ولأنّها راقيّة ومثقّفة وإن كان بها بعض غرور. وكنت أحبّ فكّ كثير من الغموض في عينيها. وأشعر أنّها تكتم غيضا ما، لا تريد أن تصرّح به علنا وكثيرا ما كنّا ننزوي في البلكونه أو في حديقة المبيت. وكنت أشعر بحدسي، أنّها تكتم جرحا حضاريا قديما. أو هي تتوارثه أبا عن جدّ. بالإضافة إلى كونها لم تكن مرتاحة كثيرا، فيغرفتها. التّي تتقاسمها مكرهة مع كردياتالسليمانيّة. وتسعى لدى الإدارة لتغيّيرها والإنتقال إلى السّكن مع المصلاويات.
كانت تعيد وتردّد على مسامعنا بنخوة استفزازية، أنّ المسيحيّة سابقة على الإسلام في بلاد الرافدين بآلاف السنين.وأنّ العرب المسلمين عندما قدموا من الصحراء، طمسوا في "غزواتهم" التّي يسمّونها فتوحات كثيرا من آثار

المسيحيّين من كنائس ومعالم أثريّة قيّمة ... وكثيراما كانت تنعتهم بالبدو الاجلاف.
وأسرّت لي ذات مرّة.ونحن نشرب الشّاي. في نادي الكليّة. وكانت قد أتتني ببعض المراجع التاريخيّة. كعادتها منذ عرفت اهتمامي بالتاريخ وميثولوجيا الشعوب الشرقية وتوقيلفهم شعبالعراق خاصّة.وأذكر أنّ من أهمّ الكتب التّي جلبتها لي، كتاب:" الكنائس والديارات المسيحيّة ""لمحمد سعيد الطريحي ". الذييثبت وجود مئات المواقع الأثرية المسيحيّة ...
أسرّت لي بحسرة كبيرة: أنّ قصور نظام صدام حسين البعثي مشيّدة على أنقاض عدّة كنائس قديمة يعرفها أجدادنا جيّدا في تكريت خاصّة. فهل هناك دوس على تاريخنا وديانتنا وحضارتنا في تحدّ سافر أكثر من هذا؟
قلت لها: لكنّ الذي أعرفه عن تاريخ العراق قبل مجيئي، من كتب التّاريخ أن المسيحيّة منتشرة. وكانت مزدهرة في أطراف العراق كما في شماله. وآثار كنائسها مازالت موجودة إلى الآن مثل كنيسة (كوخيه) الأشهر قرب "سلمان باك "جنوب العراق وقد تكون الأقدم على الإطلاق.وكاتدرائية "قلب ياسوع " للكلدان الكاثوليك في كركوك وكنيسة "مار توما "للسّريان الأرثودوكس في الموصل ...وغيرها كثير مما لا أذكره كلّه ...
وحسب علمي أيضا فإنّ المسيحيّة تعتبر ثاني أكبر الدّيانات بعد الإسلام في العراق من حيث عدد الأتباع.وهي ديانة معترف بها حسب الدّستور العراقي. كما يعترف بأربعة عشر طائفة مسيحيّة مسموح التعبّد بها في العراق.

ابتسمت بمرارة وقالتلي: " كلاوات " (وكلاواتبالعراقي تعني كلام فارغ للضحك على الذقون)وكانت تقصد شعارات حزب البعث ....
وطفقت تحدّثني بمرارة كبيرة عن مجزرة " سميل "بشمال العراق في بداية القرن الماضي (1933) التّي تشرّدت بسببها عائلتها مع مئات العائلات بسبب النزوح الكبير إلى سوريا حينها. هروبا من شمال العراق.ومن بقي من أهلها أو رجع، ليس أفضل حالا ممّن رحل.وقد كانت عائلتها أيضا تضّم عددا من الأساقفة رحلوا مع "كنيسة المشرق الآشورية " التّي انتقل مركزها من الموصل إلى "شيكاغو "بسبب هذه الأحداث وقد كانت ثاني أكبر كنيسة مسيحيّة. بعد " الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية "
ثم أردفت مغتاضةأيضا: هناك كثير من المغالطات التاريخيّة: الكثير من المدن العراقية، تعتقد الغالبيّة العظمى من الناس، أنّ تاريخها بدأ مع الإسلام مثل الكوفهوالنجفوكربلاء التّي يعتقد العامّة، أنّها تأسّست بعد استشهاد الحسين بن علي، في " واقعة الطف ". وهؤلاء لا يعرفون من كربلاء غير العتبات المقدسّة.
ولكنّها تحتضن أقدم كنيسة، في العراق: كنيسة "**الأقيصر**". وتشير كتب التّاريخ إلى أنّها تأسّست قبل 120 سنة من ظهور الإسلام.
تضمّ هذه الكنيسة التّي بُنيت في منتصف القرن الخامس الميلادي وتقع في الصحراء رسومات متعدّدة هي عبارة عن صلبان تدلّ على الدّيانة المسيحية. مبنية من الطابوق المفخور أو الفرشيوهي القيمة البنائية التي تثبت أنّها أقدم كنيسة شرقيّة في التاريخ. كنيسة يحيطها سور من الطين

يوجد به 15 بابا فيه أربعة أبراج للدّخول.وهي مقوسة من الأعلى يبلغ طول الكنيسة 16 مترا وعرضها 4 أمتار. اعرفها جيّدا لأنّنا نحتفظ برسوماتها في العائلة. كما توجد على جدران الكنيسة كتابات آرامية تعود الى القرن الخامس الميلادي حسب دراسات الآثاريين والباحثين.وفيها مجموعة من القبور يعود بعضها إلى رهبان الكنيسة ورجال دينها.
وكانت كربلاء مدينة عامرة متكاملة تزخر بالحياة منذ قرون عديدة: مكان يطلّ على حقبة تاريخيّة مهمة ويعطي دلالة على عمق تاريخ المدينة.
قلت لها: قد أثرت فضولي أيضا أن أراجع تاريخ الكوفة المسيحي. لأنّنا لا نذكر من الكوفة سوى تاريخها الإسلامي منذ أسّسها سعد ابن أبي وقّاص عام 638 م كمعسكر بعد معركة القادسيّة. زمن خلافة عمر بن الخطاب. بالقرب من مدينة الحيرة، حاضرة المناذرة.والكوفة أيضا مرتبطة في أذهاننا بالشّيعة وبالثوراتوالفتن ... وأشنعها مقتل الإمام علي عليه السلام.والموقع الذي استشهد فيه، على يد الخارجي "عبد الرحمان بن ملجم "بعدما كان قد اتخذها عاصمة لدولته ...وأنّ الجيش الذي خرج لمقاتلة سيّدنا الحسين أغلبه من الكوفة ...

ولكنّ تاريخها الإسلامي ليس بالقليل أردفتُ مؤكدة.فالكوفة شهدت مع البصرة أهمّ مدرستين بارزتين للنّحو والصّرفهما: المدرسة الكوفيّة والمدرسة البصريّة. مع مدرسة بغداد طبعا.ولا تنسي أنّ هذه الأخيرة، كانت أوّل مدرسة قنّنت النّحو والصّرف ووضعت له قواعد خاصّة. وكان رواد المدرستين من كبار أعيان وعلماءالشيعة. انتشر

العلم وسرى منهما إلى مختلف الأمصار العربيّة. ومن منّا لا يعرف إمام النحو الخليل بن أحمد الفراهيدي؟ أستاذ سيبويه بالنحو ومؤلف كتاب العين. وأوّل فنون الخط العربي ظهورًا: الخط الكوفي (ذو الزوايا الذي يرسم في أشكال مستديرة) فهو أعرق الخطوط. وظهر أوّل ما ظهر في الكوفة، ومنها انتشر إلى سائر البلاد العربية والإسلامية ومنها وصل إلينا في بلدان المغرب..

وقد كنت أسمع على مدى إقامتي في بغداد، قصصا مسيحيّة كثيرة ... يتداولها النّاس، تذكر التقاليد والحياةالمسيحيّة، في تكريت خاصّة. من أستاذنا ناجي التكريتي، الذي يفتخر بأصله كثيرا. ويذكر لنا أنّ هناك كثيرا من العائلات الإسلاميّة، تفتخر بأصل أجدادها، المسيحيّين. ومنهممن يحتفظ سرّا بآنية مقدّسة، أو آثارا مسيحيّة تناقلها عن أسلافه. كما أنّ هناك عائلات مسلمة، من تكريت لها صلة قرابة، بعائلات مسيحيّة في مناطق قرب الموصل.وأسماء العائلات واحد إلى اليوم، مع بعض التغيير. وفي شمال العراق لاتزال مئات القرى والمناطق تحمل أسماء سريانيّة قديمة، دلالة على عمق الإرتباط المسيحي في تراب العراق.

وكان المسيحيّون العرب يفتخرون بما قدموه.وما ساهموا به في نهضة أوطانهم العربيّة. و قد برزت شخصيّات مسيحية عديدة تركت أثرا كبيرا في مجتمعاتنا إلى اليوم مثل " يوحنّا الدمشقي و إسحاق النينويوإنستاس ماري الكرملي والحارث الغسّاني و جبران خليل جبران و بطرس بطرس غالي و

ميشيل عفلق و يوسف شاهين وفارس خوري و جبران تويني و فيروز و عاصي الرحباني و كارلوس سليم والياس خوري و مجدي يعقوب و البابا شنوده ونجيب ساويرس و لويس عوض و حنان عشراوي و جورج حبش وميّ زياده ووديع حداد و خليل السكاكيني و غيرهم مئات ...

وقد قابلت شخصيّا كثيرا من الشخصيّات الأدبيّة كتابا وشعراء مسيحيّون يكتبون بالعربيّة. ويبدعون فيها ويدافعون عنها ويستشهدون بالقرآن ويدافعون عن القوميّة العربية ...
وكنّا كلّ يوم نصحو على صوت فيروز... ولا أحد يجول بباله أنّ يتساءل إن كانت فيروز مسيحيّة أو مسلمة؟ بل هي: فيروز: إيقاع الصباح في حياتنا والوجدان المشترك بيننا والذاكرة التي تجمعنا.

أخذتني نيفين معها مرّة إلى الموصل وعرّفتني إلى أمّها التّي أحببتها جدّا وصرت أنتظر مجيئها الى بغداد والى القسم الداخلي لزيارة نيفين بفارغ الصّبر كأنّني أنتظرأمّي. كنت أحبّ ذلك النور الصوفي الذي يميّز وجهها وما يرتسم عليه من فيض أمومة وأنوثة وجمال كجلّ وجوه المسيحيات الشرقيات وخاصّة الأمهات منهن، تلك التعبيرات التي تأسرني وقد امتزج على صفحتها التقبّل بالصبر والانتظار والاستكانة الى العالم وكم ارتاح لتلك الطمانينة والرضا

والتصالح مع الزمن والابتسام للقدر. تلك الوجوه التي تذكرني برسوم عصر النهضة للمرأة وكنت بمجرد أن أرى" السّت ماريا" أمّ نيفين تقفز إلى ذهني لوحة " بشارة" لليوناردي فنشي للعذراء مريم بشعرها الطويل و صدرها الضّخم ووجهها المغري الجذّاب وعيناها المسبلتان و رأسها المنحني إلى أسفل وأصابعها الرفيعة و ملابسها المنسدلة ببساطة و أناقة على جسمها الهادي المستكين كجلّ نساء ليوناردو: شابات جميلات بشعر مجعّد طويل، بريئات و يشبهن وجوه الاطفال بملامح ناعمة، غاية في الهشاشة والدقّة. يجلبن الناظر ببراءتهن وجمالهنّ.

الفصل الثاني عشر

خليّـــــة النّحـــــل...

وصلت كلّ الطالبات الوافدات تقريبا. وصارت الغرفة ترطن بلهجات مختلفة ولكن متقاربة. يفهمن بعضهنّ البعض دون عناء، خاصّة بنات بلاد الشام أوالهلال الخصيب سابقا: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. عادات وتقاليد متشابهة ومتداخله. ينساب الكلام والحديث والتعاملبينهنّ سلسا، بأريحية كبيرة دون تعقيد.ويفيض حلوا من أنفسهن السخيّة، بكلّ عبارات الكياسة واللّطف والمجاملة... في وديّة ودفء وحميمية وابتسام

وأريحية...ولا عجب من سليلاتالفينيقيين، المدنيّين، التجار اللّبقين. تفاجئك في الأوّل وتغمرك بقاموس لم نكن نسمعه إلاّ في الأفلام المصريّة: حبيبتي وقلبي وروحي وعمري وعيوني وحياتي وأغاتيالعراقية....
ويحز ّفي نفسك أنّك قادم من بلدان، جافة في التّعامل الإجتماعي. فنحن في تونس لا نتبادل كلمات الحبّ والودّ يوميّا وليست في قاموس حياتنا الإجتماعية. بل نجد صعوبة في التفوّه بها حتّى في المناسبات. أسلوبنا في الحديث جاف وناشف وجاحد وربما حادّ في كثير من الأحيان إلاّ ما ندر. نظرا لطبع التّونسي العصبي وضغط الحياة الصّعبة. أوهي ترجع إلى أبعد من ذلك ربّما لأجدادنا البربر... ويتضّح ذلك في الجزائر أكثر منّا لشدّة خشونة طباعهم، الحادّة والقاسيّة والجافة وأقلّ منهم المغرب الأقصى بقليل. لكن عموما تلك طباع النّاس في المغرب العربي: جفاف وأسلوب ناشف في الكلام وفي الحياة بعيدا عن المجاملة. ربّما لطبعنا النقدي الصّريح والمباشر أيضا...
في حين أنّ المشرق العربي تختلف طباعه عنّا تماما. تُطرّزُ وتزيّن المجاملةُ، نسيج حياته الإجتماعية، بكلّ التّلوينات الزّاهية التّي تشرح القلب وتفتح النّفس...دون كلفة وتصنّع. إنّما هي عادة وأسلوب حياة، جرى بها لسانهم في كامل بلاد المشرق.

وكنت أتلعثم في الأوّل وأرتبك. عندما لا يفهمن كلماتي لغرابتها أولإيقاعها السّريع. فكنت أستنجد بالفصحى كحبل النجاة من عدم الفهم. وكيلا تنفيني اللّهجات وتغرّبني وتقصيني عن دائرة حواراتهن وأريحيتهن في الكلام. أنا

التّي أملك العربيّة جيّدا من الكتّاب وأحبّ هذه اللّغة بكلّ تلويناتها ولهجاتها. دخلت في هذا النّسيج اللّغوي عن وعي وطواعية وعفويّة،فاخترت دارجة مهذّبة وفصحى مبسّطة.وبدأت أحاول تنقية لهجتي من كلّ تلك الكلمات التّي طعّمت العربيّةعلى مدى الآف السنين من الأمازيغيّة والفرنسيّة والإيطاليّةوغيرها....

ومع ذلك كانت حواراتنا مسرحا لنوادر ووصلات ضحك لاختلاف اللّهجات وما تؤدي إليه من سوء فهم... وكانت نهى التّي لا تركز كثيرا معنا في الكلام. تسمعني أستعمل كثيرا كلمة"إنّجم "التّي تترّدد كثيرا في دارجتنا التونسيّة. كانت تسمعها خاصّة في دردشتنا الثنائية أنا وصباح، عندما نجلس على فنجان القهوة في ركن من الغرفة... حتّى أتتني مرّة بفنجان قهوتها، بعدما أفرغته في بطنها في رشفة واحدة.ولم يبق به غير آثار البنّ ومدّته لي متوسّلة:"وهلاَ إجا دوري.بليييز.... إقرئيلي فنجاني.... نفسيتيكتيييرتعبانهاليوم "وعندما اندهشت منها وقلت لها أنّني لا أعتقد في هذه الأمور. زعلت واعتبرت أنّني أخصّ بذلك صباح فقط:" وليش بتنجّمي دائما مع صباح فقط؟" ردّت غيرانة غاضبة.وانفرطنا من الضّحك.. قالت لها صباح:" بشرفي إنّك،هبلة، طائشةوسخيفة وإنّك موفهمانه شيولا على شوعمّ نحكي "

قالت لي سمعتك أكثر من مرّة تقولين أنّك "تنجمّين " وزادَ ضحكنا. حتّى أصبح دموعا.وأنا أشرح لها ولبقيّة البنات الموجودات بالغرفة: أنّ كلمة " **إنّجم** " تعني أستطيع و" **ما إنّجمش** " تعني لا أستطيع. يعني " فيّ وما فيّ " بلهجتكن.وأنّأصلها من اللّغة الأمازيغية مثل كلمة " إنقز "

يعني أقفز وكرومتي يعني عنقي وفرطاس يعني أصلع وسفنارية يعني جزروكرموس يعني تين.... ومفردات أخريات تسمعنها مني أحيانامثل كلمة فكرون التّي تعني سلحفاة وببوش بمعنى حلزون وممّي بمعنى رضيع ودشرة بمعنى قرية....

كلّها مفردات باقيّة من اللّغة الأمازيغيةلأجدادنا الأوائل والتّي كانت سائدة عند فتح القبائل العربيّة لشمال إفريقيا.

قالت لها صباح:" إيبه روحي تعلّمي الأمازيغية أوّلا. ثمّ تعي إحكي معنا. أنا تعلّمتها من أوّل السّنة.كيلا يفهمنا أحد أنا وصديقتي التونسيّة ". وغرقنا في الضّحك..

وكانت نهى أوّل مرّة تسمع عن اللّغة الأمازيغية، فيحياتها. فذكّرتها. أنّالأميرة علّيسة، التّي هربت من أخيها، من مدينة "صور " حطّت رحالها في أرض الأمازيغ البربر: سكان تونس الأوائل وأسّست قرطاج العظيمة، على السّاحل المتوسّطي...

قالت:"لا غير صحيح أنتم كلّكم بتحكوا فرنسي في"تونس". مستنجدة بتلك التّهمة القديمة التّي وجدتُها رائجة هنا في المشرق، لاصقةبنا.وهي أنّ شعوب المغرب كلّها على بعضها الجزائر مثل المغرب مثل تونس، يتكلّمون الفرنسيّة ولا يتقنون العربيّة.وليس لهم هويّة. في غمز لئيم لطعننا في عروبتنا.

شرحت لها أنّنا نخلط بعض الكلام صحيح. مثلما تخلطون أنتم الكلمات الإنجليزية والفارسيّة والكرديّة وغيرها مع العربيّة. ولكنّنا نتقن لغتنا أيضا ونحسن التعامل بها، خاصّة في المنابر الرسميّة. أمّا أنتم فإنّني لاحظت أنّكم تتكلّمون الدّارجه حتّى في خطبكم الرسميّة.

ثم قفلتُ الموضوع، الذّي أصبح ممجوجا لديّ قائلة:"على كلّ اللّغة الفرنسيّة. مكسب نفخر به. ونعتبره من غنائم حربنا مع فرنسا الإستعمارية.وهولا ينسينا لغتنا قط...."

كنت التونسيّة الوحيدة في السّكن الكبير، التّي تكابد غربة اللّهجات وافتتانها بها في ذات الوقت.ويبدوأنّ وجودي كفتاة مغاربية في المشرق العربي كان شيئا عجبا حينها. ولم تكن في ذلك الوقت (أواخر السبعينيات) لا فضائيات ولا وسائل اتصال سريعة تعرفنا ببعضنا. ولاشئ يقرّبنا ثقافيا واجتماعيا. كلّ ما كان هناك: " إذاعة صوت العرب من القاهرة " والأفلام المصرية...

وشاع في القسم الدّاخلي، بكثير من المبالغة.وتأثّرا بالأفكار المسبقة، عنّا في المغرب الكبير. أنّ هناك تونسيّة حكيها حلووطريف ولكن غير مفهوم. لانّهم في تونس يحكون كلّهم فرنسي ويعيشون مثل الفرنساوية.

وكانت بين الحين والآخر، تدقّ غرفتي، إحدى الطالبات،لتسألني:"أنت التونسيّة الجديدة؟أين تقع تونس؟وهل هي بعيدة؟ يقولونتونس حلوة. تونس الخضراء. هل هي خضراء فعلا. كما يقول فريد الأطرش؟ "

وبعضهنّ يقتربن منّي، ليسمعن غرابة وطرافة لهجتي ويكدن يلمسنني، ليتأكّدن أنّه لي نفس اللّحم ونفس الدّم الذي لهنّ. يهمسن لي بكلّ لطف وتودّد وفضول وعفويّة:" إحكي تونسي خلّينا نسمعك "

ومثلما كانت بعض البنات المشرقيّات يطربن لنبرتي وإيقاع لهجتي.... كنت أستعذب رحيق شهد الكلام الحلوفي المشرق.

وفي مرّة دخلت عليّ مريم اللّبنانية، الطويلة، الأنيقة، ذات الشّعر، الأسود، الطويل، الفاحم. أطلّت برأسها من الباب. وقالت أين التونسيّة؟ولم يكن غيري بالغرفة. قالت ببهجة وانشراح وكمن وقع على إكتشاف:" صحيح أنكم تعيشون كما في باريس. نحن نقول في لبنان أن تونس مثل باريس. كم أشتهي أن أزور تونس.
نظرت إليها باعتزاز. وقد بعثت في نفسي بعض انشراح ضحكت عيناي... وقلت لها ونحن نقول عنكم أيضا: أنّ لبنان هيّ باريس الشّرق. ومن يومها صارت صديقتي وأناديها "كنّتنا " لأنها تزوّجت فيما بعد تونسيّا من شباب كليّتي. من قسم التّاريخ.وراحت على تونس....

ومن نوادر اختلاف لهجاتنا أنّني عدت ذات يوم من الكلية أُسرُّ لبنات غرفتي: أنّني تعرّفت على شاب لبناني " أزعر" بيجنّن وأنّنا شربنا شايا بالنادي مع بعض.... وأسمعني كثيرا من الكلام الحلو...استغربت البنات من أنّني أجلس مع شاب أزعر بالنادي.... قالت لي نوّال: هل أنت متأكّدة أنّه أزعر؟ قلت لها نعم، طبعا مثل أغلب الشّباب اللبنانيّين.
وهنا غضبت نهى: كيف أنعت شباب لبنان بالزعران. فقالت نوّال: إذا كنتتعرفين أنّه أزعر، كيف تجلسين معه بالنادي، أمام الجميع وتشربين شايا معه؟ قلتعلى هذا الأساس لن أجلس مع أحد بالنادي. إذ أنّ أغلب شباب الكليّة "زعر". قالت نهى: أهذه هي كليّة " الآداب " عندكم؟ شبابها كلّهم زعران؟ أنا أعرف كلّ الطلبة اللبنانيّين بالآداب. قولي لي أوّلا، ماإسمه هذا الأزعر الذي تعرفت عليه؟ قلت لها " رامييوسف " بقسم اللّغات. اندهشت نهى وزاد

غضبها.قالت:"حرام عليك. بشرفي أعرفه جيّدا. وراميمستحيل يكون أزعر ". قلت لها: العتب عن النّظر إذا.وأنا لا أفهم لماذا أنت مغتاضة؟ قالت أنا مستغربة أنّك معجبة بشاب أزعر؟ قلت لها نعم يعجبني الشّاب، الأشقر الشّعر، الأخضر العينين، مثل رامي تماما ههههه... حينها انفرطنا من الضّحك.... ولوكانت صباح معنا حينها، لأفهمتهما أنّ أزعر يعني أشقر عندنا وليس شابا طائشا، غير مؤدب وعينه زائغة كما عندهم.

وكنت كلّما صار سوء فهمبيننا. أوكلّما وجدت كلمات غريبة، تتردّد في الغرفة أوفي الخارج.... أهرع إلى القاموس كحدّ فاصل بيننا وكنت أحتفظ ب "المعجم الوسيط " في غرفتي الذي اشتريته من شارع المتنبي. ليس للشّرح. فالمعنىيمكن أن يفهم من السيّاق. لكنّني كنت أخاف على لغة الكتابة عندي.وأن تختلط عليّ الأمور بين العاميّة والفصحى. وقد تملّكني فضول كبير بفك معاني الكلمات وتفسيرهابالرجوع إلى اشتقاقاتها الأولى في العربيّة أوفي لغات أخرى...وصارت تلك لعبتي وتسليتي.
فلم تكن بنات العلوم لتفدنني كثيرا. أوحتّى أغلبيّة من يتكلّمها.
وقد وجدت، أنّكلمة،أزعر، في الفصحى: تعني خفيف الشعر قليله. فربّما كان وصفنا للشعر الخفيف الأصفر أنّه أزعرأمام غزارة الشعر الاسود.

كما استغربت أنا في الأوّل كلمات مثل: "بلشنا " يعني (بدأنا) والزّلمي(الشّاب أوالرّجل) التّي يستعملها أهل الشّام

كثيرا.واصطفل (دبّر راسك أوأنتحرّ) .... واستظرفت كلمتيبَدّي وما بَدّي وفيّ وما فيّوقد جرى بهما لساني أنا أيضا لخفتهما.ودخيلكودخيل الله التّي لم أكن أسمعها إلاّ من نجاح سلام.

أمّا كلمة " تفنيص " وفنّاصة التّي تتّهم بها نهى صباح دائما. فقد حيّرتني، حتّى وجدت أنّ الكلمة جاءت من فعل " تفحّس" بمعني تكبّر وتعظّم.وصارت تنطق في لهجة الكلام تفنحص ثمّ خفّفت إلى تفنّص، ومنهاالتفنيصوفنّاصأوفنّاصةوأنّها تفيد نفس المعنى الفصيح عند أهل الشام. وبمعنى كذّاب أيضا.

وكنت أسمع كلمة شنب وأبوشنب تتردّد كثيرا في الشّرق.وتستخدم مرادفة لكلمة شارب وشوارب. بينما معناها الأصلي في العربيّةبريق الأسنان

والبندورة(الطماطم)التّي يشترك في استعمالها بلدان المشرق وراثةمن التسميّة الفرنسيّة عن الإيطالية والإسبانية pommedorالتّي تعني «التفاحة الذهبية»

وأذكر أنّني أوّل ما استعملت كلمة " شرميطة " حتّى صرخ البنات وضحكن:" هل تقصدين " شرموطة؟ (التّي تعني عاهرة في بلاد الشّرق)قلت: لا. أقصد خرقة ممزّقة فقط هيه. والكلمة فصيحة، جاءت من فعل شَرَط وشرمط الورق.

أحبّت صباح كثيرا اللّهجة التونسيّة وصارت تقلّدني، حتّى في النّبرة والإيقاع.وتبنّت الغرفة كلّها كلمة " يعيّشك " التّي تدخل القلب دون استئذان. كما كلمة " تدلّلي " العراقيّة. فتنتنا هذه الكلمة أيضا، لما فيها من سخاء ورخاء وسعة

نفس وطيبة قلب، كما عرفنا العراقيّين، في سبعينيات القرن الماضي، أصحاب قلوب كبيرة، بسطاء وطيّبون وعفويّون ولازالوا. رغم كلّ ما أصابهم من دمار الحروب...وكلمة"تكرمي "اللّبنانية...إلاّ كلمة " تقبرني " السّورية ما أحببتها. فقد كانت تقع مثل الوخز في قلبي، لبشاعة الصّورة، التّي تحيل على القبر مباشرة، بمجرد أن يحبّ أحد الآخر. بمعنى أتمنى أن أموت قبلك وتدفنني قبل أن أدفنك من فرط حبّي لك...ونهيتُ صباح كثيرا عن استعمالها. إذ أنّ الحبّ ليس جنازة. ولكنّني أحببت اللهجة السّورية عموما فقد اصطفاها لساني من بين كلّ اللهجات وصرت أرطن بها أنا أيضا على مرّ السنين. ويمكن أن يعود ذلك إلى قربي من صباح ومن السّوريين عامّة: في الكليّة وفي رابطة الطلبة السّوريين...

وصرت أرتمي تعباعلىالفراش،عندما أعود من الكليّة:"هلكاااانيي " وتُعلّق نهى:" ليك ليك كيف صارت حياةتحكي لبناني " فأقول لها ضاحكة: صرت أتعب على الطّريقة اللّبنانية.
فتقول نوّال: ونحن نقولها أيضا.وصباحكذلك. فأقول: طيّب، طيّب. ما تزعلوش. أنا هلكانه بلهجة الشّرق كلّه. ولوكنت في تونس لهلكت أكثر ولأعلنت هلاكي النّهائيبالموت مرّة واحدة. لأننا نقول " باش نموت من التّعب. أومتُّ من التّعب ".

ونضحك كثيرا عندما تطلّ علينا إحدى العراقيّات ب"اشلونش عيني؟ ":(شنيأحوالكم) فنقول مازحات:

أحمرأوأزرقأوأخضرأوأصفر حسب الحالة النفسيّة التّي نحن عليها....
وعجبنا للغة الكشكشة أيضا في خطاب المؤنث. فالعراقيّون عندما يتّجهون للمؤنث يسألون ": آش لونش بدل آش لونك؟ويشتركون فيها مع أهل الخليج في كيف حالش؟وخاصّة أهل اليمن من حضرموت وجنوب السعودية.
حيث يجعلون الكاف شين في خطاب المؤنث فقط وليس في كل الأحوال... مثلا حقك (حقش) وعندك (عندش) وهكذا...

وتزورنا العراقيّات في الغرفة، سائلات عن الأحوال والأخبار الجديدة:
" شاكوماكو؟ "فنجيبها ضاحكات بما حفضناه من العراقيّين:" كلّ شيء أكو...أوكلّ شيء ماكو..وعندما استفسرنا عنها عرفنا أنّ أصل (ماكو/أكو) من بقايا اللغة السّومريّة القديمة. عندما لايوجد شيء نقول ماكو. وأكو: عند وجود ذلك الشيء.(كون)للشيء الموجود.. و(ماكون) للشيء غير الموجود فحذفت النون باللهجة الدارجة.
ولم تكن الفضائيات موجودة.ووسائل الإعلام حينذاك منتشرة كما الآن، لتقريب اللّهجات ومعرفة الشّعوب العربيّة بعضها ببعض.... وكان الكثير من أهل المشرق لا يعرفون موقع تونس بالذات ويخلطون بينها وبين المغرب والجزائر. كما لم يكن يفرق أهل المغرب بين سوريا ولبنان والعراق تقريبا، فيسبعينيات القرن العشرين.
وحدهم المصريّون كانوا لا يغيّرون لهجتهم أبدا وليسوا في حاجة إلى ترجمان. يتكلّمون بثقة وطلاقة، لا يخشون معها

عدم الفهم. فقد مهّدت لهم الأفلام والمسلسلات، التّي دخلت كلّ البيوت العربيّة، في كلّ الأقطار. قبل أن نراهم مباشرة. بل أنّ بعض العرب كان يقلّدهم ويتكلّم مصري خالص معتقدا أنّ هذه"لغة "يفهمها الجميع.والعامّة لا يفرقون عادة بين لهجة ولغة. رغم أنّ اللهجة المصرية الحديثة، خاصّة اللّهجة القاهريّة، لم تكن الأقرب إلى الفصحى. ولم تكن لهجة فصحى صحيحة خاصّة فيما يتعلق بالنطق. فقد فقدتاللهجة المصريّة بعضاً من الأصوات العربيّة القديمة مثل "الثاء، والذال والظاء، والقاف"؛ واستبدلتهابالترتيب هكذا "التاء، والدال، والضاد، والهمزة أوالجيم.

وأنا لولا كثرةالأفلام التي شاهدتها منذ صغري ما كنت لأفهمهم بسبب ظاهرة الميل إلى الإستفال في لغة الكلام المصريّة.وهوانخفاض اللّسان إلى قاع الفم "عند النطق بحروف الكلام، ويقلّ التجويف الفمي، ولا يصعد الصّوت إلى الجزء العلوي من الفم، بل ينحدر إلى خارج الفم، ويكون صوتاً نحيلاً "؛ فتُنْطق "الصاد".. "سيناً"، "والطاء".. "تاء"، و" الضاد".. "دال"، و" الظاء".. "زاي" مخففة؛

مثال ذلك:يقولون: "سَكع" فلاناً قلماً، بدلاً من "صقع"، وأيضاًقولهم: "مَدْغ" بدلاً من "مَضْغ.

والحقيقة أنّني بدأت أطرب لهذه الحفلة الصّوتيّة التّي تؤثث سهراتنا فيهذه الغرفة / الخليّةمن النّحل... هذه الغرفة التّي عرفت فيها نكهة الإختلاف ضمن هذه الجوقة الفسيفسائية المنسجمة في النّهاية، بفعل الغرابة والتنوع والجديد وحبّ ولذّة اكتشاف الآخر المختلف. وكنت أتابع المفردات في اختلافها الذي يحيل على تنوّع شعوبها...فكلمة **هؤلاء** تصبح في شرق الأردن وبلاد الشّام " هاذُول " وفي العراق

" ذولأوذولا "في مصر " دول، دولا " وفي اليمن " هاذول " في السودان "ديل " وفي تونس " هذوما أوهاذوكم"... في نغمات مختلفة.
يهزّني طرب الشّرق كلّه.وتعظم في عيني لغتنا العربيّة التّي تهتزّ وتتمايل بأكثر من نغم. لأكثر من بلد، لكلّ هذه اللهجات المنبثقة، كينابيع منحدرة منها،المتفتقةعنها، والمطعمّة والمرّصعة بلغات الحضارات السّابقة عنها. في نوع من التمازج والتزاوج والإختلافوالتميّز... والمحمّلة بأكثر من إيقاع....وقدرتها الخارقة على استيعاب كلّ ذلك والوقوف صامدة زاخرة بعطاء لا حدود له.
العربيّة التّي عاشت الصّراع اللغويوقت الفتوحات حين دخل العرب جهات كثيرة. متعدّدة اللغات في المنطقة؛ استطاعت اللغة العربيّة الانتصار على اللغة الأم وحلّت محلها.
فطغت اللغة العربيّة على الآرامية في العراق والشام، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربرية في بلاد المغرب، وعلى الفارسيّة في بعض بقاع مملكة فارس القديمة. عند نشر العرب ثقافتهم وتوسعهم الحضاري..
وأحزن لمّا أرى لغات أخرى ليست بمستوى ثراء العربيّة تكتسح العالم مثل الإنجليزية التّي ليست بمستوى ثرائها أوالإسبانيةأوالإيطالية...

في هذا الحفل الصّوتي، الراقص، على إيقاع النغمات المختلفة...انسحر لساني وانخرط في لولب الحلبة.ليضعني في قلب الشّرق السّاحر. مأخوذة بغوايةالكلماتالرّنانة، الطربيّة، الحلوة، التي عُرف بها المشرق دون المغرب العربي الذي كانت لهجاته على اختلافها محمّله بنوع من

العنف كما اسلفت وكما نعاني نحن في تونس من العنف اللفظي وبذاءة القولللأسف. ومن الطّبع العصبي والتوتر اليومي في إيقاع الحياة وفي السّلوك وفي الخطاب. في حين مازال إيقاع الحياة في المشرق يسير بهدوء ورنّةونغمةتختلف عنّا.
وليس صدفة أن تظهر شهرزاد في الشّرق.وأن يكون هذا الشرق القديم مهد كلّ الأنبياء. حيث تجاوزت الكلمة السّحر والسلطة وبلغت المقدس:
وفي البدء كانت الكلمة...

كلّ طالبات القسم الدّاخلي الرئيسي، كنّفي أغلبهنّ من كليّات العلوم والهندسة والصيدلة..كامتياز لهنّ دون طالبات الآداب اللّاتي يسكنّ الأقسام الصّغيرةوكذلك الأمر بالنّسبة للشّباب كما أسلفت. والواضح أنّ العراق في منتصف سبعينيات القرن الماضيوحتّى بداية ثمانينياته كان يولي أهميّة كبيرة للعلوم وكانت الجامعات العراقيّة حتّى سنة1979 من أفضل جامعات المنطقة بدليل شهادة اليونسكو: (الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة) حينذاك.

كانت هناك حركة علميّة ومختبرات متطوّرة بشكل ملفت للنّظر. أشهرها مختبرات كليّة الهندسة الحديثة التّي كانت مفخرة الجميع. حتّى أنّ الجامعات العراقيّة فاقت الجامعات البريطانية التّي كانت تستخدم ثمانيّ مختبرات في السّنة، بينما تستخدم الجامعات العراقيّة ثلاثة في الأسبوع. كما كنت أسمع حينها من بنات غرفتي اللّواتي يفخرن

بالتكنولوجيا المتطوّرةالمتوفره لهنّبجامعاتهنّ. مقارنة ببلدانهنّ الأصليّة. وببعض البلدان المتقدمة أيضا.
ويرجع تطوّر الحركة العلميّة في ذلك الوقت إلى سياسةالحكومة التي كان دورها كبيرا في الدّعم المالي وفي طريقة معالجة القضيّة العلميّة وخلق الكادر العلمي، والتّي أسهمت بإيفاد عدد كبير من الإختصاصات إلى مختلف دول العالم لنيل شهادة الماجستير والدكتوراه،الذّين ساهموا بعد عودتهم في إغناء القاعدة العلمية في العراق. بما يشهد على فترة العصر الذهبي للجامعات العراقيّة التّي كان فيها تعليم حقيقي وجاد واستقرار في التربيّة والتعليم العالي، حيث كان وضع العراق جيّدا قبل أن يحلّ بها الحصار الإقتصادي.والحرب العراقيّة الإيرانيّة، وأخيرا الإحتلال الأمريكي كانت كلها عوامل لتراجع أوتدهور الحركة العلمية في العراق
فمنذ العام 2003 خرج حوالي ثمانية آلاف عالما عراقيّامن البلاد. نسبة عالية جدّا منهم من الأساتذهالمتميّزين وتمّت تصفيّة علماء بارزين جدّا حيث قتل أكثر من 500 عالم وكانت هناك عمليّات مبرمجه لتهجير العقول العراقيّة بإتجاه الغرب.

كانت دراستنا مختلفة عن بعضنا في الغرفة لكن كنّا كلّنا نشترك في القراءة ونتبادل الكتب والرّوايات... وكانت رواية "شرق المتوسّط " لعبد الرّحمان منيف أسطورة العصر في النّضال. كأكبر شاهد على تناقضات المرحلة التّي كانت في أوج المدّ القومي.وأوج الأنظمة القمعيّة في ذات الوقت... قرأناها وأعدنا قراءتها... وكانت حديث

الشّباب. كأكبر مثال على فضاعات عذاب السّجن السّياسي ومآسيه التّي تفوق كلّ احتمال...حتّى لنكاد نلامس جروح وندوب " رجب " البطل السّجين. عبرصفحاتها، التي تتفحّص وتغور عميقاً فيالآثار الجسديّة والنفسيّة التّي تركها السّجن في داخل السّجين حتّى بعد خروجه، والذّكريات المؤلمة التّي ترافقه ولا تبرح خياله ورأسه أبدا... والتّي تتركها في نفسك ولا يمكن أن تُنسى أبداحتّىلوخرجت من الكتاب...وتلاحقك أسئلتها كوابيس ليليّة:

" ترى هل أستطيع أن أصمد. فيمالواعتقلت خمس سنوات مثلما صمد "رجب "؟قبل أن يوقّع على وثيقة الإعتراف.

وهل تستطيع أمّ أن تتحمّل ما تحمّلته أمّ رجب؟

صورة الأمّ التّي يعتقل ابنها، لا تمحّي من خيالي.وتفتُّت قلبها حزنا على ولدها. يعصف بقلبي. "أمّ رجب" التّي تحتفظ في ذاكرتها بمشاهد اعتقال إبنها، أمام عينيها، ثم تدخل في اكتئاب تام: تعصّب جبينها بشريط أسود، وترفض الأكل، وتعيش مخاوفها هوسا مرضيّا، من أن يموت ابنها تحت التعذيب. **"كنت ألوم أمّي كثيراً، وأنا أراها كالنّحلة تحوم في البيت والأزقة طوال النّهار، كانت تقضي وقتها أمام باب السّجن، وعندما تريد أن تستريح تذهب لأم سجين آخر وتبدآن معاً الندب والذكرى "** كما جاء على لسان " رجب ".

وكانت الرّواية كافية لتكون شاهدة على فضاعة الأنظمة القمعيّة العربيّة وبشاعة الإستبدادوالتّعذيب في ذلك العصر. رغم أن الرّوائي عبد الرّحمان منيف، لم يحدّد

بلدا معيّنا. وإنّما أعطاها إسم عموريّة لتكون في أي مكان من الوطن العربي .... هونفسهاللّاجيء السّياسي في العراق بلد والدته.وممنوع من دخول السّعودية بلد والده. رغم أنّه مولود في الأردن. بسبب مواقفه السياسيّة.

ويوم جاءت السّت "حصّة منيف " أخت الدّكتور عبد الرّحمان منيف من السّعوديّة في زيارة إلى العراق. وهاتفت صباح. اكتشفت أنّ هناك قرابة نسب بينهما.ذلك أنّ أخت الدّكتور تكون إمرأةخالها.ومن يومها صرنا نزورهم مع بعض....

وأعجبنا ب" قصّة حبّ مجوسيّة" و" الأشجار واغتيال مرزوق " للدّكتور منيف.وروايات جبرا إبراهيم جبرا التّي كنّانتخاطفها من بعضنا ونتنافس في إكمالها والسّهر عليها...وأهمّها "السّفينة " تحفته الفنيّة الكبرى.

كانت نوّال منافستي الأولى في القراءة وبعدها صباح ونهى. كنّا نلتقي آخر النّهار. بعدما يعدن من كليّة العلوم، بمدينة الأعظمية.وحدي كانت كليّتي قريبة بنفسالمجمّع السّكني.

نصلّي ثمّ نقوم لتحضير العشاء. كلّ تأخذ مهمّة:واحدة ترتيب الغرفة والأخرى تحضير السّفرة وإثنتان في المطبخ كلّ حسب وقتها. ومواد تحضيرها وإمتحاناتها....

كان يجمع بيننا العشاء أوّلا على طاولة ملآنة بالحواضر كما يسمّيها أهل بلاد الشّام وهي أطباقُ، مقبّلات لا بدّمنها، كلّ يوم وعلى كلّمائدة: صحون الزّيتون والجبنة واللّبنة و الزعتر والخيار والطماطم والبيض المقلي أوالمسلوق،المرفوس، مع زيت الزيتون.والمتبّل:" بابا غنوج " والتبّولهوالفول المدمّس المرفوسالمفوّح بكلّ أنواع

التوابل والحمص والمكدوس (وهوالباذنجان المخلّل مع التوابل، المحشوبحبّاتالفستق) الذّي تبعثه لنا جدّة صباح منقرية "النبك "وتصنعه بيديها مع قمر الدّين(المشمش المجفف)والمربّى (معجونالمشمش). مع إبريق الشّاي الذّي لابدّ منه والذّي يفتح شهيّتنا على كلّ هذا الأكل.وفي ليالي الشّتاء نضيف شربة العدس،بأنواعهاالأصفر أوالأخضر... التّي تظلّ تغلي أمامنا على نار هادئة طوال السّهرة، علىمدفأة "علاء الدّين: "الصوبا"،الحديديّة، الطويلةالشّكل،الزيتيّة اللّون، ذات غطاء الرأس المشبّك، الّذي تتوهّج النّار تحته وتردّ أنفاسنا. " الصوبا " العراقيّة الصنع، الشهيرة، الموجودة بكلّغرفة. نتجمّع حولها، ليالي البرد الشّديد:برد العراق الّذي يصيب العظم مباشرة، في الشتاءاتالقارسة.يظلّ قدر الشربة معنا حتّى آخر الليل. لأنّه يحدث أن نعود إليه كلّما اشتدّ البرد. ليسكّن إرتجاف أوصالنا. حتّى نستطيع النوم.

برغل أمّي

يوم العطلة:الجمعة، تطبخ كلّ واحدة طبخ بلدها المشهور. طبخت لهم الكسكسي والمحمّص والروز الجربيوعلّمتهن طبخ الطواجن على أنواعها...والملوخيّة،والبريك المقلي...وكم أحببن العجّة والشكشوكة التونسيّة بل النابليّة(المحرحره) التّي أختص بها باعتبار أصولي النابليّة.

.

أمّا "برغل أمّي" فإنّي أحنّ إليه عندما تعود الشّتويّة. وأُعدّه يوم الطّقس الماطر والبرد القارس. كما كانت أمّي رحمها الله تفعل تماما أيّام الشتاء:أوّل ما يصبح النهار باردا ـ

تركّب ـ البرغل،الجاري،الحارّ. مثلها صرت أهرع إليه أيّام البرد.لأنّه وحده يدثّر الأوصال. أهرع إليه بنوع من الإحتفائيةوالحنين والتناغم بين ترانيم المطر في الخارج وغليان قدر البرغل في الدّاخل.

مثل أمّي صرت (نركّب البرغل بالقدّيد (الذي تزوّدني به رحمها الله مع بقية التوابل غير الموجودة في العراق). والدبابشوهي: الحمص والفول المصري واللّوبيا الشايحهوالفول الأخضر والجلبانهوالجزر واللّفت والبطاطا والكلافسوالمعدنوسوالبصل والكرمب وكلّ أنواع التوابل...والهريسة النابلية الفوّاحة بالتّابل والثّوم.... أضعه على نار هادئة، ليطبخ سلّه سلّه...كما كانت تطبخهجدّتي " أمّي شلبيّة "على الكانون،في بيتنا العتيق بنابل. مازلت أذكرها وأذكر قلائد الفلفل الأحمر الشّايح، تتدلّي من فوق السطوح وتغطي الجدران وسط الدار العربي في الصّيف وأطباق الطماطم الجافّة،مزدانه برذاذ الملح، تنتظر دورها للعجن والتصبير والتخزين... أيّام كانت للفصول نكهة.

وقت العشاء تفتح نهى المسجّل على أغاني صباح والعتابا والميجاناوعبد الوهاب وأمّ كلثوم... وتحتفظ بأشرطة فيروز للصّبح....

على العشاء تحتضننا الطاولة داخل الغرفة وفي ليالي الحرّ نخرج بها إلى البلكونة. وهناك يمكن أن تطول جلستنا حول العشاء إلى ساعات متأخرة من اللّيل حيث يحلوالسّهروالسّمر مع الشّاي وسيجارة... وأخبار الكليّة والشباب والعلاقات والغراميات....

وكانت صباح هيّ صديقتي المفضّلة والأقرب إلى نفسي تحبّني وتحبّ تونس...كنّا الأكثر حميميّة وثرثرة...
نوّال كانت جادّة جدّا تغادر الغرفة بعد العشاء إلى المكتبة للمراجعةعندما تبدأ نهى في إستقبال صاحباتها اللّبنانيات: بنات الجنوب.ويُفتح الحديث دائما، بأخبار الدكتور الرّافعي وأخباره معهنّواهتمامه بملّفات كليّاتهن.وأخبار الأهل والجنوب والحرب.... ولا أحد يسكتهنّ. تحمل نوّال دفاترها وتخرج في عصبيّة مكتومة إلى المكتبة.

الفصل الثالث عشر

" سنـــة أولـــى بـعــث "

عندما دخلت كليّة الآداب ومنذ الأيّام الأولى إستَلَمَنا بعض الطلبة القدامى" المتطوّعون" لمساعدة الطلبة الجدد على التعرّف بسهولة على الكليّة وأقسامها وإدارتها وحلّ مشاكلهم وقضاء شؤونهم.... وكان الشباب يتنافسون في

"خدمة " الفتيات الجميلات رغم أنّ " الواجب " يدعوهم إلى معاملة الكلّ بالمثل وتسهيل أمورهم سويّة... لكن أمورا كثيرة قد تحدث تحت ذلك الغطاء الذي يمنح قربا وشبه وصاية.وهومدخل سليم وأمين"للرفاق"لإقامةالعلاقات... تبدأ الأمور عادة بالترحاب والدعوة الى " استكانة " شاي في نادي الكلية وتقديم الخدمات... يمكن أن تتبعها عزيمة إلى رابطة الطلبة (في بغداد كل بلد له رابطة أوإتّحاد يهتمّ بشؤون طلبته. مثل رابطة الطلبة السوريين أوالطلبة اللّبنانيين أوالطلبة الأردنيينأوإتحاد طلبة تونس...وأغلبها بمنطقة الوزيريّة.)

أوعزائم على الغداء أوالعشاء في المطعم اللّبناني مثلا المعروف في الأعظمية الذي يلتقي فيه جلّ الطلبة أوحتّى مجرّد شاي في مقهى "القدس"بالوزيريّةأقربمقهى للكليّة.

كل هذه الدعوات تسبق التّعريف بحزب البعث ومبادئه القوميّة ودوره في توحيد الأمّة العربيّة.... منأجل كسب رفيق جديد غير منتم. وكانت كلمة " المنتمي " بمثابة كلمة السرّ بين البعثيّين ولوأنّالإنتماء ليس سرّا لكنّها مفتاح دخولك وقبولك وتسهيل أمورك في المجتمع بكلّأريحيّة.وغير المنتمي يمكن أن يكون محلّ شبهات وتتبّعات أيضا ومشاكل لا أوّل لها ولا آخر خاصّة إذا كان ينتمي إلى حزب آخر.

ومن بين هؤلاء الطلبة القدامى الذين تطوّعوا لخدمتنا تعرّفت إلى"فارس " زعيم المتطوّعين وأقدمهم إذ كان يعدّ رسالة ماجستير عن مسرح شكسبير منذ ثلاث سنوات وهولم يغادر السّنة الأولى ماجستيروكان ذلك بمثابة شهادة نضال وتضحيّة بالمستقبل، في سبيل رسالة أخرى أهمّوأبقى

" رسالة قوميّة خالدة " وإن كان مطمئنا في داخله،أنّ مستقبله مؤمّن ومضمون.... وكان الكلّ يقدر له هذا ويحترمه بشيء من التواطؤ بين "الرفاق." والحقيقة أنّه كان جذّابا يحظى بتقدير واحترام الكلّ. كان خدوما صادقا متعفّفا نبيلا. وشخصيّته مرحة رغم جديّته، يمنحك أريحية باذخة ولكنّه حصن حصين إذا أردت قربا حميميّا، مثل السّهل الممتنع تماما.

ولم أعرف كيف أصبح مسؤولا عنّي فجأة. يبحث عنّي كلّ يوم في الكليّة ليسألنيإن كنت أحتاج شيئا؟ويقوم بمعاملاتي في الدوائر الخارجيّة...رغم أنّه سوري وليس ابن بلدي ولكنّه ابن كليتي على أيّة حال. وصديقمقرّب من صباح عربباعتبارهما "بلديات ".

كان " فارس " طويلا أشقر بوجه بيضاوي. عيناه خضراوان بل زبرجديتان واسعتان لم أر أريح خضرة منهما في حياتي. كأنّهما العشب الرّبيعي أوانعكاس شجر الصنوبر على صفحة الماء وأنت المتعب الذي يريد الإستلقاء فيهما.تظلّلهماخصلات شعر أشقر، تنزل على جبينه دائما ولا تهفت يده عن رفعها إلى أعلى، في حركة عبثية،عنيدةلا تنتهي وهومشغول بإقناع أحد بفكرة أوالهرولةنحوحلّ مشكل أوموعد."فارس" حركة دائبة للخدمات وحلّ المشاكل. إذ كان الكلّ يلجأ إليه عندما تستعصي الأمور. بل إنّ البعض يفتعل المشاكل للتّقرب منه والحظوة بعزيمة شاي معه في النادي. كان وسيما وجذّابا ومحبوبا. حسن الخلق والخلقة وأظنّه قد جمع المجد من طرفية إذ كان مدلّل حزب البعثأيضا.

وكان أن وقعت في حبّ هذا الشّاب اليوسفي الحسن

والجمال المثالي الخلق والمقام.ولم أصدّق يوم دعاني إلى الغداء في المطعم اللّبناني بمنطقة الأعظميّة بمفردي. يوم الجمعة وكانت العزائم الفرديّة في العطل تثير كثيرا من الهمس والغمز.... لكنّني كنت سأطير من الفرح وأعلم أنّ الكثيرات سيحسدنني على هذه العزيمة.
صباح وحدها كانت تعرف أنّني مغرمة به.وكانت تشجّعني على الخروج معه وتزيّن لي علاقتي به ولم تتردّد في الهمس لي: " فارس أكيد بيحبّكوإلّا ما كان عزمك لوحدك يوم جمعة.وإحنا متعودين نطلع ثلاثتنا مع بعض دائما "
قالت لي أيضا: أنّه كثيرا ما يزورهم بكليّة العلوم ولم تلاحظ أبدا أنّ له علاقة خاصّة مع فتاة بعينها. والكلّ يعرف اهتمامه بالسيّاسة وخدمة حزب البعث... " أمّا هذه فيبدوأنّها عزيمة خاصّة جدّا. إنت غير يا " حوته " ده عازمك ع الغداء في يوم عطلة. هوأكيد اليوم حيعترفلك على شطّ الأعظميةههه"
لبست ثوبا بلون الأعشاب الرّبيعيّة، فردت شعري، مرّرت قلم شفاه قرمزيّ على شفتيّ. وضعت عطرا فرنسيّا. وبقيت أنتظر " فارس " من البلكونة ليأتي ويأخذني من القسم الداخلي. وقلبي يخفق خفقا يربكني ويزيد من توتري وأنا أحاول أن أتماسك. كانت تلك عادة الشّبّاب يمرّون بنا في أقسامنا وينتظروننا أمام البوّابة أوعند مشرفة الإستقبال تحت. كان ذلك هوالمسموح به فقط دون الصعود إلى الغرف.
جاء فارس بُعيد الموعد بقليل مما زاد في إرتباكيوتشويش فرحي. نزلت الطوابق الثلاثة ركضا حتى صرت بالخارج. تشيّعني عيون كلّ بنات غرفتي اللّاتي يتابعن المشهد من

الشرفة بشيء من التواطؤ وربّما غيرهنّ من شرفات أخرى لا أدري.
بعدما تغدينا عزمني على جولة على شاطئ الأعظمية.
جلسنا على مقعد خشبيّ مستطيل أمام النهر.
سألني إن كنت قد سمعت بالثورة في العراق قبل مجيئي.
قلت له: لا. أنا لا أعرف إلاّ ثورتين كبيرتين في التاريخ الحديث هما الثورة الفرنسية (1789) والثورة البلشفية (ثورةأكتوبر1917) في روسيا.
قال لي بتحدّ كبير: ولكنّ الثورة العراقية قائمة رغم الدّاء والأعداء.قلت له ببساطة وعفوية مخاتلة: لماذا هيّ ليست مدرجه في مادّة التاريخ بنفس حجم بقية الثورات العالميّة؟ قال نحن ندرسّها في مناهجنا كأعظم ثورة في التاريخ. أمّا أنتم فالرئيس بورقيبة لا يؤمن بالأمّة العربية بل ينادي ب"الأمّة التونسيّة "ثمّ أضاف متحمّسا: ليس هناك إلا " أمّة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة " وكأنّه وجده مدخلا مناسبا ليبدأ في سرد درسه الأوّل، حول حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي تأسس في دمشق في سوريا في العام 1947، تحت شعار أمّة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة.
وهنا تذكرت نكتة واقعيّة كنّا نتندّر بها على حذر في أوساط الطلبة: إذ سألني أحد الشباب، الذين جاؤوا معي في البعثة. وهومازال تائها يتحسّس طريقه، في التعرّف على البلد سألني: " لماذا كلّ المحلاّت عليها لافتات تحمل نفس الإسم " أمّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة " كيف سأفرق بينها؟ "
كنت أريد كسر جوّالجديّة الذي دخل فيه " فارس " وكأنّنا على مدارج الجامعة. بدا متحمسا وهويتحدّث عن أهداف

الحزب: "**وحدة حريّة إشتراكيه** "التّي تجسّد الوحدة العربيّة والتحرّر منالإستعمار والإمبريالية العالميّة وإقامة النّظام الإشتراكي العربي.
سألته: هل تقصد بالاشتراكيّة. تبنّي النظام الاقتصاديالإشتراكي السوفياتي؟
وهنا اغتاظ وقال لي: نحن لنا اشتراكيتنا الخاصّة والتّي نسمّيها الإشتراكية العلميّة وهي نابعة من خصوصيّتنا العربيّة.
قلت له: لكن ليست هناك خصوصيّة عربيّة واحدة. بل هناك خصوصيّات...حسب منوال التنميّة في كل بلد.اعتمادا على موارده الإقتصادية وأولويّاته السيّاسية والإجتماعية...

كان يحدّثني بصوت عال وكأنّه يخطبمن أعلى منبر. ممّا أحرجني أمام المارّة ونحن في نزهة ولسنا في منبر رسمي أوفي خليّة حزبيّة وكنت أنتظر منه كلاما ناعما وهمسا يتناغم مع همس الموج في نهر دجلة أمامنا وغزلا وشعرا..... لاتضخّما استعراضيا للذات البعثيّة ولغة خشبيّة ومصطلحات سياسيّة محليّة لن يفهمها أحد خارج العراق.
ثم عرفت بعد ذلك أنّهذا المشهد، عادي ومفهوم. ربّما ممجوج عند العامّة ولكنّه مطلوب من" الرّفاق " ومرغوب عند حزب البعث ومحفوظ في التقاريرالتّيسترفع للقيادة وثقيل في ميزان حسنات البعثيّين، المناضلين، المضحّين، بأوقات فراغهم وعطلهم في سبيل الوطن.
كان يحدّثني ويطنب في الحديث عن الإشتراكية في العراق.... وأنا أستعرض بذهني طوابير النّاس المزدحمين على البقالين من أجل تحصيل طبقة بيض تحوي ثلاثين

بيضة، أوعلبةحليب. خاصّة حليب الأطفال الذي شكل أزمة حقيقيّةحينها.
وجالت بذهني كلّ المواد النّاقصة التّي لم نكن نجدها في العراق. وكنّا نأتي بها من الكويت بواسطة معارفنا وأهالي صديقاتنا السّاكنات في الكويت، من السّوريات أواللّبنانيات.... مثل أنواع الجبن والحليب المجفّف والقهوة والعصائر والمارتديلا وعلب اللّحم والسّمكالمصبّر وأذكر حتّى البطاطا أيضا.وكم كنّا نحبّشوكولاطة " الكيتكات " وسجائر "الكنت"KENT
قلت له ولكن هذه الإشتراكيّة العلميّة، لم تحقق للعراقيّين ضروريات الحياة، فما بالك بأسباب الرّخاء. وكان الإستيراد ممنوعا منعا باتا للإعتماد كليّا على الصنع المحلّي والإكتفاء به مهما كان.
وكنت سمعت العراقيّين يتندّرون: أنّه إذا ذهب أحدهم لخطبة فتاة،عراقيّة. فإن والدهالا يشترط عليه سوىتأمين طبقتي بيض و(كروصجكاير) أجنبي إضافة إلى مهرها.
قال لي صحيح أنّ هناك أزمة مواد أساسيّة لأنّنا نستوردها بالعملة الصّعبة وهناك مؤامرة كبيرة، على الثورة في العراق. من طرف قوى خارجية، لكنه لم يفسر أكثر. مثل كثيرين غيره كانوا يتحدّثون بنحوعام وبما يكرّس نظريّة المؤامرة.
وكنت بدوري قد مججت هذه النظريّة التّي أصبحت مثل المشجب لتعليق كلّ المشاكل الداخليّة والخارجيّة عليه.
وبطول الوقت عرفت أن لا فارس ولا غيره من البعثيّين الطلبة، كان يعرف الحقائق أودقائق الأمور. كلّشيء كان

يتحدّث به البعثيّون من ذوي المراتب الدّنيا ينزل عليهم في هيئة تعليمات من المراتب العليا في الحزب ذاته.
وكان بعثيّوالإتحادات والنقابات، من أكثر الذّين كانت تنغلق عليهم المعلومات. لم يكن بإمكان أحد، معرفة لغز السّماح المفتوح للإستيراد الحكومي وحظره على القطاع الخاصّ، إلاّ القلّة من البعثيين ورجال الأعمال والمستقلّين من غير المنتمين إلى البعث. والذين يعرفونالكثير بحكم أعمالهم. والذّين كانت لي فرصة الإلتقاء بهم فيبيت الدكتور "نواف عدوان": مديرعام اتّحاد إذاعات الدّول العربيّة في بغداد. الذي يعجّ بنخبة المثقفين، من كلّ الأصناف...وعندصديقتيالفنّانهالممثله العراقيّة " أفراح عبّاس " اليساريّة التي فتحت لي بيتها كأخت وصديقة واعتبرتني واحدة من العائلة وقد كان بيتها حافلا بالسّهرات، التّي تظمّ فنّانين ورجال أعمال عراقيين وأجانب ومثقفين يساريّين ومستقلين ...

وقد أتيح لي أن أعرف الكثير من المعلومات بفضل فضولي الصحفي وبحكم طول المدّة. من هذه السّهرات،أوغيرها والحوارات والجلسات غيرالرسميّة، في المجتمع العراقي. التّي جعلتني أعرف تفاصيل أكثر عن أزمة الغذاء ومنع الإستيراد. وأنّ سبب كلّ هذه الأزمات يتمثل في الضّغط الخارجي، من أجل تحصيل النفط العراقي بأبخس الأسعار. فالشّركات الأجنبيّة حاولت إستغلال أيّ ثغرة. ومنها الحاجة إلى الحليب والبيض والخشب والسّجائر... بمقايضة الغذاء بالنفط وأنّ العراق الذّي لم يستجب، طالب ببيع النّفط بالعملة الصّعبة والإستيراد بالعملة ذاتها. ومن هنا عمد إلى تنويع

مصادر الغذاء. وتنويع الشّركات الموردة للبضائع.ونجح،عندما صار يستورد الحليب مثلا، من عدّة شركات. بعدما كان حكراعلى شركة " الكيكوز".فقد استورد حليب"كي ال آي ام" و"غوست" و"نيدو" وغيرها..الأمر الذي جعل شركة كيكوز تخسر. وتتوسّل لأن تعيد نشاطها مع العراق.وهي التّي منعت الحليب سابقا إلا إذا قايضوه بالنفط.
معلومات كثيرة عرفتها من غير البعثّيين، منعراقيّين كانوا أكثرانتماء إلى العراقمن البعثّيين، دون تبجح وإستعراض عضلات الوطنيّة والإنتماء. من المستقلّين الذّين أدركوا رغبتي الحقيقيّة، في المعرفة وفهم المجتمع، لا أكثر ولا أقلوتنويع مصادري كيلا أكون ضحيّة للدّعاية الحزبيّة. أمّا البعثّيين فكانوا يرتابون من الأسئلة ولا يرتاحون لكلّ من يناقشهم.

كان من بين أهمّ ما عرفته. أنّه عندما قامت الثورة في 1968 كانت هناك شركة بريطانية، نفطية، تستخرج النفط من العراق. وتعطيه الفتات وتأخذ الباقي كلّه. ولهذا قامت الثورة سنة 1973 بتأميم شركة النّفط هذه والنّفط العراقي كلّه. وطردت البريطانيّين. وأعلن التقشف الذّي كان مقرّرا أن يدوم لسنتين، لكن السّوق الغربيّة كانت بحاجة إلى النفط، ومن هنا نجح التأميم بعد تسعة أشهر فقط.وهذا النجاح يعود إلى أنّ شركات غربيّة، عرضت على العراق،إستيراد النّفط بالعملة الصّعبة.
كنت مندهشة لماَ يحدث في العراق. أحاول أن أفهم هذه " الثورة " من خلال مسافة تعطيني قدرة على التحرك بحريّة

أكثر من حريّة المنتمين ومن هنا حمل الحوار مع فارس مفارقة غريبة.
قلت له: " رغم كلّ الأزمات أنا أحيّي قرار التأميم هذا قرار صائب وجريء وتاريخي يحسب للثورة حقا. يذكرني بتأميم قناة السويس، لجمال عبد الناصر وإنّه يستحق التضحيّة."
وكأنّه إرتاح إلى هذا الرأي الذي يعتبره مديحا للثورة.
وكانت المفارقة أنّه وبعد أن قفلنا راجعين، فرحين، مسرورين. وبينما كان يوصلني بسيّارة التاكسي، إلى القسم الدّاخلي. مثلما أخذني، همس لي قبل أن تقف السيّارة، في نبرة حنوّووصاية: " الأسئلة التي سألتنيها في الكورنيش،أرجوأن لا تعيدينها أمام أيّ إنسان. أنت مازلت جديدة على البلدمهما يكن.وقد تتعرّضين إلى مضايقات ومشاكل... أيّتها التونسيّة الجريئة."إلتفت إليه وقلت له مازحة: " أليست الحريّة مبدأ من مبادئ الحزب يا رفيق؟"

الفصل الرابع عشر

"ســقراط بغـــداد"

"أنا مدني صالح: ثور... "

أعترف أنّني شردت بذهني برهة. في درس مادّة الفلسفة اليونانيّة. حين انتبهت على صوت الأستاذ يردّد ويعيد:

"أنا مدني صالح: ثور." يتقدّم ويتراجع إلى الوراء خطوتين بجسده الممتلئ القصير المكوّر. يصمت برهة، كمن اكتشف نفسه فجأة ثمّ يضيف: " **أنا مدني صالح: ثور".**ممسرحا المشهد ما بين الباب ومكتبه، أمام السبورة. وأنا أجلس في الصّف الأمامي قبالته مباشرة. رفعت نظري إليه. كأنّني أراه لأوّل مرّة. تخيّلته كائنا أسطوريا أمامي، خارجا لتوّه من الميثولوجيا الإغريقية، فوق الطبيعة وفوق البشر، نصفه حيوان ونصفه بشر. لعلّه (ماينوتور) هذا الوحش الدّموي، المخيف. الذّي كان له رأس ثور وجسد إنسان. والذي كان يقتل كل من يجرؤ على الإقتراب منه.هوالأستاذ المسالم الوديع.

برقت عيناي بالدهشة. واستغربت المشهد وعلاقته بالدّرس؟ البعض ضحك...هولم يكن يأبه بمن يضحك أوبمن يدهش. هويعطي محاضرته بأسلوبه الذي لا يشبه إلاّ " مدني صالح " ويخرج.

عندما رنّ الجرس وانتهت المحاضرة. انتصبت، واقفة، أمامه قبل أن يغادر القاعة بسرعة، كعادته. قلت له:"أستاذ، هل كنت تقصد بالثور:

" البطل الأسطوري ماينوتور الإغريقي؟

مال رأسه، المدوّر، على كتفه،برهة: ثم قال لي:

" يا ما ألهمت الميثولوجيا الإغريقية وألهبت خيال المؤلفين والشعراءوالكتاب والروائيين... الذين قاموا بإخراج روائع عن تلك الأسطورة الشيّقة.التّي أوجدت لنفسها مكانا خاصّا، بين جميع الأساطير الإغريقية. ثمّأضاف:
"إنّ"المواينوتور": هوإمتزاجللبهيمة والقوّة والنبل معا في النّفس البشريّة.تعرفين أنّ الإنسان ليس ببشر كلّه ولا بحيوان كلّه بل هومزيج بين هذا وذاك."
وتركني وذهب. شيّعته بابتسامة واعدة: "قد وصلت الرّسالة أستاذ "
ومن يومها وأنا أحفر في الميثولوجيا الإغريقية والسّومرية والبابليّه والفرعونية وأثري بها نصّي الأدبي....
جائتني زميلتي "انصارعلوة" اللّبنانية وأنا لازلت واقفة، أفكر فيما قاله لي الأستاذ وذهب.... سألتني:" ماذا يقصد الأستاذ عندما قال " أنا مدني صالح: ثور "؟ أنا لم أعد أفهمه. وذاك اليوم قال:" أنا مدني صالح خروف ".
نعم وقال:"أنا مدني صالح شجرة " أنسيت؟"أضفت لها.
ضحكت: هذا أستاذ مخبّل والله.أنا ما عدت أحضر له.
قلت لها بالعكس أنا الآنبدأتأواضب على دروسه. إنّه يصنع الدّهشة باللّغة حبيبتي وهذا كلّ ما يهمّني.ومن اليوم لن أفرط في كلمة من كلماته.إنّه يصالح الفلسفة مع الأدب " بل يصالح الفلسفة مع الحياة والخرفان والبهائم والشجر... ضحكت وقالت لي والله أنت أجنّ منه. وتركتني وذهبت. ومشروع كبير يدور في مخيّلتي....
الذين يعرفون "مدني صالح " جيّدا، يتذكّرون،أنّ كلّ كلامه عن أرائه ومواقفه، يبدأ بعبارته الشائعة، المعروفة الدّالة على ثبات مواقفه:" أنا مدني صالح..." ويزيد فيؤكد لمن لا

يعرفه:"أنا الموقف ولا يتفكّك وأنا الثابت ولا يهتزّ."به تبتدئ وتنتهي الأشياء وكلّ ما في الكون يُردّ إليه. في كلّ جملة وكلّ معنى تقفز أناه إلى الصّدارة، لتتقدّم الأشياء وتفتح لها سبيلا للعبور. ذاك مدني صالح:ثقة باذخة في النّفس. واعتداد متواضع على خصاصة ماديّة. جلبتها له مواقفه الصّلبة مع النّظام.

وكأنّه كان يضع لي السّحر في اللّغة والفكرة، عندما يكرّر هذه التّشابيه. وفتنت بمثل هذه الألفاظ المتنافرة والعلاقات السّريالية بين الجمل التّي كان يبدأ أويتخلّل بها محاضراته... وأحببت أسلوبه المتفرّد، مع اللّغة. وطرائقه الغريبة، في عرض أفكاره وموقفه الخّاص: يقدّم الجدّ بالهزل ليقبض على ألقّ الدّهشة في عيوننا. وليسيطر على إنتباهنا وليهزّ الرّكود الفكريّ في أدمغتنا..لم نفهمه في بداية الأمر. وربّما ضحكنا منه أحيانا ولم نفرّق بين مزحه وجدّه...ونراه غريب الأطوار. حتّى عرفنا طبعه وأسلوبه الفلسفي/ الأدبي السّاخر ولباقته في التّلاعب بالمفردة وتطويعها لفائدة الفكرة المدهشة.وجملته الّتي لا تدلّ إلاّ عليه. وإعتدنا توظيفه السّخرية اللاّذعه جوهرا ومحورا أساسيّا لمحاضراته الفلسفيّة وأداة لصياغة عقولنا.حيث يعتمد الغرابة في جلب إنتباهنا كمدخل رمزي تضميني لكلّ ما يريد أن يصل إليه، من حقائق ووقائع حياتيّة. وأن ينزّل الأفكار الفلسفيّة إلى صميم الواقع.كأنّه كان يرُدّ على أولائك الذين جاؤوا مكرهين إلى الفلسفة.أوالّذين يعتبرونها لغوا وتجريدا لا يمتّ إلى حياتهم العمليّة بصلة. ولا تحلّ مشاكلهم اليوميّة...

كان يريد أن يتحوّل بالفلسفة، من مجرّد كونها نظريّات وإتّجاهات إلى تنزيلها في أرض الواقع. ويجعل منها شأنا عاما، يخصّ ويهمّ العامّة قبل الخاصّة. وشأنا واقعيّا وطرحا إجتماعيّا يخدم قيم الخير والحقّ والجمال، تنير العقول وتفكّ العقال عن الفكر. تفتح النّفوس المختوم عليها وتفتح البصيرة قبل البصر لقضايا النّاس في همّهم اليومي.

كان يريد أن يقول لنا، من خلال تلك اللّغة المميّزة والمفردات المنحوتة بالمعاناة الصّادقة والملوّنة بالدّهشة. وتلك الصّور، الطريفة والإنتقادات اللاّذعة والسّخرية المريرة: أن الفلسفة، ليست كتابات وتجريدات بقدر ما هي صرخة. تملأ الزّمان، لتؤسس إرادة القول كما كان يُعرّفها.

ولازال بنا حتّى بدأنا نؤمن مثله بالفلسفة مشروعاً معرفياً وموقفا نقديا للواقعوموقعا في الحياة. لا بديل له ولا غنى عنه. فهي مصدر التّنوير وهي المنقذ للبشريّة، بقوّتها وحكمتها.

ذاك هو"مدني صالح" يحترف الغضب السّاخر والنّبرة اللّاذعة لكلّ ما حوله.

كان يحرّضنا على الثّورة، على الخطوط المستقيمة، المسطّرة سلفا والمنهجيّة الأكاديميّة. ومعاييرها الصّارمة ولا يلتزم بمنهج مُقّرر. وعلى ضرورة إعمال الذّهن في كلّ شيء. حرّر عقولنا وعلّمنا ألا نخاف من تفكيرنا ومن الأسئلة. حثّا على القيمة والمعنى والمعدن والجوهر في حياة الإنسان. وحواره المتّصل مع الكون والحياة والخير والجمال.

كان يفلسف المعاني والأشياء والحياة بجديّة المُحاور والمساجل والحكيم المتواضع لا الأستاذ المتعالي

أوالمتشدق. كانهوهوسواء في قاعة الدّرس أوحين نلقاه في أروقة وممرّات الكليّة تميل به رزمة الكتب التّي يحملها بيمناه وينساب معها جسده الرّخوالممتلئ كأنّما يحنوعليهاأويخاف أن تنفرط منه. لقيته يوما وأنا أدخل قسم الفلسفة فمازحني سائلا أين تذهبين؟ قلت له:إلى "قسم الفلسفة" أستاذ كما ترى. أكوغيرههه؟ فواصل مشاكسا: " تريدين القسم أوالفلسفة؟ " وكطالبة نجيبة ههه أجبته على الفور: " طبعا إلى القسم أستاذ. لأن الفلسفة في الأدمغة وفي كلّ مكان.أحملها في ذاتي وفي عقلي." ضحكنا بتواطئ: أن وصل الدرس ههه.

ووجدت أنا فيه ظالّتي... وصادف أسلوبه الغرائبي هوى في نفسي. ذلك الأسلوب، الذي يثير ويستفزّ ذائقتي بما يغذي مشروعي الأدبي / الفلسفي المستقبلي...وأحببت طريقته الخاصّة في تركيب الجمل. التّي تمزج بين النقد الأدبي والمضمون الفلسفي والحسّ الصّحفي الذّي يلتقط فيه بذكاء فائق، صوت الناس ويحوّله إلى كلمات نابضة، صارخة بالحياة.

كان ينير لي طريقي ويأخذ بيدي، من حيث يشعر ولا يشعر.

علّمنا ما معنى أن نعيش وأن نفكر شيئا فشيئا في غير قطيعة مع العالم وصالح بين فكرنا وبين الحياة.درّبنا على منهج السّخرية وعلّمنا أن علامات الإستفهام أهمّ من علامات التعجب.

كان يدخل علينا في قاعة الدّرس (ونحن بضع طلبة لا يتجاوز عددنا العشرين) بهيئته المتواضعة وبجسمه الممتلئ القصير المكوّروهويتمايل في مشيته مثل "مالك الحزين"

كما كنّا نسمّيه. يكتفي أحيانا بهزّ رأسه لنا فقط. يبدأ محاضرته مباشرة وكأنّه يستكمل حوارا سابقا مع الكون.... لا يسأل عن الحضور إن كان قليلا أوكثيرا. يترك الباب مشرّعا لمن أراد أن يخرج أوأن يدخل. ولا يكترث إن استمع له طلبته بجديّة أو انشغلوا عنه. يؤمن بحريّة الطالب في مغادرة القاعة،إن لم يعجبه الدّرس. ولم ير فيه فائدة. كلّ ما يهمّه:أن ينسل من يريد أن يخرج بدون هرج وحتّى بدون إستئذان. حتّى لا يقطع عليه أفكاره التّي لا يعيدها مرتين، كمياه النهر عند الإغريق... (لأنك لا تنزل النهر مرّتين، فإن مياها جديدة تتغيّر أبدا). وكيلا يعترض المحاضرة لغط.

ومرّة دخل طالب متأخّرا وقال السّلام عليكم فردّ عليه أكثر من صوت " وعليكم السّلام..." توقف "مدني صالح" برهة...مدّ يده في وجوهنا وتحرّكت أصابعه، بعلامة الإستفهام ثم قال معاتبا عقولنا:" كيف لم تستنتجوا أن السّلام ممنوع في الصّف؟ وضحك البعض:" أوّل مرّة نعرف أن السّلام ممنوع في الصف "فأردف:السّلام مستحّب وطلب العلم فريضة ولا يجوز أن نؤثر على الفريضة بالمستحب. هل رأيتم مصلّين يتبادلون السّلام، فيما بينهم وهم في حالة ركوع وسجود وخشوع؟

والحقيقة أنّه لم يكن يخرج منّا أحد في حصّته. حتّى "أنصار " أذعنت مقتنعة. بل كنّا كلّنا نتجمّع في الصفوف الأماميّة للإستفادة منه لأنّه يتكلّم بصوت خفيض يكاد لا يسمع على بعد مترين من آخر القاعة. فكان يقول لنا:" لا تسلّموا لي رؤوسكم كليّة فلست حلاّقا". أنا صانع عقول وصايغ ذهب. أنا فلاّح أغرس قيم العقل وأقتلع البذرة المتعفنة أوالفاسدة "

بل كان هناك من يأتون من أقسام أخرى خاصّة من قسم الإعلام والآداب ليحضروا دروسه... هروبا من محاضرات هزيلة وثرثرة تافهة. وكثيرا ما يزوره طلابه القدامى، من أجيال سابقة. يحدثوننا عنه عن **"سقراط بغداد"** كما كانوا يسمّونه. يجدون فيه مرجعيّة علميّة وأستاذا مميّزا.وكان ذلك يزيدنا مفخرة به ولم يكن يتجرأ أحد منّا على الغياب عن محاضرات الفلسفة.

كانت سترة القطيفة الخضراء والسّروال البنيّ اللون والقميص بدون ربطة العنق، علامة مميّزة "لمدني صالح" لعدم اهتمامه بالمظهر ولشظف عيشه. كنّا كلّنا على علم بمشكلته مع النظام الذي يضيّق عليه.كونه ليس بعثيّا ولا يبشّر بهذا الفكر وكان يُقطَع من مرتبه حتى لا يبقى له إلاّ الكفاف في عقاب لأتفه الأسباب.

وكثيرا ماكان يعزمنا أونعزمه على (كبايّة شاي) في مقهى " القدس " المجاور لكليّتنا بالوزيريّة... ونحن نعرف أنّتقارير تكتب فينا لمجرد مجالسته خارج الكليّة. وبسبب ذلك بقي رئيس "الإتّحاد الوطني لطلبة العراق" في الكليّة المعروف ب "خطّه الحلو"مدّة يتودّد إليّ. وقد عزمني أكثر من مرّة على إستكانشاي (كأس شاي) بنادي الكليّة.كان اللّقاء يبدأ دائما بمقدمة غزليّة، كمطلع القصيد الجاهلي تماما همه. حتّى يتخلّص إلى غرضه الأساسي:وهوتحذيريمن فكرمدني صالح المشوّش، غير المنضبطبمنهج أكاديمي. وعندما أعياه إقناعي قال لي مرّة وبدون مقدّمات:تعرفين أنّ مدني صالح متّهم بتخريب عقول الشباب؟ فضحكت بل قهقهت حتّى التفت إلينا من بالمقهى وإنحرج جليسي / الرئيس.فقلتله:" نعم، تماما مثل سقراط. إنها نعمة والله

وليست تهمة أن يرتفع الأستاذ إلى مستوى سقراط:أقصى ما يمكن أن يحلم به فيلسوف في عصرنا. ولكن كما ترى ها نحن ندرس سقراط إلى يومنا هذا وهويُدرّس في أكبر جامعات العالم، رغم أنّه حكم عليه بالإعدام وأتّهم بتخريب عقول الشباب. ولكن أتمنّى ألا يخضع أستاذنا "مدني صالح" إلى قانون السّلطة الجائر. ويتجرّع السّم مثل سقراط الذّي خسر حياته وخسرته الإنسانية إحتراما لقانون أثينا السّخيف.ثمّ إذا كنّا نحن أنفسنا، قابلين عن طواعيّة تخريب عقولنا. فأين المشكل؟ ". وخشي عليّ بعض أصدقائي التوانسة من هذه السخرية الآّذعة التي وجهتها له ومن انتقامه مني ...

لكنه من يومها لم يعد إليّ وأراحني من عزائمه. وصار عندما يلتقيني في الكليّة يتفادى النظر إليّ. وكنّا نعرف قطيعة مدني صالح مع النّظام الحاكم. كما أسلفت. كونه ليس طبلا أوبوق دعاية له. من خلال روحه الفكهة ومُزحه الفلسفية وسخريّته المريرة التّي نستشف منها معاناته مع النظام ومع الحياة.

في مقهى " القدس " كان يحدّثنا عن مدينته "هيت" مسقط رأسه. وكانيسمّيها (المدينة الفاضلة)

هذه المدينة الوديعة الغافية على الضّفة الغربيّة من أعالي الفرات، جهة الرمادي والتي تبعد عن بغداد 180 كم. تعتبر من مدن المناذره سُكانها من عشائر العرب الأقحاح كالغساسنة والمناذرهوالمحامدةوالجواعنه والعبيد والعبدلة والسعدي والقيسيين والدواسر وغيرهم...، تعد من أهم مدن التاريخ الإنساني القديم.

يقُول لنا عنْها بفخر: قبْل أربعة آلافُ سنة كانت (هيت) ولم تزل، رغم ما مرّعليها...فلطالما طمع بها الغزاة الكثيرون بسبب موقعها غرب نهر الفرات: من الأكديين والسومريّين والبابليّين والأشوريين والسريانيين والرومان / الساسانيون حتى وصول العرب سنة 636 وعانتماعانت من الإحتلالات والحصارات والأوبئة والمحن... ولكنّها لاتلبث أن تنهض كالعنقاء من رمادها، وتغتسل في نهر فراتها العذب، وترتدي كالعادة طيبتها وثقافتها ولونها الأصيل.
ولذا عدَها الطبري "مدينة".فهي مدينة قبل لندن وباريس وبغداد وفيها صنع صنم (هبل) وكذلك (باب عشتار) ومنها نقل القير والنورة إلى حضارة (بابل)، ومرّ فيها النبيّان إبراهيم وأيوب ومرّ أيضا ـالإمام علي بن أبي طالب. ثمّ يردّد ما قاله شاعر من أبنائها:

هاء ويا تائها قد صار لي نغما
في قلوبنا هيتنا كاف لنا نسبا

وقال بفخر "هيت" تكره الدكتاتوريات والمفخخات فهي مدينة الثقافة والماء والنواعير والشّعر والفكر والنوروهي مُحبّة للبساتين والزيتون. تكثر فيها بساتين النخيل والفاكهة وهي ذات خيرات واسعة..."حتّى اشتهينا أن نزورها...
وقد كرّس جزء هامّا من نتاجاته وكتاباته للنص المكاني لمدينته "هيت" الغافية على نهر الفرات التّي كان يعدّها عاملا محفّزا للإبداع. رغم تمرّده على قيم الحياة البدائية فيها منذ طفولته.

قلت ليتنا نذهب إليها في رحلة.من فرط ما أغوانا حديثه عنها.
قال:
لا تزال المنابع المائية الحارة أوالعيون السّاخنة من أبرز معالم مدينة "هيت" التّي لا تستهوي السّواح في أصواتها وحرارتها فقط. بل حتّى علماء الآثار والتاريخ والجيولوجيا... ومن بين عجائبها: عين تقع في المركز لا يزيد قطرها على بضعة أمتار تسيل منها مادة القير بصورة سائلة وفي بعض الأحيان تبدومثل نافورة ماء وهي تطلق أصواتا تشبه فحيح الأفاعى. وأحيانا ترتفع منها ألسنة من اللّهب عالياً وهوما يعرف بالنار الخالده. ثم التفت إليّ أنا بالذات وقال:" أكورُقم طينيّةونصوص أشورية تذكر أن الجنود في عهد الملك نوكولتيننورتا الأول (890-884 ق. م) كانوا يسمعون أصوات الآلهة المنبعثة من مواضع وقباب سميت (اشمينا) وهي إشارة إلى خروج الغاز الطبيعي المصاحب لمنابع القيرالقريبة. وهذا يمكن أن يكون موضوع بحث بين الأسطوري/ التخيّيلي والجيولوجي."

ومرّة أراد طالب من أبناء بلده "هيت"أن يتقرّب منه فسلّم عليه وقال له:"أهلابالهيتي" فغضب أشدّ الغضب. ودخل علينا وهوفي أشدّ الحنق وقال: "أنا لست هيتي" وصمت. فاستغربنا وذُهلنا منه وقد كان البارحة يحدثنا عن مدينته "هيت" بكلّ فخر واعتزاز. وصمتنا بدورنا حتّى أضاف بعد برهة:"
أنا لست هيتي ولا بغدادي،لا سنّي ولا شيعي، لست عربي ولا كردي لا أنتمي إلى أي قبيلة ولا لأي عائلة ولا إلى أي

منطقة في العراق لست شرقيا ولا غربيّا لا قوميّا ولا شيوعيّا لا ملحدا ولا دينيّا..أنا الإنسان: إنسانا مفكراً، ملتزماً بالدّفاع عن كرامة الإنسان وحريّته فقط.

كان يستوقفنا في الممرّات ويحاورنا فأتخيّل نفسي في شوارع أثينا مع سقراط وأحيانا يرمي السؤال علينا ويمرّ... لأنه يعرف أنّنا نعلم أنّ السؤال في الفلسفة أهمّ من الجواب.
كانت مقالاته تملأ الدّنيا وتشغل النّاس رغم كلّ التضييق الذي يسلّط عليه.
ولم نكن نكتفي بمحاضراته. بل كنّا نتابع كتاباته اللّاذعه وخاصّة تلك المقالات النقديّة في صحيفة الجمهوريّة. وقد كان من أبرز كُتّاب صفحاتها الأدبية في الثمانينات. بينما كانت بقيّة الصّحف تخشى نشر مقالاته، بسبب جرأتها النادرة. وكان يشترط عدم تعرض مقالاته إلى مقص الرقيب والحذف،إذ كان يعتبر نفسه مصدرإشعاع للخير، يمدّه بالشّجاعة وعدم الخوف من أيّة سلطة سياسيّة حينذاك.
تعلّمنا منه الثقة والتواضع والإعتداد بالنفس في ذات الوقت. وأغرمنا بنتاجاته الإبداعية، في حقليْ الفلسفة والنقد الشّعري التّي أثارت جدلا كبيرا في الأوساط الأدبيّة...خاصّة تلك التّي كتبها بعنوان (هذا هوالسيّاب) و(هذا هوالبياتي)، التّي نشرها متسلسلة في مجلة آفاق عربيّة عندما كان يشرف على تحريرها الشاعر شفيق الكمالي.قبل أن تصدر في كتابين.فضلاعن مؤلفاته التّي اهتّمت بالفلسفة الإسلامية والوجودية القديمة والحديثة كما أصدر كتبا فلسفية مثل "الوجود" عام 1955 و"أشكال وألوان" عام 1956

وبقينا نتابع مقالاته في الصّحف اليوميّة..ذلك أنّ من يقرأ مدني صالح يصاب بالإدمان على كتاباته... حتّى بعدما تخرّجنا وعدنا إلى تونس. كنّا نتبادل كتبه الجديدة.أنا وكمال مسعود وعبد العزيز الهمامي وبعض زملاء الدراسة. والى الان مازلت اعثر على اخباره في الفضاء الازرق من طلبته وزملائهوتبادلطرائفهوحكاياتهودروسه ايضا و غرابة مواقفه التي يعرفها كل من درّسه ...

وأحببنا مقاماته "مقامات مدني صالح" في النقد والفلسفة ومعالجة الأمور الثقافية. التّي كتبها عام 1989، إضافة إلى كتب مسرحيّة أخرى...

وكنت أقبل بنهم كبيرعلىكتاباته الفلسفيّة العميقة. عن ابن طفيل والغزالي وابن رشد وغيرهم... وأذهب شخصيّا إلى المركز الثقافي العراقي بتونس كلّأسبوع لأعود مُحمّلة برزمة الجرائد.أصطفي منها مقالات أستاذنا.أقصّها وأجعلها في ألبوم خاص عليه إسمه. أضيفه إلى كتبه التّي عدت بها من العراق أوالتّيجلبها لي بعض الأصدقاء...حتّى سمعنا بأمر تلك المقالة الأكثر جرأة من بين كلّ مقالاته التّي كتبهاونشرها في ذروة الحصار والتجويع.الذي كان مفروضاً على الشعب العراقي، خلال التسعينيات، وكانت بعنوان " **حقوق الحمير**" وهي مقالة تهكميّة، بالغة القسوة، يطالب فيها الدولة بضمان حقوق الحمير (وليس حقوق الإنسان) للشّعب، ومن بين حقوق الحمير: توفير المأكل والمشرب والمأوى وعدم تحميل الحمار فوق طاقته وعدم ضربه وإيذائه.

ثمّ انقطعت بعدها، مقالاته تماما.حتّى علمنا أن قد صدرت الأوامر السّلطويّة، من بعد نشر تلك المقالة، بحرمانه من النّشر في الصحف العراقية كافة.
وكنّا نحن طلبته نتتبّع أخباره. فهولم يغادر العراق، للعمل أوالهجرة، رغم قسوة الظروف، وصعوبة العيش، واضطر في أواخر أيّام شيخوخته، إلى بيع بيته وأثاثه وسيّارته وكتبه، لـتوفير لقمة العيش لعائلته،لكي يتجنب مذلّة السؤال أوالوقوف مستجدياً على عتبات الحكام، فظلّ شامخاً زاهداً طاهراًحتى توفي رحمه الله سنة 2007.

الفصل الخامس عشر

الدكتور ياسين خليل

خلافا للدكتور "مدني صالح" كان يدخل علينا الدكتور"ياسين خليل "بقامته الطويلة وهيئتهالجليلةوشياكته ووسامته: أبيض الوجه متورّده، بعينيه الزرقاوين، الفاتحتين

وأناقته الأرستقراطية وهيبته العلميّة... لا أذكرأنّني تخلّفت عن حصّة من حصصه ولوكانت السّاعة الثامنة صباحا. علما أنّني لا أدخل الكليّة إلاّ بعد العاشرة صباحا. وكانت محاضرات الدكتور ياسين إستثناء لأنها صعبة أيضا بحيث لا يمكن استنساخها أوأخذهاعن كراس طالب آخر.

علم آخر من أعلام الفلسفة حظينا به في دراستنا في بغداد هوالدكتور" ياسين خليل" الذّي كان يدرّسنا المنطق الرّياضي وفلسفة العلوم لعدّة سنوات. وهورئيس القسم أيضا. نفخر بكونه درس في ألمانيا وتخرج منها. منبع الفلسفة المعاصرة.كنّا نطمئن إليه وقد خلّصنا من الترجمات التّي لم نكن نثق بها.والتّي لم توفق كثيرا في نقل الفلسفة الألمانية بدقّة وأمانة دون الوقوع في سوء الفهم وقد نبّهنا أساتذتنا كثيرا إلى ذلك خاصّة الترجمات الانجليزية كون الفلسفة الألمانية صعبة والأفضل دراستها في لغتها.

وقد استفدنا كثيرا من مؤلفاته وأبحاثه وكتبه حول آخر التطورات الحديثة في علم المنطق والفلسفة المعاصرة. وكنّا نعلم أنّه أضاف إلى المنطقالرّياضي،"لبرتراند رسل"وكنّا نفخر بذلك كون أستاذنا ليس مجرد مدرّس فلسفة وإنّما هوفيلسوف ينتمي الى " جماعة فيينّا "

« Cercle de Vienne «

كنّا محظوظين بالدكتور ياسين. ونقدّره حقّ قدره ونعرف أنّه أنهى دراساته العلياوحصل على الدكتوراه في الفلسفةعن أطروحته حول فلسفة كارناب في جامعة "مونستير" كأوّل

علاّمة عربي في منطق الرياضيات وفي الفلسفة الوضعيّة المنطقيّة الجديدة، لا سيّما الألمانية. كما اشتهر بدراساته العميقة في موضوع نظم سيميوطيقا اللغة أوعلم -الدلالة. كما كتب دراسات لامعة في التاريخ المعرفي للعلوم عند العرب وعن الإنجازات التّي حقّقها الفلاسفة العرب في مجال النظريّات العلميّة، وكشف الإضافات الأصيلة التّي أسهموا بها.

وكانيشدّد على ضرورة التميّيز بين الثقافة العربية والحضارة العربية. فالثانية لديه أعمّ وأشمل، بينما تقتصر الأولى على الجانب الفكري والعلمي والإنساني، الذّي يحدّده حصرا بالعلوم الرياضية والطبيعية، والعلوم المعدنيّة الجيولوجيّة، والعلوم النباتيّة والحيوانيّة، والعلوم الهندسيّة والمعماريّة، والعلوم الطبيّة.

أمّا فضله ومزيّته على قسم الفلسفة التّي لا تنسى والتي ظلّت علامة مميّزة للقسم تحسبله. فهي تخليص القسم منالتباس كبير. عندما رفض تحويل قسم الفلسفة إلى قسم رديف لقسم الدين أوالشريعة، عندما مسك رئاسة القسم.
وكان له نقد حادّ في هذا المضمار، فمثلا يتندر مازحا، وفي مزاحه نقد وتقويم:"ما علاقة الروندي بجوتلوبفريجة؟ وهل يتقن الروندي الألمانية ليقرأ كتابا في الفلسفة الالمانية؟ وما علاقة " الثريد " بالمنهج في الفلسفة؟

كما أُعتبر فكره منعطفاً ريادياً، لرفع العقل العربي إلى مستوى علمي،نقدي، جديد لمجمل المفاهيم والأفكار التي تخلّلت العلم الحديث والمعاصر.
وأبقى مدينة لكلّ واحد من هؤلاء الفلاسفة، الذّين تعلّمت عليهم بأن الاحتكام للعقل يجنبنا الوقوع في مغبة (القبليات). وأنّ إعمال الفكر بداية طريق الحكمة. وأنّ الشّك المنظّم أوّل درجات البحث عن الحقيقة.وألا أخاف من عقلي و من الأسئلة. بهذه المخرجات المدرسيّة والوصايا المنهجيّة، تتبدّى القيمة التنويريّة لفلاسفة بغداد، ولكلّ منهم مقام سام في وجداني وفي عقلي.
إلى جانب هذين العلمين: مدني صالح والدكتور ياسين خليل أذكر الدكتور صالح الشمّاع، الذي كان يدرّسنا علم نفس، الدكتور جعفر آل ياسين، الدكتور حازم مشتاق،والدكتور عبد الأمير الأعسموالدكتور عرفان عبد الحميد الذي كان يعطينا فلسفة اسلامية والدكتورة فاتن التي كانت تدرّسنا مادّة سيمينيربالأنجليزيةوالدكتوره أميمةوالدكتورة سهيلة التي تدرّسنامادّة الأخلاق. كانت نصف المواد تقريبا نأخذها بالعربيّةونصفها بالانجليزيّة. والدكتور ناجي التكريتي الذي كان يعطينا مادة الفلسةاليونانيةومادةفلاسفةالطبيعةقبلسقراط.وكان غزير الانتاج والاصدارات الفلسفية. اذكر انه كل عطلة كان يبعث مع زميلتنا أنصار اللبنانية الخدومة والطيبة جدا، يودعها كل مرّة مخطوطا من مخطوطاته لتحملها معها الى دار نشر معينة، يسميها لها لتطبعها له بلبنان.

الفصل السادس عشر

" ...حبّ أفلاطون للحقيقة“

كنّا حوالي عشرين طالبا وطالبة بالصّف(كلمة صف = قسم عندنا في تونس) الأوّل فلسفه،فيكلية الآداب في بغداد. وكنّا ثمانية تونسيّين: أنا البنت الوحيدة بينهم وكانت معنا لبنانية واحده هي انصارعلوة.بقية طلبة الصّف كانوا عراقيين: بينهم سوسن وبثينة المضيفة بالطيران العراقي ، تأتي وقت الإمتحانات فقط. ورحاب،الثخينة،البسيطة،الطيّبة،الصّامته،المحايده،التّيتبستم اكثر ممّا تتكلّم.وأذكر فؤاد رشيد،الشّاب الأشقر، النحيف،الخفيف الدّم. كان دائما يوزع ملحاونوادر. وكان ثمّة ثلاثة أوأربعة طلاب أكراد من بين العراقيين. ولقد اتّسم هؤلاء بأنّهم: حذرون جدّا في الكلام وفي علاقتهم بنا. لكنّهم كانوا في الوقت ذاته لطفاء ومهذبين،صامتيندائما،غامضين. لا يفصحون عن شيء. كانوا يكظمون غيضا قديما. وكنت أشعر أنّ قلوبهم مكدّرة ونفوسهم قلقة. لا يتمّتعون بنفس الأريحية كباقي الطلبة.كنتأشعر بغربتهم وكأنّهم دخلاء أوأجراء لبيت مالك متسلّط. شبه حرب باردة تدور على مدار السّنة بينهم وبين الطلبة العراقيين. لكن أذكر أنّهم علقوا في مرّات عديدة مع البعثيّين من الطلبة الإستفزازيين. كانوا حسّاسين جدّا

لمعاملة بعض الأساتذهلهم.وكثيرا ما يدخلون معهم في نقاشات حادّة بخلفيات ملّغمة تنتهي بهم إلى مغادرة الصّفساعة الدرس. قليلي الإختلاط بالطلبة العرب.
في الإستراحات يتّجهون مباشرة إلى أكراد آخرين زملاء لهم ويقفون في أركان قصيّة بعيدا عن الحركة. وفي الإستراحة القصيرة بين كلّ حصّة وحصّة، يدخّنون السّجائر في ركن،فيطرف رواق القسم، جنب الشّباك القريب من قاعتنا وعيونهم تدور حول المكان. يتكلّمون بصوت منخفض وبجديّة تامّة.ولمّا يحين الوقت يدوسون أعقاب سجائرهم تحت أحذيتهم بغيظ.ويعودون إلى مقاعدهم وكأنّهم قد انتهوا من مهمّة غامضة أوهكذا يبدون لي.
بينهم شاب وسيم إسمه " سرحد قادر"، كان متين البنيّة، طويلا واثق الخطوة، يمشي ملكا، صلب العود، أسمر، صامت، غامض.وله وعي حادّ وأسئلة مربكة، كثير التصادم مع الاساتذة: فجأة يدخل في عراك مع أحد المدرسين ...فيهدئه زملاؤه المحيطون به. يعدّلون طاقة فوران دمه الحامي وكأنّهم وجدوا من أجل هذه المهمّة فقط.
لكن الكلّ كان يحترمه ويقدّره وربّما يحذره وكنت أشعر،أنّه ينام على حافة فوهة بركان، قد تفور ناره في أيّة لحظة.
كان بيننا إعجاب غريب وحوار صامت وغرام غامض. لكن عيناه كانتا تفيضان بحكي يتعطّل به لسانه. كان يجلس على يميني دائما. لكن في الكرسيّ الخلفيّ، بحيث كانت تصلني أنفاسه و لو عن بعدوأحسّ بنظراته تخترقني وأسمع ما لم يفصح لي عنه أبدا.
وفي مرّة، دعاني في الإستراحة الصباحيّة أن نتمشى قليلا في ممرّات الكليّة الخلفية. لمّا ابتعدنا قليلا سألني:إن كنت

مرتاحة في العراق؟وقبل أن يسمع جوابي، قال لي: مستحيل الواحد يكون مرتاح في العراق إن لم يكن بعثيّا.ثمّ سألني مباشرة عن رأيى في حزب البعث وفي معاملة العراقيّين للأكراد وتمييّزهم العنصري وإحتقارهم للأقليات القوميّة وعدم الإعتراف بحقوقهم... فأيقنت أنّه مبعوث في مهمّة سياسيّة وأنّني أمام إختبار بوليسي، ساذج جدّا وخال من كلّلباقة ولياقة الحديث مع إمرأة. (وما أطيحني بهم ههه) قلت له: لكنّكم تتمتعون بإستقلاليتكم بموجب إتفاقية الحكم الذاتي التي وقّعتها الحكومة العراقية، مع زعيمكم مصطفى البارازاني سنة 1970 في 11 مارس بالضبط. حسبما أعلم.

ذكّرته أيضا بما قرأتفي بعض الصّحف: أنّ القضيّة الكرديّة بقيت عالقة بسبب إحصائيات مدينة كركوك. التّي لم يحسم فيها بعد والتّي يدّعي الأكراد أنّهمالنسبة الأكبر فيها والتّي تحتوي على قوميّات مختلفة.

قال لي: هذه الإتفاقية بالذّات تنصّ على إعتراف الحكومة العراقية بالحقوق القومية للشعب الكردي مع تقديم ضمانات لنا بالمشاركة في الحكومة العراقية واستعمال اللّغة الكرديّة في المؤسسات التعليميّة.

ولكن واقع الحال أنّ الحكومة العراقية لم تفِ بالتزاماتها والدليل على ذلك أننا لا ندرس اللغة الكرديّة في قسم الفلسفة. ذهلت أنا:" لكن كيف سنفهم نحن اللغة الكردية؟ أتريد أن تضيف الكردية إلى اللغتين العربية والإنجليزية اللتين ندرس بهما؟ الأَولى أن نتعلم اللّغة اليونانية موطن الفلسفة الأصلي أوالألمانية مصدر الفلسفة الحديثة، لنفهمها أكثر مباشرة من ينابيعها. لم يقتنع الكردي الأسمر بردي

عليه.وقال: لا. نحن نطالب في مرحلة أولى، بإدراجها كلغة، مثلما نأخذ مادّة اللّغة العربية تماما.(وكنّا نأخذ العربيّة كلغة فعلا إلى جانب دراسة الفلسفة بالعربيّة). لماذا يكون للعرب إدراج لغتهم.ونحرم نحن من لغتنالأنّنا أقليّات قوميّة؟

أدركت بحدسي الأنثوي: أنّ " مبعوث " الزّملاء الأكراد قد أحسّ بفشله في إقناعي بالتعاطف مع قضيتهم.وأنّه سيعود إلى زملائه خائبا.وأنّ تقريره لأولئك الزملاء الذين انتخبوه للمهمّة مستغلين الإعجاب الذي بيننا، سيكون سلبيّا. فقلت له مواسية: عموما أنا مع حقّ كلّ الأقليّات في الدّفاع عن حقوقها المشروعة.وكان ذلك رأيى فعلا... فجأة رأيت فؤاد رشيد،ابن صفّي، زميلنا العراقي، الطريفجدا،أمامي.وعلى وجهه إبتسامةوعلى لسانه مزحة كعادته.فؤادكان يمازحني دائما، يقول لي:"أحبّك حبّ أفلاطون للحقيقة." وهوالوحيد الذي لم يسيّس علاقته بي بل ربمّا فلسفها ههه. وكان ذلك يعطيني أريحيّة لا مثيل لها، ممّا جعلني أعتذر من الزميل الكردي، للإلتحاقبه.قال ليفؤاد:" هل سمعت آخر نكتة؟ قلت: " لا، أنت وكالة أنباء النكات والنوادر الحديثة، هات." قال: الطلبة الأكراد قدّموا مطلبا لرئيس قسم الفلسفة للمطالبة بإدراج اللغة الكردية في قسم الفلسفة.

أمّا فيما يتعلق بالطلبه التونسيين بقسم الفلسفة فقد أخبرتني إحدى البنات العراقياتبالقسم الدّاخلي صدفة ليلة دخولي الكليّة أوّل مرّة أنّها تعرف طالبا تونسيا يسمّى " فيصل مرحبا ": "خوش ولد طيّب وحبّاب " ونصحتني بالتعرف اليه.

إحتفظتبالإسم في ذهني.وقلت معرفة ستخفف غربتي غدا بالكليّة وسيستقبلني بحفاوة كوافدة جديدة على قسم الفلسفة؟ دخلت الكليّة وإتّجهت مباشرة إلى قسم الفلسفة أسأل عن " فيصل مرحبا " وأبحث عنه في كلّ مكان... فلم أجده ولكن وجدت بقيّة الشباب التونسيّين. سلّموا عليّ ببرود وسمعتهم يتهامسون أنّني التونسية الجديدة التي جاءت لبغداد عن طريق السّفارة ووجدتهم متحفظين في الإقتراب منّي. اختفى يومها " فيصل مرحبا " طول الوقت ولم نر له أثرا. لكن في الغد جاءني صديقه كمال بن مسعود. جمّع كلّ شجاعته بين يديه ليسألني إن كنت أعرف فيصل من تونس؟ بنوع من الخبث والخوف والمخاتلة والمراوغة. يتحايل عليّ ليعرف الحقيقة. يريد أن يفهم إن كان صديقه مطلوبا من تونس ومن الأمن التونسي بالذات أوأنّ السفارة هي التّي تبحث عنه؟

لم أفهم في الأوّل ما يجري حولي... ولكنّني عرفت فيما بعد أنّ جلّ الطلبة التوانسه الوافدين قبلي وهم بالآلاف منتشرين في كلّ الكليّات والمعاهد أيضا. إنّما يأتون للعراق فرارا من نظام بورقيبة كما يدّعون ولكنّهم في الحقيقة شرائح منكوبة في المجتمع لفظتهم المعاهد والكليّات وطردتهم لعدم كفاءتهم ومنهم المشرّدين والبطّالين... واستقطبهم العراق ضمن سياسته القوميّة،مستغلا ظروفهم هذه لضمّهم إلى قوافل الوافدين والمهجّرين والمطرودين من بلدانهم.وكان لا بدّ لهم من سبّ أنظمتهم ولعنها وتمثيل دور المعارض ليحتفي بهم نظام حزب البعث ويضمّهم إلى حضن القومية العربيّة الواسع والمضياف، السّخي والكريم ويفتح لهم أبواب الكليّات والمعاهد التي أغلقت في وجوههم في بلدانهم. ويزيد

فيتكرّم ببعض المنح حسب درجة الولاء والإنتماء إلى حزب البعث طبعا.وربّما استخدمهم لمهام أخرى في بلدانهم أيضا. وبما أنّني الوحيدة في الكليّة التي جئت في بعثة رسميّة فقد تخيّل بعض الممسوسين بفوبيا الإستخبارات الأمنية أنّني في مهمّة رسميّة للبحث عنهم أوكشفهمأو التجسس عليهم ..؟

لمّا فهمت ذلك تركتهم تماما.ولم أعد أسال عن أحد منهم.ولا أتحدث ولا أقف حتّى مجرد الوقوف معهم. ولا أعيرهم أيّ اهتمام ولا أحفل بهم.وكأنّني من بلد آخر. حتّى إقتنعوا بي أخيرا بعد حوالي سنة تقريبا. بعدها جاؤوني معتذرين عن سوء ظنّهم بي وقد عفا الله عمّا سلف.وصرنا بعدها أصدقاء وشلّة واحدة.

والغريب انّني كل عطلة لما اعود في الصّيف الى تونس تناديني وزارة الداخلية وتحقق معي وتستجوبنيواخضع الى سين و جيم لكل ما يتعلق بحزب البعث و كانني عضو من اعضائه المقرّبين او السرّيين. أو كأن ليس لهم جواسيسهم المخبرين الرسميّين.ولكنها طريقة للتحذير الغير مباشر ان انا فكّرت في الانتماء الى حزب البعث. رغم انني ذهبت في بعثة رسمية من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي كما اسلفت ومع ذلك اتعرض للتهديد بعدم تمكيني من الرجوع لمواصلة دراستي.ويقع تعطيل جواز سفري وانزل من الطائرة أكثر من مرة لاخضع من جديد الى المساءلة؟

ولم تنته هذه الاستجوابات بانتهاء دراستي بل بقيتُ مُشرّفة عند وزارة الداخلية لسنوات عديدة حتى ملّوا منّي ولم يجدوا عندي شيئا وانا فعلا لا اعرف شيئا. ومن اين لي ان اعرف اخبار البعث واسرارحزب وراءه اقوى جهاز مخابرات في العالم العربي؟

من المظاهر الغريبة التي لفتت انتباهنا نحن التونسيّون في العراق ظاهرة حمل أساتذتنا بالجامعه "المسبحة " بأيديهم. وهي عادة منتشرة في الشّرق كثيرا، قليلة جدّا عندنا في تونس، إذ لا يحملها إلاّ من أراد التسبيح فعلا في الجامع أووقتالصّلاة.وغير ذلك فهورياءونفاق اجتماعي وتظاهر بالتقوى وهي مرتبطة عندنا بالشيوخ والعجائز. أمّا أن يدخل بها أستاذ الفلسفة علينا بالصّف، كأنّه داخل إلى جامع فذلك ما أثار دهشتنا فعلا إذ كنّا نظنّ أنّ الحرم الجامعي هوحرم محايد فعلا وهناك فصل مسبق في أذهاننا بين العلم والدّين فما بالك بالفلسفة.وأذكر خاصّة الدكتور ناجي التكريتي، الذّي كانت المسبحة لا تفارق يده وحبّاتها لا تهدأ بين أصابعه...ثم اعتدنا ذلك منه ومن غيره وفهمنا أنّها عادة وإكسسوار تحملها مثلما تحمل ساعة بيدك.

من الأمور التي أثارت استغرابنا أيضا لغة بعض أساتذتنا وإلقاؤهم الدّروس بالعاميّة العراقيّة دون التزام باللّغة الفصحى ودون حرج. في حين أنّه في تونس من المستحيل أن تجد أستاذا يلقى دروسه باللهجة المحليّة. فمنابر الجامعة وكلّ المنابر الرّسمية والدّروس والخطب كلّها مرتبطةبالفصحى ارتباطا مقدّسا.مع كوننا حظينا بخيرة الأساتذهوأغلبهم متخرّج من جامعات كمبردج وألمانيا وأمريكا كأغلب الأساتذهالعراقيين. (ولكن للأمانة ليسوا كلّهم بهذا الشكل إذ فيهم من يلتزم بالفصحى التزاما يجري به لسانه طواعيّة دون تكلف).

الفصل السابع عشر

فوبيا المخابرات العراقية

غنيّعن القولأنّ الحياة في بغداد كانت في الفترة التّي كنت طالبة فيها بكلية الآداب في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، مسيّسة إلى أبعد الحدود. لا حياد فيها حتّى فيالعلاقات العاطفيّة وفي أشّد المواقف حميميّة. كلّ شيء يوظف لفائدة حزب البعث سياسيّا... وكان الجوّ مشحونا بنوع من فوبيا الاستخبارات التي لا تعرفها إلاّ الأنظمة العسكريّة، الإستبدادية:فوبيا جهاز المخابراتالعراقي.

وجهاز المخابرات العراقي هو في الأصل الجهاز الرئيسي للمحافظة على أمن دولة العراق من الجهات الخارجيّة.وقدكان أقوى أجهزة المخابرات العربيّة على الإطلاق، إبّان حكم الرئيس صدّام حسين: مؤسّس المخابرات العراقيّة وعقلها المدبّرالأوّل، حيث اقترح على القيادة قبل أن يصبح رئيسا وعلى شخص الرئيس الأسبق / أحمد حسن البكر: انشاء جهاز أمني واستخباراتي للحفاظ على بقاء وديمومة الحزب والثورة على حدّ قوله. وحماية القيادة الحزبيّة والسّياسيّة في آن واحد. كي لاتتكرّر تجربة (ردّة تشرين وفشل تجربة انقلاب 8 شباط) حينما أقدم عبد السّلام عارف في تشرين (اكتوبر) عام 1963 بضرب البعث والحرس القومي وطردهم والزجّ بقادتهم في السجن.

رسميّا، كانت المخابرات العراقية، تابعة لوزارة الداخليّة في العراق. إلاّ أنّها كانت تستلم أوامرها من مجلس قيادة الثورة مباشرة.
كانت المخابرات العراقية غالباً ما تنسق أعمالها مع مديرية .الأمن العامّة التّي كاناختصاصها أمن العراق الداخلي.
وكانت المديرية الثالثة في الجهاز،تهتّمبجمعوتحليل المعلومات التي تهمّ أمن العراق وتضم أعضاءً سريّين اندمجوا معالدوائر الحكومية في الوزارات والسفارات والنقابات وأحزاب المعارضة خارج العراق.وكذلكداخل العراق. كانوا مندسّين أيضا حتّى بين افراد العائلة الواحدة، ناهيك عن النوادي والمقاهيوالكليّات واتّحادات الطلبة. ممّا لا يجعلنا نأمن حتّى لأقرب زملائنا. وكنّا نحتاط حتّى من البقّالين،الذين نتعامل معهم يوميّا تقريبا في الحياة العامّة. وسوّاق سيّارات التاكسي التّي نستقلها لقضاء شؤوننا... وكنّا نوصي بعضنا البعض: ألا نفتح أفواهنا ولا نتكلّم في السياّسة أبدا. إلا عن الطّقس وجمالالطبيعة في العراق.
حينما أصبح صدام حسين رئيسا للعراق سنة 1979 أصدر جملة من القرارات منها: تعيين صديقه ورفيقه المقرّب مدير المخابرات حينها "سعدون شاكر" على رأس وزارة الدّاخليّة.وتعيين"برزان التكريتي " رئاسة جهاز المخابرات العراقية بعدما كان مساعدا لسعدون شاكر.
و"برزان ابراهيم الحسن التكريتي" هو أحد الإخوة غير الأشّقاء للرّئيس "صدام حسين" يدين بولاء خاصّ له وقد أصبح مستشاره الرئاسي. ويعتبررجل أسراره في الدّولة وفيالعائلة.وكان عديله أيضا بما أنّه تزوّج من " أحلام "الشقيقة الصّغرى لساجدة خير الله زوجة صدّام. وقد رافق

صدام حسين منذ استيلائه على السلطة في يوليو 1968.
ومع انسحاب الرئيس أحمد حسن البكر من السلطة في 1979 وتولّي صدّام حسين كلّ السّلطات، برز" برزان التكريتي"بقوّة. فعلى رأسالمخابرات، قمع الشيوعيّين الذين انسحبوا من الحكومة والمعارضين الأكراد، الذّين لم يُرضهم الحكم الذاتي، الذي منح لهم في 1974. ويشتبه بأنّه قتل عددا كبيرا من أفراد عائلة "مسعود بارزاني" رئيس اقليم كردستان.وقد منح لنفسه حريّة غيرعاديّة داخل حزب البعث. داعيا الى " احلال الديمقراطية " في العراق والى " وحدة " بدون اكراه مع الكويت.
لكنّه كان يكنّ كرها كبيرا لعدي: النجل الأكبر لصدّام حسين. ووقعت بينهما عدّة مشاكل وصلت الىحدّإطلاق النار على أتباع بعضهما البعض... وربّما بسبب ذلك دبّ خلاف بينه وبين صدّام حسين فأرسله الى جنيف ممثلا للعراق في الأمم المتّحدة. وقد ظلّ في هذه الخطّة اثني عشرعاما.
أشرف خلالها على شبكات المخابرات العراقيّة في أوروبا. وتولّى التّوجيه في شراء الأسلحة. وتمّ تكليفه بإدارة ثروة صدّام حسين المودعة في مصارف اوروبية.ومنذ فُرض الحظر الدوّلي على العراق في 1990 شكّل شبكة هدفها الاوّل الالتفاف حوله.
لكن قبل ذلك، فإنّ الفترة التّي ظلّ فيها "برزان التكريتي " في منصب رئيس المخابرات العراقيّة من 1979 ولغاية 1983 كانت أسوأ وأحلك فترة في أيّام العراقيّين. حيث زرع الرّعب في الشّارع العراقي، بل داخل كلّ عائلة. كان يمتلك صلاحيّات مطلقة. وكان فوق القانون. يتصرّف بأموال العراق وتحت يديه ملايين الدولارات ... وسّع

المخابرات الى (رئاسة) وعيّن العشرات من المدراء العامّين وأوفد المئات من الضّباط الى الخارج، لغرض اشراكهم في دورات تدريبيّة وفنيّة... وعلاوة على ذلك استورد العديد من الأجهزة الغربيّة، الغريبة والدقيقة كأجهزة تنصّت والتقاط ومتابعة وغيرها ...

كما اشترى" برزان التكريتي" أكثريّة فنادق بغداد. ومئات سيّارات الأجرة كلّها تعمل لصالح المخابرات ونقل الأخبار كلّيوم،بل كلّ ساعة. وجعل من المخابرات العراقيّة جهازا ارهابيّا رهيبا. ووصل به الأمر الى أصدر قرار تمّ بموجبه أن ينادونه ب: "السيّد الرئيس".

وقد دخل الشّعبالعراقي في هوس جماعي، بسبب الخوف، من هذا الجهاز الجبّار، الذي يمكن أن يوقعك في شراكه، في كلّ مكان وفي كلّ زمان ويدخل معك حتّى غرفة نومك ....

فصارالكلّ يشكّ في الكلّ. الكلّ يخشى الكلّ، الكلّ يتوجّس منالكلّ، الكلّ يشي بالكلّ، الكلّ يتّهم الكلّ، الكلّ يُخوّن الكلّ. الكلّ يتجسّس على الكلّ... الصديق يكتب التقارير في صديقه. والأخ يخوّن أخاه.والأب يُعلم عن ابنه.والزوجة تشي بزوجها وتلصق به أشنع التهم السياسية، إذا خانها مع امرأة أخرى. والصّاحب يلفّق تهما لصاحبة إذا أراد التخلّص منه، خاصّة إذا كانت له واسطة بالجهاز.

فوبيا جماعيّة طالتنا نحن كذلك. ونحن نرى حولنا المئات،مستعدين، لتقديم تقاريرعنأيّ شخص يُظهر أدنى قدر من العداء لصدّام حسين أولعائلتهأوأبناء قبيلته أوحاشيتهأوللنظامالقاسي الذّي يرأسه. وكنّا نسمع حكايات

أسطورية عن أجهزة الأمن العراقيّة وتغلغلها في حياة النّاس...
ومرّة دخلت صديقتنا نهى اللّبنانية، مخلوعة القلب إلى غرفتنا بالسّكن الدّاخلي الرئيسي بالوزيريّة: الغرفة رقم 51 التّي لا تنسى من كثر ما رأينا فيها من أهوال.. أخذتني من يدي، أنا وصباح. وخرجت بنا إلى الشّرفة لتهمس لنا: أنّ الشباب في الكليّة نبّهوها أنّ غرفنا مراقبة. وأنّ بها أجهزة وأسلاك تنصّت داخلالحيطان وبين خشب الأسرة وخزائن ثيابنا، أخفيت بسريّةمحكمة،موصولة بمركز الاستخبارات العامّة. صمّمها المهندسون الروس عند بناء السكن. فأصابنا الهلع ورحنا نراجع أقوالنا، إن كنا قد تفوّهنا بكلام يخص حزب البعث أوانتقدنا موقفا أوتناولنا سيرة السّاسة والحكام ودولة صدّام حسين وحاشيته أومسسنا بشخصه...ودخلنا فيحالةهوس هستيرية، بين الضّحك والهلع وبين الجدّ والهزل خاصّة صباح وكانت أكثرنا حساسيّة من الموضوع باعتبارها سورية من سكان الكويت الهاربين من سوريا. بسبب حكم إعدام صادر عن المحكمة العسكريّة، ضدّ أخيها جهاد المعارض للنظام السوري حينها..
أخذت صباح فرشتها الثقيلة وراحت تجرّها إلى الشّرفة الفسيحة لتنام بها. هروبا من الغرفة الملّغمة بأجهزة التنصت ورحنا نثنيها عن عزمها. قلت لها مهدئة: أنّه يمكن أن يكون كلّ هذا من باب المبالغات والفوبيا الأمنية. التّي أصبحت هوسا جماعيا. واستخفت بها نهى ساخرة وكانت سليطة اللسان. لا تكتم سرّا ولا تحسب حسابا لأحد. ترمي كلمتها كسهم ثمّ تعقبها بقهقهات كان شيئا لم يكن.

:" ومن أدراك أنّ الفرشة نفسها ليست محشوّة بأسلاك التنصّت؟" أولى لك أن تحفظي لسانك ولا تظلّك تلتّي وتعيدي: أن صدّام حسين يحكم بالحديد والنار فها هي الحيطان لها آذان كما يقال "
وكانت صباح ممن يحكون في نومهم ويتكلّمون بصوت عال. وانخلعت لمجرد كونها شكّت في أن تكون الفرشة ملغّمة. وانفجرنا في ضحك هستيري: "هل يمكن أن تكون أحلامنا مراقبة ومستباحة أيضا الى هذه الدرجه؟ " وهل يمكن أن ترفع التقارير في أحلامنا؟ تخبلّت نوّال ذعرا.

وكان أصدقاؤنا الشّباب الخلّص، في الكليّة قد حذّرونا أيضا من الحديث في السيّاسة بالأقسام الداخلية وغيرها. لأنّ هناك مندسّات من بين بنات السكن، من البعثيّات، العراقيّات وغير العراقيآت، المكلّفات بإستقطاب طالبات الأقسام الداخليّة وقد يتمّ توظيفهن لمراقبة فلانة أوفلتانة. وقد كشفنا بعض الحالات وقامت خصومات كبيرة بيننا، أذكر منها التقرير الذي رفعته خدّوج اللبنانية البعثيّة (المسؤولة عن استقطاب الطالبات الجنوبيات الوافدات حديثا...) في بنت بلدها "راوية " البيروتيّة اليساريّة التّي كانت تسخر سرّا وعلانية، من " هذه الأمّة العربيّة الواحدة ذات الرسالة الخالدة"(في إشارة إلى أحد أكبر شعارات حزب البعث)وتذكّرها أن العلاقات مقطوعة بين الجارتين الشقيقتين سوريا والعراق بسبب حزب البعث أيضا.
وكثيرا ما تصل الأمور إلى التّلاسن والتّشاجر... وهناك تُهم جاهزة طبعا أوّلها خيانة الوطن وخيانة الحزب، الذّي آوانا والذّي أطعمنا من جوع وآمننا من خوف. رغم أنّ البعض

منّا، لم تدخل الكليّة عن طريق حزب البعث. وما كان يؤلمني فعلا هومعرفتي بتوظيف حزب البعث لتصفية حسابات شخصيّة بين الطلبة والطالبات معا... وقد كنّا حذرات حتّى في علاقاتنا العاطفيّة بالشباب البعثيّين مخافة أن ينقلبوا علينا ويؤذوننا إذا فسد الودّ أوتغيّر القلب. وكانت في كلّ الخناقات تصل دعد الفلسطينيّة البعثيّة جارتنا في الغرفة 52 وتصرخ فينا: " يا بنات ما بيصير هيك إنتوبتعطوصورة سيّئة عن الحزب وبتشوّهوسمعته. ترى للبعث أخلاق. وقد علّمنا الحزب أن تكون لنا مبادئ وأخلاق " وكانت تثيرني كلمة: " للبعث أخلاق " فأساند دعد مازحة:
"طبعا طبعاللبعث أخلاق مثلما – للهوى أخلاق – تماما ".
تهدئة للخواطر وتخفيفا من حدّة التوتر.
وسرعان ما تتطوّع صباح لتحضير إبريق الشاي الذي له قوّة سحريّة في مصالحتنا ببعضنا إذا ما التففنا حوله. ثمّ تُخرج علبةسجائر " الكانت " المستطيلة من حقيبتها اليدويّة وتضيّفناكلّنا بكرمها المعهود. فندخّن بشراهة، لتمتصّ السّيجارة كلّ التوتر والجوّالمشحون بفوبيا التقارير والإتهامات والخيانات... ونردّد تلك الجمل التي تنتهي بها كل الخلافات: " أنّ هذا عيب. ولا يجوز بيننا، فنحن في النّهاية كلّنا طالبات، عربيّات، متغربات ليس لنا غير بعضنا. جئنا للدّراسة في الأصل وليس للتحزّب والإنتماء. وإن كانت هذه الجملة لا تقنع كثيرا خدّوج اللبنانية. فنتغامز بنزق الأطفال ونضعكلّ الحقّ على " الإمبريالية العالمية " التّي تريد أن تفرّقنا وتقسّمنافي حين أنّ العراق يسعى إلى

توحيد الأمّة العربيّةويجب أن نكون مقتنعين بالوحدة، سواء كنّا منتمين أوغير منتمين للحزب."

في ليالي الشّتاء الحالكة، كثيرا ما كنّا نسمع في أواخر الليل، طلقا ناريّا عشوائيا... فنهرع مخلوعات القلوب إلى الشرفة فلا نجد إلا الظّلام الدّامس، متكتّما علىليل العراق الحالك،الغامض والهالك.
حتّى صرنا ننام على هدهدات الطلقات البعيدة... في الصّباح، نسمع بعض العراقيّينيتهامسون، عن إختفاء بعض الأشخاص، الذّين لن تجد لهم أثرا بعد ذلك أبدا.
ظلّت صباح مصرّة على أن تنام بالشّرفة.لحقت بها نهى صارخة بين مزح ومكر:" أنا لومنَككنت رحتتزوّجت الملازم العراقي " نجم عبّاس " المتولّه بك. ثم أضافت بخبث: مع إنيلهلاّ موعرفانه على شومغرم بك؟ على حمقك وإلا على هبلك؟
ثم أضافت بجديّة:"ع القليل بنكون هيك أمّنا على حياتنا وبنصير محصّنات عن الشبهات، خاصّة وإحنا بعاد عن أهالينا ما فيه مين يحمينا. أولك حدا بيصحلّويتزوّج ملازم ويرفض؟ ما تسمعي العراقيات كيف بيقولو" ملازم أوما لازم " والله أنك أكبر غبيّه."
ردّت صباحفي عصبيّة وهي مصرّة على بسطفرشتها، بالبلكونة، نكاية في نهى والملازم وكلّ المخابرات العراقية: " روحي تزوجيه إنتيوكلّ العراقيات معك.بدّكي تأمّني على حياتك إنتي الآن وأتورط به أنا كامل العمر...؟ يعني أتزوج مخبرعسكري ينام ويصحى معي في نفس التخت. وأيّ خناقه بينا يروح يقدم فيّ تقارير سريّة أوفي عائلتيأويعملي

تصفية جسدية من سكات. أولك فيه حدا يأمّن لضابط عسكري سياسي بعثي؟ "

___" أولك ليش بتطلعي معه إذا إنتمومقتنعه به؟ "

___" خلاص إنبسطي يا أَختى ما عدت أطلع معه. بعد هذاك اليوم.وإنت بتعرفي كيف رجعت مرعوبه ميّتة خوف يوم ما عزمني على جولة في كورنيش دجلةواكتشفت فجأة المسدس القابع بجوار محوّل السرعة في سيّارته. وكان بيسحبهلمّا بننزلوبيرجعهبيناتنا لمّا بنركب.كان كلّ مرّة قلبي ينخلع معه. مسلسل رعب ع الكورنيش...

أنا. صرت أرجف كنت أتصور أنّه سيوجّهه لي... فأنا بحياتي ما شفت سلاح إلاّ في الأفلام... قال بدّويأخذني في نزهة بحريّة قال. تمنيت وقتها لوكنت مع أبسط شاب نتمشّى على الشاطئ بأمان مثل كلّ العشاق الذين يختالونبشارع أبي النؤاس."

وكانت صباح مخطوبة إلى "محمد" ابن خالتها قبل أن تأتي إلى العراق. لكنّها كانت متردّدة كثيرا بشأنه، كونه أقلّ مستوى تعليمي منها. انقطع عن الدّراسة مبكّرا ولم يتجاوز الإبتدائية وراح يشتغل بالتّجارة مع والده. حتّى أصبح من الأثرياء. وكان يحبّ صباح حبّا جنونيّا، ولا يتخيّل أن يراها مع رجل آخرأبدا. إلا أنّ صباح كثيرا ما تنقلب عليه عندما تحتك بشباب الكليّة ويتضّح لها أكثر فأكثر فارق المستوى.

زيادة على كونها حلوة، بضّة، تثير إعجاب الشّباب أينما راحت. ميساء بشعر أسود طويل، ينسكب على كتفيها، خفيفا مثل خفّة ظلّها ومزاجها المرح وأناقتها البسيطة، التّي تثيرغيرة نهى الثريّة الثخينة التّي تأتيها أغلى الفساتين من أهلها ولكن دون ذوق.

كان محمّد كثير التردّد على العراق بسيّارته، الفخمة، السّوداء، الرباعيّة الدفع، من الكويت، أين يقيم مع عائلته أيضا. محمّلا بالهدايا لنا جميعا. يصل إلى القسم الدّاخلي مباشرة ومعه كراطين الفواكه والمعلّبات المتنوّعة وشكولاطة"الكيتكات"دون أن ينسى كروصات سجائر ال "كانت " المستطيلة لخطيبته المدمنه على السّجائر. وقد سرّبت لنا هذه العدوى فصرنا كلّنا ننتظرها بلهفة وندخّنها بشراهة. خاصّة عندما نجتمع للسّهر، في الشّرفة الفسيحة، حول طاولة العشاء والشّاي... نقارن بين محمد ونجم... نُسّر لبعضنا أخبار الأحبّة وسيَرالعشّاق الذّين تركوا والذين زعلوا والذين تصالحوا...

وأستدرج أنا صباح لتحكي لي آخر أخبار "فارس " خاصّة يوم يزورهم في كليّة العلوم، تصبح السّهرة باذخة،و بطعم خاص، بتفاصيل التّفاصيل: مع من جلس؟ ومع منتحدّث؟ وما سبب الزيارة؟وماذاحكى معها؟وهل جابا بسيرتي؟وهل هناك سلام خاصّ لي؟وهي تعرف نقطة ضعفي جيّدا ومربط الفرس فتطنب بها وتستطرد...وأنا أستلذ وأستعذب...وكانت تلك تسليتنا المفضّلهوربّما سبب عشرتنا:هي تزيّن لي العلاقة بابن بلدها وأنا أهيم به أكثر فأكثر... وكانت نوّال تتفطن إلى مبالغاتها أحيانا وتنهاها عن ذلك، فلا تردّ عليها، ولا أعبأ أنا، من باب " أحكيلي على منأحّب حتّى بالكذب " كما يقول مثلنا التونسي. المهّم أن نكون مبسوطين بالحكي، ندخّن بشراهة،ونشربشايا لذيذا، ونستمتع بسمرنا، في الشرفة، وننام على أحلام واعدة...أليس الحبّ أجمل وهم نعيشه، في النهاية؟

لم تكن صباح سعيدة بمحمد إلّا عندما يأتي لبضعة أيّام. يدلّلنا ويعزمنا على أحسن المطاعم ونسهر حتّى الصّبح في كازينوهات"ليالي بغداد " و" ليالي شهرزاد " وكانيعزم فارس معنا كرمانا لي. ويعزمنوّال ونهى بحكمأنّهما من سكان الكويت أيضافي نطاق الهجرة اللبنانية والسّورية والفلسطينية للكويت.

ثم عندما يعود إلى الكويت. وتعود هي إلى جوّالكلية والطلاب، تكلّم أمّها وتقول لها أنّها تورطت بهذه الخطبة التقليديّة.....

كما أخبرت صباح أمّها في المدّة الأخيرة بقصّة الملازم "نجم عبّاس " معها. وأنّه يريد الزّواج رسميّا منها وينوي زيارتهم في الكويت. وقدقبلت الأم على مضض أن يخاطبها بالهاتف بعد إلحاحه الكبير، ولتفهم منه الحكاية، دون أن تكون متحمسة له ضدّ ابن أختها. وصارت بينهما مكالمات بعد أن ترك لها رقم هاتفه من باب التقرّب: إن كانت تريد أن تطمئن على صباح أوإذا كانتتريد أيّ شيء منبغداد.....

الفصل الثامن عشر

ليلة إختفاء صباح

لتغيّير الجوّ في تلك اللّيلة إقترحنا أن نخرج للسّهر في حدائقكورنيشدجلةبشارع أبي النؤاس. خاصّةوأنّنا أنهينا الإمتحاناتوأشرفنا على نهاية السّنة.
قالت صباح بشرط ألا نتأخر. ضحكنا كلّنا وقلنا لها:"خلاص، فهمنا. سنترك له خبرا عند المشرفة الليليّة أن يلحق بنا على الكورنيش" بعدما نأخذ منها الإذن بالخروج، وقد صارت متسامحة في أواخر السّنة... وكنّا نعرف أن "محمّد " على وصول لبغداد تلك اللّيلة من الكويت عن طريق البصرة بالبرّ.
كان توقنا كبيرا لنهر دجلة،الذي يغسل الأرواح القلقة،لمجرد العبور به وتنسّم هوائه والجلوس على حافة شواطئه... وشارع أبي نؤاس الذّي احتضن غربتنا منذ قدومنا إلى بغداد.
في تلك اللّيلة عندما وصلنا الكورنيش أنا وصباح ونهى ونوّالوخدّوج ودعد. بدأنا نبحث عن باقي شباب شلّتنا التّي تسبقنا عادة إلى الشاطيء: شباب تونسيّون ومغاربه وسوريون ولبنانيون ومصريّون وفلسطينيون وسودانيون نعرفهم أولا نعرفهم يفيض بهم كلّ ليلة كورنيش دجلة في لوحة فسيفسائية لا تجدها إلاّ في العراق. الذّي يفخر بسياسة استقطاب المثقفين العرب. تلفظنا"أقسامنا الداخلية " من شدّة الحرّ خاصّة في شهر جوان (يونيو) كلّ ليلة إلى نسائم شاطيء دجلة، حيث يحلوالسّهر والسّمر بحدائقها الغناء. وحتّى المراجعة أيضا بالنسبة لمن لم ينه امتحاناته، حيث أنّ الكورنيش مؤثث بطاولات وكراسي فردية عليها لامباتمضويّة للقراءة والكتابة...

أمّا أنا فكنت أبحث عن " فارس " رغم أنّني لم أكن على موعد معه. خاصّة وأنّني لم أره منذ أربعةأيّام بسبب غيابه المفاجئ والغامضعن الكليّة وانشغالاته الحزبيّة.

وقد إشتدّ شوقي إليه. لكنّني كنت أعوّل على الصدفة وعلى حدسي الذي ينبئني بلقائه اللّيلة ويزيّن لي موعدا معه في حدائق النّهر...ربّما يلفظه الحرّ هوالآخر من بيته، بحيّ "الوزيريّة " قرب سكننا الدّاخلي إلى نسائمشواطيء دجلة علّها تساعده على إنهاء رسالة الماجستيرالتّي يعدّها عن الأدب الانجليزي وعن مسرح شكسبيربالذات.

كانت حدائق دجلة مسرحا في حدّ ذاتها:قصصوحكايات وسهر وعشاق وعذابات وأشواق ولقاءات....

وكان ليل دجلة ليل حبّ وأنس وطرب ومرح وجدّ وهزل وجدل...طافحا بأمواج الناس...راصدا حقيقيّا لنبض الهدير اللّيلي لبغداد خاصّة وقت الإحتفالاتومصاحبة الفرق الغنائيّة في المواسم والأعياد.

يحرسه تمثال أبونؤاس. يرنومن بعيد بعين الرّضا إلى الجموع التي تتدفّق بالحياة، بيده كأسه الشهير، الطافح شبقا وعشقا، النّاهل من كلّ متع الأرض على إختلافها، لشاعر خالد لا يموت... بعد أن أبدع في تصميمه الفنان إسماعيل فتّاح الترك في العام 1972

يفتح شهيتك للحبّ والأنس والغرام والعشق حيث تهاجمك الحياة على حين غفلة.فتتمنّى أن تتمكنَّ منك ولن تفلت منها أبدا.

كان الشاطيء يطفح بالسيّاح الأجانب أيضا،الذين يحبّون الرّحلات النهريّة خاصّة. تتأرجح بها القوارب على سطح الماء النابض بالحبّ والحياة تحت ضوء القمر السّاهر معنا.

وكنت أحلم برحلة تحت ضوء القمر، يخطفني إليها فارس... ألعن في سرّي كلّ اجتماعاته الحزبية ونشاطاته السياسيّةالتي تأخذه منّي دائما. وما يشيعه "الرفاق " مزحا حوله: أنه الفارس الذي تزوّج حزب البعث.
على الشاطئتنتصب شاشات تلفزيّة كبيرة تتحلّق حولها العائلات العراقيّة على مقاعد خشبيّة مستطيلة أوعلى الرّمل لمتابعة حلقاتمسلسل عربي آسر...كما في بيوتهم تماما.... كنّا " نتونّس " بها كما يقول العراقيون، تخفّف من غربتنا وتذكّرنا بعائلاتنا.

وكثيرا ما كنّا نصادف أساتذتنا وغيرنا من الطلبة وبعض الشعراء والإعلاميين والسياسيّين والمثقفين.... يجرّهمالحديث إلى نقاشات ساخنة تحوّل حديقةالشاطئ إلى صالون سياسي أدبي شعري ثقافي...وقد كنّا نكتفي فيها بالإنصات والتعلّم خوفا من المشاركة، لعلمنا أنّها لا يمكن أن تكون خالية من عيون حزب البعث.

كانت هسهسة الموج تجذبنا، لتذكّرنا بأن ليل أبي نؤاس هوليل طرب أيضا وأصوات تصدح بالشّجن العراقي...وتختلطأغاني ناظم الغزالي وزهور حسين وسليمى مراد بأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب.
وتجذبنا أغاني الأعراس وأغاني صباح فندبك مع الدبّيكة...بينما تتعالى قربناضحكاتالأطفال ومرحهم بين المراجيح. ولمعانعيونالعشّاق،تطرّز قصائد الغزل تحت ضوء القمر.بينما تتمايل الزوارق مع النسائم، مبحرة

بأضوائها وكأنها اللؤلؤ المنثور آخذة راكبيها في نزهة مائية.

فجأة إنخلع قلبي إذ لمحت " فارس " كما توقع حدسي تماما. منكبّا على إحدى طاولات الدّراسة وخصلات شعره الأشقر تغطي نصف جبينه، تلمع تحت ضوء اللمبة بقوسها الطويل النصف دائري أمامه، جهة اليمين. غارقا في دراسته. يحاور شكسبير ويتجادل معه: **" أكون أولا أكون."**
لمحته صباح معي. أردت أن أذهب إليه مغتنمة هذه الصدفة الجميلة. فشدّتني صباح: " ثقلي حالك. خلّي هويجي لعندك ". فشوّشت مشاعري القويّة والعفويّةنحوه. هي هكذا صباحدائما تفسد عليّ عفويتي بدروس الحبّالشرقي القديم التّي ما تنفك تعيد لي إيّاها والتي تجعل الرّجل هوالذي يركض وراء المرأة وهي التي تتمنّع عنه.....
قلت لها متحجّجة: " خلينا نروح نحكي معه. عمّا سمعناه اليوم. وإذا كانت فعلا غرفنا مجهزة بأسلاك التصّنت؟ قالت: " سوف يضحك منّا ويستخّف بالأمر كالعادة؟ ليبعد كلّ الشبهات عن حزب البعث المنزّه عن كلّ إشاعات "الأعداء المغرضة ". وربما صرنا في نظره من الأعداء حسب قاعدة من ليس معي فهوضدّيوقد غمزت بعينها إلى البنات.....
قالت نوّال:" بشرفي ليمسكنا اللّيلة ويخلّينا نذاكر الفكر السيّاسي ويلقي علينا آخر دروس ونظريّات حزب البعث العربي الإشتراكي...

قالت صباح مؤيدة نعم: أريد أن أستمتع بحياتي اللّيلة هنا على الشاطئ مع ضوء القمر وأغاني سعدون جابر بعيدا عن كلّ الأيديولوجيات.. وإلاّبشرفي لتركتكم وهربت......
البارحة جاءني إلى كليّة العلوم وعزمني على فنجان شاي بالنادي، في ساعة فراغ لي لا أدري كيف عرف بها؟وصدّع دماغي بالحديث في السيّاسة. وترك ليبعض كتب الرفيقينميشيل عفلق وطارق عزيزمنظّرا الحزب لأقرأها. هسّهبيسألني إن كنت قد قرأتها؟
قالت نهى متواطئة معهما:"
حلّوعن سمانا وخلّونا نستمع إلى ناظم الغزالي.وصارت تغني معه بصوت عال:" طالعه من بيت أبوهارايحة لبيت الجيران لابسة الأحمر والأبيض وعيونها عيون الغزلان... وهامت وراء الشباب الذين كانوا يدبكون على وقعها... فانخرطنا كلّنا معها على وقع "عيون الغزلان "

كانت دعد الفلسطينية قد صرخت فينا من بعيد. أنّها وجدت الشّباب الفلسطينيّينوعلينا أن نلتحق بهم في مكاننا المفضل: قرب نصبشهريار وشهرزاد.
فاتجهنا نحوهم، لنمر بسلسلة المقاهيوالمطاعم الشعبيّة، التّي تقع على طول ضفّة النهرورائحة السّمك المسكوف تملأ المكان وأفضل الأسماك النهريّة، التّي شهرت بها بغداد كالشبّوط والكطان والبني الذي يتم صيده مباشرة من قبل صيادي منطقةالكرادة، القريبة من شارع أبي نؤاسوالكباب العراقي الذي يقدّم ساخناً، مع الخبز البغدادي الخارج من التنور تواً...

كالعادة جاء بقيّة أفراد " العصابة " التّي نسمّيها سرّا بيننا"عصابة علي بابا " لأن زعيمنا"أميرالسّعفي" السّوري كان كلّ مرّة يسرق غرضا من أغراضنا ويتركنا نبحث عنه طوال الليلة ...
كنّا نجمّع بعضنا لنجلس حول زادنا الذّي نجلبه معنا كلّ مرّة للسّهر. نفترش الرّمل على ضفاف دجلةمباشرة. قرابة الميّ نتسامر ونتناقش ونتجادل ونغني وندبك ع العتابا والميجانا...
جلسنا حلقة دائرية وجلس جمال الفلسطيني جنب نوّال وكان يغازلها من مدّة ويتقرّب منها...وجلس أمير جنب نهى لمشاكستها حتّى يشتدّ العناد بينهما. وهوغارق في الضّحك كتنفيس عن رغبة مكبوتة تجاهها.وهي غارقة في شتمه كدفع تهمة رغبته بها. أمّا أنا فأجلس كيفما إتّفق عين على النّهر وعين على فارس ثمّ أنسحب إلى درجات قاعدة تمثال شهريار وشهرزادالمرمريّة...استمدّ منها سلطة الكلمة للحفاظ على الرّجل الذي أحبّ.
فجأة سمعنا صوت رمي كثيف.إرتعبنا ولم نستطع أن نتعوّد على صوت الأعيرة النارية منذ جئنا العراق، رغم أنّها دخلت في طقس البلد العام ولم يعد العراقيّون يديرون لها بالا. ثمّ سمعنا صوت رجل عراقيّ جنبنا يقول:" يا معوّد هاي شماريخ أعراس بالكرخ لا تتخبّلون " ولم نر أثرا لألعاب ناريّة ولا شيءفي السّماء.
كنت أريد صباح في موضوع ما، فلم أجدها أمامي، سألت الشباب عنها، فلم يكترث أحد قال لي جمال: " أولك أتركيها شوَي المخلوقة. البيبي تبعك كبر وصار عنده رجلين ههههه " وانخرط الجميع في ضحك متواطئ ساخر...

انتظرت طويلا وانشغلت مع الشّباب بالحكي، ومرّت حوالي ساعة، ولم تظهر صباح، وهنا بدأت أقلق، ولمثُ الجميع الذّي لم يكترث بالموضوع، وقد بدأت الجموع تخفّ، حتّى لم يبق غيرنا في الحدائق تقريبا. وهنا أحسّ الشباب فعلا، بطول وقت غيابها غير العادي.
خمّنا أنّها راحت تتمشّى مع النّهر كعادتها. سحب جمال نوّال من يدهاوراحا يركضان جنب الشاطئ يقتفيان أثرها...وراح أمير جهة نصب أبي النؤاس.
مسحنا الحديقة بأعيننا فلم يتبين لناشيء. قالت دعد: هي اختفت قبل الطّلق النّاري بكثير ولم تلحظوا ذلك.
كان الوقت قد صار حوالي الثانية صباحا.
دخلناالمطاعم القريبة، جلنا بعجالة بين الطاولات، سألناعنها، علّها ذهبت للهاتف أوللحمّام. وقدإنضمإلينابعض أصحابنا الآخرين في البحث عنها في كلّ مكان.
عندما يئسنا. قالت نهى:لا بد أنّ الأمر له علاقة بما حدث معنا اليوم في القسم الداخلي...
عاد أمير متعتعا، من عند تمثال أبي النؤاس، بهوس فوبياالإستخباراتالعراقية. ليسألنا مائة سؤال وسؤال حول حكاية أجهزة التنصت التّي إنتشرت في القسم الداخلي اليوم: من نشر الخبر؟ومن كان موجودا حينها؟وكيف كانت ردّة فعلنا؟وماذا قالت صباح بالذات؟ليزيد هوسنا ووقوعنا مجدّدا تحت وطأة الاستخبارات العراقية. وقد كنّا نظنّ أنّنا خرجنا إلى شارع النؤاسي لنتخلّص منها. وخدّوج اللّبنانية تتابع المشهد ببرود وغموض وباستخفاف أيضا. وكأنّها معنا وليست معنا، من أوّل ما وصلنا الكورنيش.

عاد جمال مع نوّال دون جدوى: " يمكن جاء محمد وأخذها؟" قلنا له مستحيل يأتي محمد من غير أن يسلّم علينا ويواصل السّهر معنا ككلّ مرّة. هويحبّ أجواءنا وهوصديق لنا أيضا.ونحن على موعد معه بالداخلي كالعادة ولا يعرف أنّنا هنا إلا إذا مرّ على السكن وأخبرته المشرفة أنّنا هنا، ومستبعد جدّا أن يأتي ويأخذها خفية كاللّصوص دون أن يرانا.
نطت نوّال فجأة:" إذا يجب أن نتصّل بمشرفة القسم الداخلي قبل كلّ شيء.ونسألها إن كان محمد قد مرّ بها؟
أخذها جمال وراحا لأقرب مطعم ليخابرا القسم الداخليويستوضحا الأمر؟
أخبرتهم مشرفة الإستعلامات اللّيلية "أمّ سعد"أنّ صباح لم تعد وأنّ محمد الذّي تنتظره بدورها لم يصل. وكلّنا نعرف لهفة أمّ سعد المدمنه على سجائر"الروثمان " التي عوّدها محمد على جلبها معه من الكويت ككلّ مرّة.
قال جمال إذًا خطفها الملازم. قلنا له متوّترات:" بلا مزح " قال أنا لا أمزح. أنا لم أرتح لهذا الضابط أبدا. منذ صار يخرج معنا، من حين لحين. أحسّ أنّه غامض، ووراءه لغز. ثمّ لماذا يصرّ على علاقته بصباح، رغم أنّه يعرف أنّها مخطوبة؟ لعلّه مكلّف بمهمّة أخرى؟
" شوهالمّهمة الأخرى؟ إنتالتاني، خيالك نشط جدّا: مرّة تتخيّل فلم بوليسي إستخباراتي، ومرّة فلم عاطفي؟ " قلت له.
قال في شبه تحدي متشّحا بالحكمة:"يخطفها من محمدليتزوّجها في السّر، قبل وصوله اللّيلة ليقطع عليه الطريق ويقطع كل إحتمال في عودتها إليه. تعرفون الضباط

لا يحدّهم حدّ. خاصّةوأنّه أخذ الموافقة من جهاته الرسميّة كما يدعّي.
صاحت نوّال: ما كان عليها أن تعلمه بوصول محمد اللّيلة.
قال جمال لا تخافي حتّى لو لمتخبره، ف"الملازم" يعرف كلّ شيء عن زوجة المستقبل.
تدخلّت دعد:" ولماذا لا تقول أنّ محمد هوالذي خطفها، بعدما علم بأمر الملازم. تعرفون حبّه التملّكي وغيرته الجنونية. ألم يردّد دائما عندما يسكر أنّه سيقتل أيّ أحد يأخذها منه.؟
صاحت نهى:" إي حاجي إختراع قصص وعمليّات خطف وأفلام بوليسيّة عن بدرة البدور. كأنّكم تتحدّثون عن " جورجينا رزق " (ملكة جمال لبنان حينذاك).

أمّا أنا فتركتهم ورحت ركضا إلى فارس. ليساعدنا على هذه المصيبة التّي حلّت بنا. ركضت في الرّمل حتّى انقطع نفسي، ولمّا وصلت لمكان طاولات المراجعة، أين رأيناه أوّل مرّة لم أجده. رجعت أجرّ رجليّ خيبة وفجيعة. وقد انسحبت العوائل العراقية بعد انتهاء المسلسلات العربيّةوالمنوّعات التلفزيّة. وخلا المكان من جموع الناس وبقينا تقريباالوحيدينبه.مرّت حوالي ساعة ونحن نركض في كلّ إتّجاه...
اقترح بعضنا أن نخبر الشّرطة واعترضت الأغلبية، خوفا من حجزنا وإخضاعنا إلى عمليّة سين وجيم عمّا حدث اليوم بالداخلي الذي ربّما كان سيناريومدبّرالتسجيل كلام أومواقف.وربّماتكون تقاريره قد وصلت بعد؟ واجتاحنا الشّك في بعضنا مرّة أخرى واخترقتنا الرّيبة. لماذا كانت

نهى تستفزّ صباح وتنبّهها أن تحفظ لسانها وألا تكرّر ما كانت تردّده دائما من أنّ صدام حسين يحكم بالحديد والنار؟
في الأثناء جاء أمير يركض من بعيد: معلنا أنّ أحد أصحابه السّوريين قد رأى صباح تركب تاكسي مع فارس وينطلقا. منذحوالي الساعة.
هنا جنّ جنوني وعصفت بي نيرانالغيرة. كيف تروح مع فارس وهي التّي كانت تمنعني عنه طول الوقت؟ تذكرت قول نهى أنّ صباح تخرج بالسّر مع فارس ولم أصدّقها حينها.
نظرتُ إلى نوّال فرأيت في عينيها نفس الرّيبة. كأنّها تؤكد شكوكي بنظراتها المتواطئة.
أحسست أنّ فوّارة تعتريني وأنّ عرقا باردا ينزّ من جسمي وأحسست بطعنة في الظّهر وبالغدر من أقرب صديقة لي... فيالحينأوقفت سيّارة تاكسي.جذبت نوّال من يدها لتركب معي، ولتكون شاهدة، على خيانة صديقتها. صرختُ في البقيّة أن يلحقوا بنا إلى بيت فارس. فتح جمال الباب الأمامي كيلا يتركنا وحدنا وركبحذوالسائق، يدلّه على شارع المغرب، في الوزيريّة، قرب المدرسة المأمونيّه.
في السيّارة، كنت كمن يجلس على الجمر. نوّال تحاول أن تهدئني حتّى نفهم جليّة الأمر. أرخيت ظهري إلى المقعد الخلفي الوثير أحاول أن أتماسك.

عرفت فارس أوّل ما دخلت كلية الآداب وقد كان خدوما، ساعدني كثيرا في حلّ مشاكلي أوّل السنة حتّى تأقلمت.. يسأل عنّي كل يوم... يأتيني ببعض الكتب عن الفكر السياسي والوحدة العربيّة.وبعد ذلك اليوم الذي عزمني فيه

على الغداء وصار يحكيلي عن حزب البعث على الكورنيش وينظّر لي عن مبادئه وشعاراته...ركبني تحدّ مجنون أن أروّضه حتّى يصبح رومانسيا يعرف كيف يغازل إمرأةويحبّها. من الغد حملت له ديوان أبي القاسم الشّابي الذي جلبته معي من تونس. مع كتب المسعدي والدوعاجيوعدّة أدباء أحببت أن أعرّف بهم لدى زملائنا الطلبة الذين لا يعرفون شيئا عن الأدب التونسي ما عدا أبي القسم الشّابي الذي كانوا يوصونني دائما بجلب ديوانه لهم من تونس. من الغد حملته إلى فارس على أن يقرأه ويعطيني رأيه في رومانسيات أبي القاسم. وظلّ بيننا شبه تحدّ خفيّ غير معلن: هويحدّثني في السيّاسة وأنا أحدّثه عن ابن حزم وأحكي له نوادر العشّاق من كتاب طوق الحمامة... هويأتيني بكتب البعث وأنا آتيه بكتب الشّعر والغزلوالموسيقىوالفنّ... وأردّد له قول أبي القاسم " عش للشعور وبالشعور فإنما دنياك كون عواطف وشعورشيدت على العطف العميق وإنّها لتجف لوشيدت على التفكير "...ونضحك بتواطئ طريف.

وكان أن عزمته ذات جمعة على الغداء في نفس المطعم اللّبناني، كاسرة، عادات الشّرق، حيث الرّجل هوالذي يعزم دائما. وقبل فارس دعوتي على أن يدفع هوههه. كان غرضي أن أستدرجه إلى جلسة على شاطئ الأعظمية مثل جلستنا الأولى. بل أنّنا جلسنا على نفس المقعد في نفس المكان. حينها بادرته قبل أن يبدأ محاضراته عن حزب البعث.سألته إن كان قد قرأ قصائد الشّابي. وما هي أجمل قصيدة أعجبته... صمت برهة ثمّ مسك يدي.... أحسست كأنّني مسكت العالم باليد الأخرى.

أسلمت عيناي إلى النهر يسير بي... وقد تحوّلت أبيات أبي القاسم الشّابي على لسانهزوارق تطير بي...
" عذبةٌأنتِكالطّفولةكالأحلام كاللّحنِ كالصّباحِالجديدِ
كالسّماءالضّحوكِ كاللّيلةِ القمراءِ كالوردِكابتسامِ الوليدِ..."
يومها رجعت إلى القسم الدّاخلي، لا تسعني الدّنيا من الفرح. أحسست بانتصار خرافي. دخلت غرفتنا أردّد في شبه هذيان مجنون: اليوم انتصرت. اليوم انتصرت. قالت نوّال: هل كنت في ساحة حرب؟ على شوانتصرت؟ قلت إنتصرت على حزب البعث. وضحكنا... وقد فهمن قصدي، ولم أزد.إلاّ عندما إختلينا في البلكونة أنا وصباح على سيجارة وفنجان قهوة لأحكي لها تفاصيل التفاصيل....
فوجئت أنّ صباح لم تفرح ساعتها كثيرا لفرحي على غير عادتها؟
تذكرت أنّه عندما عاد بي بسيّارة التّاكسي إلى القسم الداخلي طلب مني أن أنادي له صباح وبقي في إنتظارها.
لم أدقّق ساعتها؟ كنت واقعة تحت عذب اللّقاء الذييعذّبني الآن...
عندما وقفت سيارة التّاكسي أمام الرقم 68 في شارعالمغرب. كانتالفيلا غارقة في الظّلام. ما عدا نور خافت كأنه الشموعينبعث من الصّالون الذي أعرفه جيّدا والذي كان مفتوحا لجميع الأصدقاء. نزلت ركضا نحو الباب الخارجي دفعته بقوة فانفتح حتى وصلت الباب الداخلي. كانت دقّات قلبي أقوى من دقّات يدي. ونوّال ورائيتهدئني. فخيّم سكون مريب ولم يفتح أحد. عاودنا الدّقمرارا وتكرارا..دخل جمال إلى الحديقة الخلفية...بعد

لأي لمحنا قامة تطّل خفية من وراء ستار النافذة. ثمّ سمعنا خطواتقادمةمن الداخل على حذر.ثم فتح الباب فجأة وبثقة.
ذهلنا كلّنا عندما رأينا قامة الملازم " نجم عبّاس " تملأ الباب. نزّ مني عرق بارد لا أدري هل أثلج صدري أم زاد من حيرتي؟
بادر الملازم بطمأنتنا أنّ صباح بالداخل وفي أمان.وفارس وراءه يغلق الباب ويعزمنا على الداخل. يمسك بيدي ويهدئ من روعي وقد حدس ما بي ....
بعد أن جلسنا بالصّالون شبه المعتّم أين كانت صباح تمسك سماعة الهاتف وتنتحب...حتّى عرفنا أنّها تكلم أمّها. قال الملازم في حزم وقلق:"
جاءني هاتف عاجل، من أمّ صباحاليوم، أواخر العشيّة، تتوسّل لي بشرفي أن أنقذ إبنتهااللّيلة وأحميها من محمد الذي خرج من الكويت في أحلك حالاته والشّرر يتطاير من عينيه يتوعّد بقتلنا أنا وإيّاها، بعدما وصله خبر أنّناتزوّجنافي السّر. مرعوبة على ابنتها المسكينة من شرّه وحبّه الجنوني وسكره الذي يعمي عيونه..كنت حينها بمهمّة، في "الفلوجة "فكّرت وبعثت ضابطا، محايدا لا يعرفه محمد،لفارسليعودا بصباح بأقصى سرعة إلى بيته كمكان آمن حتى ألحق بهما وألا تعود إلى الأقسام الداخلية اللّيلة أبدا.
في الصّباح جاءنا خبر: أنّ " محمد " حمل إلى مستشفى البصرة إثر حادث سير على الطريق. لم يحقق أحد في أسبابه الى الان.؟

الفصل التاسع عشر

مجلة "ألف باء " التّي أدين لها ببداياتي

كنت مغرمة بالأدب، وكان مشروع حياتي الذّي رسمته منذ صغري.
منذ السّنة الأولى جامعه بدأت أبحث عن مجلة أوجريدة تحتويني، لأضمّنها أفكاري وخواطري، بشأن مواضيع عدّة كانت تشغلني...
كانت كليّتنا في منطقة " الوزيرية." ودلّني البعض على دار الجماهير للصّحافة، التّي لم تكن بعيدة عنّا بل كنّا نذهب إليها سيرا على الأقدام. عندما ينتهي الدوام أوفي ساعات الفراغ أخطف رجلي لأسلّم ذاك المقال أوذلك الحوار. كنت أذهب وصديقتي، روعه اللبنانية، الطالبة بقسم الإعلام. الذي يحتلّ الجزء الأوّل من رواق قسم الفلسفة ذاته. كما كنّا نسكن في ذات الجناح في القسم الدّاخلي الرئيسي. هي بالطّابق الثاني وأنا بالطّابق الثالث. وقد كان لنا نفس هاجس الكتابة والنشر.
سرت إلى دار الجماهير للصّحافة وأنا أتلّمس طريق بداياتي

ولم أكن أعرف أين سينتهي بي المصير...؟ لكنّني أعرف أن مشروعي الأساسي في الحياة: الأدب والكتابة والنشر والباقي كلّه ثانوي.
قبل أن أزور دار الجماهير كنت أفكر: كيف سأكتب في الصّحف العراقية المسيّسة إلى أبعد الحدود. وأنا المستقلّة غير المنتميّة إلى أيّ حزب. وكنت أبحث عن مجلة ثقافية، أدبيّة، اجتماعية، غيرحزبيّة.
دخلت دار الجماهير ولم أكن أعرف بها أحدا. وكذلك صديقتي روعة. وعندما سألَنا مشرف الإستعلامات بمدخل الدار: من تريدان؟ لم نعرف بماذا نجيب. فقال أيّ جريدة أومجلة تريدان قلت بعفوية ومن غير تفكير: " نريد مجلة " ألف باء " ونريد مقابلة رئيس تحريرها، حينها نظرت إليّ روعة باستغراب: لماذا " ألف باء" بالذات؟ ضغطت على كفّها أن أسكتي أنا نفسي لا أعرف لماذا، هكذا بدا لي أنّها الأقرب إلى نفسي الأبعد عن التحزّب.
أجاب المشرف:" صحيح أنّها تابعة لهذه الدار، ولكنّها في مكان آخر من الوزيريّة، ودلّنا على مكانها.
كانت المجلة تقع في زقاق هادئ يتفرّع من أحد شوارع الوزيريّة، الجميلة، وتتّخذ من بيت يوحي بالألفة، مقراً لها.

كانت أوّل مرّة أقابل فيها الأستاذ نافع الملاّح رحمه الله: سكرتير تحرير مجلة"ألف باء" وكنت أرتجف. ما عساني أقول له؟وأنا لست طالبة إعلام، هل سأقول له إنّي هاوية أدب وصحافة؟وإذا اشترط أن أكون من طلبة الإعلام؟وإذا سألني لماذا اخترت دراسة الفلسفة؟مادمت أريد الإعلام والأدب؟ ... أسئلة كثيرة وخوف وارتباك... بدّده بسرعة

وجه الأستاذ نافع السّمح البشوش وترحيبه بنا. قام لنا عن مكتبه ودعانا للجلوس، على كنبة بنيّة قرب المدخل وأمر لنا بشاي.

بدأنا الحديث معه، أثناء تناول الشّاي، بالتعبيرعن رغبتنا بالعمل في المجلة. وهنا انفتح الباب وأطلّت منه قامة رجل وسيم، طويل، ودود في مقتبل العمر بشعركستنائي يميل إلى الحمرة ولا أدري إن كان قد ناداه الأستاذ نافع أوجاء صدفة؟ لكنّه انشرح لدخوله وقال لنا:" آه هذا هوالأستاذ ماهر فيصل" الذي سيهتّم بكما. قال له وهويقدّمنا: كما أذكر جيّدا:" فتاتان واعدتان "وسلّمه رزمتين صغيرتين من ورق وأوصاه أن يترفّق بنا. ممّا أثلج صدرنا لبعض الوقت، لكن الأمر مازال غامضا أمامنا، مع هذا الصّحفي الصّامت الذي اصطحبنا إلى مكتبه في الأعلى ونحن لا نعرف ماذا سيفعل معنا وبنا؟ هل سيقبلنا؟ هل سيطردنا؟ هل سيسفسطنا؟هل سيعلّمنا أصول الحرفة؟ أم سيهزأ بنا...؟

أعطانا الأوراق وأمرنا بكتابة موضوع عن وضعنا بالعراق وظروف إقامتنا وأسباب مجيئنا... وخرج وغاب طويلا حتى يئسنا من عودته. وكان الوقت مساء، جاء الفرّاش يسألنا إن كنّا نريد شايا؟ قلنا له شكرا ولكنّنا نريد الأستاذ ماهر الذي كان معنا. أين ذهب؟ قال الأستاذ ماهر رجل مسؤول ومشغول جدّا، الله يساعده، يعمل رئيسا لقسم التّحقيقات، الذي يُعنى بستّة وثلاثين صفحة من المجلة. ومسؤولاً مباشراً للمراسلين في الخارج. ومكلّف بصفحة: من القراء إلى مجلة " ألف باء " ويكتب عرضاً أسبوعيا للكتب... عجبنا من التفاصيل التّي يذكرها الفراش كأنّه يعمل معه. لربّما أراد أن يقول لنا أنّه إنسان مشغول جدّا

وأنّ وقته ثمين جدّا. أوبمعنى آخر: لا تضيّعا وقته أيّتها الشابتان الجميلتان. أولعلّه يرمز إلى شيء لم نفهمه؟وبينما كنّا في إحراجنا وإرتباكناوقلقنا وحيرتناعاد فجأة الأستاذ ماهر. أخذ أوراقنا يقلّب فيها... وقلوبنا تتقلّب بين الخوف والفرح... ما تراه سيقول لنا؟
ظلّ يقلّب الأوراق كأنّه لا يقرأها. كأنّه يجاملنا، محتارا ماذا سيفعل بناأوكيف سيتخلّص منّا ومن أوراقنا؟وفجأةإتجهنحو مكتبة وضع الأوراق عليه، كأنّه عدل عن مشروع ما.
ركن الكتابات جانبا وأعطى كلّ واحدة منّا نسخة من العدد الأخير من مجلة "ألف باء "الأسبوعيّة. وطلب أن تأخذ كلّ واحدة منّا المعلومات المتوافرة في تحقيقين منشورين بها وأن تعيد كلّ منّا صياغة التحقيق الذي تختاره من التحقيقين، مع الحفاظ على كلّ المعلومات.
خرجنا من المبنى، بخطى، حائرة، قلقة، يائسة. إذ فهمنا أنّه يريد تعجيزنا. فهذا أصعب اختبار يمكن أن يتعرّض له أحد، حتّى لوكان صحفيّا، محترفا، مارس الكتابة. إنّه يطلب منّا أن نقوم بتغيّير نصوص استوفت كلّ شروط الكتابة والنشر، من طرف كتّاب وصحفيين محترفين. نحن اللّتين مازلنا نتلّمس طريقنا.
رجعنا، نجرّ خطى ثقيلة نحوالقسم الدّاخلي في ذلك المساء الحائر... فجأة مسكتُ روعة من ذراعها وركضت بها:" يلاّ بنا. سنقبل التحدّي.... وسنقنعهم بقدرتنا، نحن لا نلعب، هذا مشروع عمرنا.
في اللّيل وفي القسم الدّاخلي، انزوت كلّ واحدة منّا في ركنها وصمّمت أن تكتب وأن تعيد كتابة ما عُهد لنا بأجمل ممّا كتب... كانت مهلتنا يومان فقط.

بعد يومين عدنا إلى المجلة بخطى واثقة هذه المرّة. نحمل الصّياغة الجديدة للتحقيقين، بالصّدفة وجدنا الأستاذ ماهر بغرفة سكرتير التّحرير، سلّمناه الأوراق بثقة. نظر فيهما على عجل... التفت إلى سكرتير التحرير وقال له:" إفتح لهما كلّ أقسام المجلة."
نظر إليه الأستاذ نافع الملاّح، كما أذكره الآن، مستغربا. كأنّه يريد أن يقول له: أنت حتّى لم تقرأ ما كتبتا."
وأجاب الأستاذ ماهر بنباهته كلاما لازلت أذكره: "إنّ الأهم عندي أنّهما قبلتا التّحدي. وقامتا بأصعب أنواع الكتابة:كتابة التحقيق والتّي تتمثّل بصياغة جديدة لموضوع استوفى كلّ شروط النّشر.
قال الأستاذ نافع:" هل تدريان أنّ هذا الرجل (طفش) حتّى الآن ثمانية من طلبة الإعلام في كليتكم، لأنّه لا يرضى عن أحد.
ومن يومها دخلنا المجلة من بابها العريض وصرنا نقوم بالتّحقيقات والحوارات التّي نُكلّف بها أونقترحهاونكتب الخواطر وبعض المقالات.... وكنت لا زلت لم أبدأ بكتابة القصّة بعد، لا الرواية ولا الشّعر ولا أيّ لون من الألوان الأدبيّة..كان تدريبا على العمل الصحفي فقط.
بدأت الكتابة الأدبيّة وبالذات كتابة القصّة عندما تخرّجت وانتقلت للعمل في الكويت في جريدة " القبس" وهذه مرحلة أخرى في حياتي الأدبيّة.
المهّم أنّنا عشنا في مجلة " ألف باء " أجمل أيّام عمرنا. كنّا نشعر أنّها بيتنا، الذّي نركض إليه بعد الدوام، بالزيّ الطالبيالموحّد، للكليّة، (القميص الأبيض والتنورة الرّمادي) نحمل معنا المقالات التي حبّرناها في الليل، لنجد الأستاذ

ماهر والأستاذ نافع ينتظراننا دائما وينشغلان إذا لم نمرّ يوما. وصارا أعزّ صديقين لنا. يُشعراننا بنوع من الأبوّة والإهتماموالتدريب والتّعليم والغيرة علينا... ممّا أعطانا إرتياحا كبيرا، كفتاتين تعيشان الغربة في مجتمع شرقي. وشخصيّا أنا أدين ببداياتي لمجلة " ألف باء ". التّي لم انقطع عن الكتابة بها حتّى عندما عدت إلى تونس، في أواخر الثمانينيات سنة (1989) بالذات. وكان قد عهد إليّ بطلب منهم (وقد استوى عودي الأدبي) بكتابة ركن أسبوعي عن بعض قضايا الأدب والفنسمّيته" كتابة على الكتابة "... حتّى أغلقت في سنوات الحصار على بغداد. وتشاء الأقدار أن أعود إليها بعد طول هذا العمر سنة 2015. عندما عادت للظهورمن جديد.

أمّا الأستاذ "ماهر فيصل"فقد أصبح من أعزّ أصدقائي. له كلّ الفضل في حياتي الإعلامية وبداياتي. ومهما كبرت فإنّي أشعر بنفسي طالبة أمامه. هو" حارس كلماتي الأبدي " كما يحبّ أن أسمّيه. ما انقطع عنّي أبدا. فقد ظلّ يتابع نشاطي وتطورات حياتي الأدبيّة والإجتماعيّة حتّى لما عدت إلى تونس وأينما تنقّلت. وبقينا على تواصل إلى الآن. وهوالذي أخبرني بعودة مجلة " ألف باء " بعد طول انقطاعها، المجلة التّي جمعتنا وأهدتنا صداقتنا الوفيّة، وما تنكّرت لنا وما تنكّرنا لها. وزاد فعرّفني بالأستاذ الكاتب الكبير مدير تحريرها الآن. المؤرخ شامل عبد القادر، الذي يذكّرني بحنووأبوّة الأستاذ نافع الملاّح، في فتح أبواب المجلة لي من جديد.

أدين لمجلة "ألف باء" أيضا ولسكرتير تحريرها الأستاذ نافع الملاّح رحمه الله وطيّب ثراه وخلّد ذكره الذي أنقذني

من براثن مجتمع الذكور في وسط إعلامي شرقي تتعرّض فيه المرأة بصفة عامّة والفتيات، الشّابات،المبتدئيات، بصفة خاصّة إلى كثير من أنواع الإستغلالوالتحرش والإبتزازوالإغواء في مقابل القبول بهنّ وفتح الأبواب لهنّ. دون أن أسقط في خطإ التعميم طبعا. ولكن حكايات كثيرة كانت ترويها لي صديقتي روعة اللّبنانية. عن تحرش بعض رؤساء التحرير والنافذين في الإعلام والعاملين في الصّحف والمجلات. بالفتيات في بعض المجلات، الفنيّةاللبنانية. حكايات تبعث على القرف والإبتذال.

في "دار الجماهير للصّحافة والإعلام " عموما لم أتعرض لمثل هذا أبدا.

وقد أخذ بيدي أيضا الناقد التشكيلي عادل سامي وكان يستكتبني بعض المواضيع الفنيّة ويدرّبني على النقد الفنّي ويعزمني على كثيرمن المعارض الفنيّة التي تقام ببغداد... كما كانت الأستاذة ابتسام عبد الله تستعين بي لترجمة بعض المقالات من الصّحف الفرنسيّة.

قد تعاملت كثيرا أيضا مع الأستاذ ماجد السّامرائي الكاتب والناقد الكبير الذي أخذ بيدي أيضا في بداياتي. حين كان مشرفا في دار الجماهير للصّحافة والإعلام على ملحق " آفاق " الأسبوعيلجريدة الجمهوريّة اليوميّة.

كان كلّما عدت إلى تونس في الصّيف يكلّفنيبإجراء بعض الحوارات الأدبية مع بعضالمفكرين والكتّاب المعروفين: مثل هشام جعيّطوعبد السلام المسّديومحمد العروسي المطوي وغيرهم...للملحق

كما كلّفني بإجراء حوارين في بغداد مع أهّم روائيين عربيّين مقيمان بالعراق: جبرا ومنيفليكون أوّل حوار أدبي

أجريه في حياتي الصحفيّة مع الأديب الكبير جبرا ابراهيم جبرا ثم ثاني حوار كان مع الدّكتور الروائي الكبير أيضا عبد الرحمان منيف. وكانا حينها علمين بارزين من أعلام الرواية العربيّةالمقيمين بالعراق رغم أنّ الأوّل فلسطيني الأصل مقدسي والثاني لاجئ سياسي من أب سعودي وأمّ عراقية وإن كان مولودا بالأردن
وكانا أهم حدثين أبتدئ بهما حياتي الصحفيّة / الأدبيّة في العراق.

الفصل العشرون

جبرا المقدسي / البغدادي

كلّمت الدكتور جبرا بالهاتف وأخذت منه موعدا. ذهبت إليه من الغد في تمام الساعة العاشرة صباحا في بيته " بشارع الأميرات "بحيّ المنصور الراقي ببغداد." شارع الأميرات الذي سيصبح عنوانا لإحدى روايات سيرته الذاتية. وكلّي خوف من هذه الشخصية الموسوعيّة التي تعتبر من أكثر الأدباء العرب إنتاجا وتنوّعا في مجالات القصّة والرواية والشعر والنقدوالترجمة لأعمال أكبرالكتاب العالميين مثل فوكنر وشكسبيروالرسم والنقد الفني التشكيلي... من أين سأبدا الحديث معه؟ ابن البستاني الذي كان يعنى بحدائق " دير المحبّة للراهبات " في بيت لحم. ورث عن أبيه حبّ الزرع والبذر والعطاء والخصب لكن في حقول وحدائق الفكر والادب والإبداعوالفن...رغم أنّي بوّبت أسئلتي وقيّدتها في دفتري.

كنت بطريقي إليه في سيّارة التاكسي إستعرض مسيرة الرّجل.... رجل يولد ببيت لحم في بداية القرن العشرين زمن الإحتلال الإنجليزي 1920 من عائلة سريانية أورتودوكسيّة يدرس الإبتدائية في مدرسة طائفة السريانثم في مدرسة بيت لحم الوطنية ثم ينتقل إلى المدرسة الرشيدية بالقدس ويدرس على يدي إبراهيم طوقان وإسحاق موسى الحسيني.... ثمّ الكلية العربيّة بالقدس. حتّى إسمه فيه نغم وايقاع (جبرا ابراهيم جبرا)وهوخليط من لغات ومن ديانات فجبرا في اللغة الآرامية يعني القوّة والشدّةوإبراهيميحيل على مرجع ديني توحيدي

كيف ستكون حياته؟وكيف ستكون هذه الشخصية التي سأقابلها اليوم؟ يجيد من الصغر 3 لغات العربية والسريانية والانجليزية. حتّى أنّ روايته " صراخ في ليل طويل" قد كتبها بالإنجليزية أوّلا ثم أصدرها بالعربية في نسخة أولى سنة 1955.إضافة إلىعلمي بأنّه درس بإنجلترا وأمريكا قبل استقراره لتدريس الأدب الأنجليزي في بغداد.

عندما اجتزت باب المشتل (كما يسمّي العراقيون فللهم)الخارجي وجدته يجلس في الحديقة الأمامية على كرسيّ بلاستيكي أبيض بجسمه الممتلئ الرّخو. على يمين الباب الداخلي. يلبس طقما رماديّا خفيفا نصّ كمّ.

وجدته ينتظرني بأريحية وبشاشة ووداعة وتواضع كأنه يعرفني من زمان... كان ودودا، حنونا، فيه شيء من أبوّة ومن طفولة... دردشنا قليلا، قبل بدء الحوار، ولم يكنذلك في غير الرواية وعوالمها، بصفة عامّة. قبل أن ندخل عالم رواياته..أثناء ذلك قاطعني فجأة ورفع سبابته في وجهي

وقال لي:**" شوفي حياة إنت لازم تكتبي شي يوم الرواية "**
أحسست كأن هذه الجملة كتبت على جبيني من حينها.أوكأنما كان يقرأ جملة كتبت على جبيني.
كنت أشعر وأنا أدخل بيته، أنّني أدخل عالما كاملا، معه.
كنت ممتلئة بعوالمه الروائية وسيرته الذاتية ابتداء من "البئر الأولى " إلى "شارع الأميرات " و" صيّادون في شارع ضيّق "و"البحث عن وليد مسعود " و السفينة ....
لم يكن مجرد لقاء صحفي. كنت أحبّ أن أقترب من هذا الروائي الذي ملأت أعماله وآثاره الدّنيا وشغلت الناس والذي فُتنت بعوالمه وأحداث قصصه ورواياته...وكم تمنيت، لوكنت أنا " لمى " بطلة رواية السفينة. أولوكنت معه على ظهر تلك السفينة، التي " اصطاد " فيهاأشخاصا من كلّ الجنسيات. ووضعهم في مكان محدّد ضمن فترة زمنية محدّدة. فيهم العراقي والإيطالي والفلسطيني (وديع عسّاف) والمسيحي الذي لم يخلّصه، نجاحه التجاري وتفوقه الاجتماعي، من ذكريات سقوط فلسطين وسقوط زميله، شهيداً بين يديه: ثنائية العراقي /الفلسطيني التّي لم يستطعجبراالتخلّص منها والتّي تلازم أبطال رواياته، درامياً، بما يتجاوز الفصام إلى عمليّة التوحّد. فهوالعراقي، نجم المجتمع، الناجح، المثقّف، المسيطر، ولكنّه في الأعماق: ذلك الفلسطيني، المسيحي، الخليط من فلاح ومدني والمجروح وطنيّا، إلى حدّ أن أصبح الجرح شخصياًّ.
كنت ألامس الجرح بسؤال يجرّ إلى قصّة إلى حكاية إلى رواية... حتّى وصلنا إلى رائعته"البحث عن وليد مسعود"، التي تطرح ببذاخةحضاريّةأسئلة الكينونة والهويّة ومعنى

التفوّق. في اختفاء وليد مسعود، الفلسطيني، المسيحي طبعاً، من العراق، دونما سبب، الأمر الذي يحيّر معارفه جميعاً. لكن الجذر موجود في فلسطين. وقد برع جبرا في استخدام الموروث الدّيني وتوظيفه، في نسيج هذا العمل. كما أفاد من الإسم الأصلي لأسرته: مسعود. فالبحث عن وليد مسعود هوالبحث عن جبرا بن مسعود، وهوما يعيدنا إلى قول بعض النقاد حول هجران المدينة لإعادة إحيائها عبر الفن. فوليد مسعود لم يطلّق بغداد، ولكنّه ابتعد عنها ليعرف كيف يراها ويرى نفسه داخلها بعينيه الفلسطينيتين.

«إن القدس هي أجمل مدينة في العالم». أذكر أنّني سمعت منه هذه الجملة أكثر من مرّة... وأنا أتماهى معه في حبّها باعتبارقدسيّتها في وجداننا أيضا. وأدرك بحدسي ما للمنافي من جماليّة نصبغها على المدن.فالقدس جميلة في ذاتها، ولكنّ المنفى يضفي عليها جمالاً أخر. لأن الأشياء تبدوأكثر وضوحاً حين تغيب عن ساحة الرؤية، وتتمنّعوتمتنع عنّا وتستحيل عن متناولنا..فتلتبس بجمالٍ لا نظير له.

كنت أريد أن أعيش، من خلاله، أجواء بغداد الثقافية التي لجأ إليها بعد حرب ال 48 واختلاطه بالنخب الأدبيّة العراقيّة مثل عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السيّاب وجواد سليم وبلند الحيدري وشادل طاقة وشاكر حسن آل سعيد...في خمسينيات القرن العشرين. وتدريسه الأدب الانجليزي في جامعة بغداد، هوالقادم من جامعات كمبردج وهارفارد وخبرته كإداري ومستشار في مؤسسات النشر... فقد إرتبط جبرا ببغداد المدينة والبشر والثقافة والفن ارتباطا

وثيقاحتّى غدا من نسيج المدينة التي كانت تزخر بالوعود في كلّ شيء... فأسّس مع الفنان جواد سليم "جماعة بغداد للفن الحديث"، سنة 1951 وتولّى رئاسة "جمعيّة نقاد الفن في العراق" وكان عضواً في " اتحاد الأدباء والكتّاب في العراق" وعضوشرف في"جمعية المترجمين والفنانين العراقيّين"....

كان بيته الكبيرعبارة عن متحف للفن العراقي. تغطياللوحات جلّ جدرانه. عامرا بالرفوفالزاخرة بالكتب...وكنت أشعر كأنّنيأدخل محراب معبد من المعابد القديمة. فللفن رهبة وخشوع دائما أينما كان.
كانت تتصدّر اللوحات الفنيّة في المدخل صورة زيتية لشابّ في العشرين يداعب حصاناً. توقفنا طويلا عندها. كانت تلك واحدة من رسوم جبرا الأثيرة، عنده. وقد أطلق عليها إسماموحياً "سدير والحصان". ولم يكن سديرغير إبنه البكر. وقد تخيّله شاباً في العشرين ورسمه منذ كان طفلاً.
كان متحمسا للزّيتي تأخذ لوحاته مساحة، بين الواقعية والتعبيرية. تدور في فلك الواقعي التعبيرى. ذات لهجة بصريّة فلسطينية. وكان يشرح لي علاقته القديمة بالرّسم التّي تعود إلى بيت لحم والقدس. حيث فتح عينيه على بعض الأديرة التي كانت تشجّع استنساخ الصّور وتكبيرها لأسباب دينيّة. ومازال يذكر أستاذه الأوّل، صاحب الفضل، في تعلّمه الرّسم الفنان الحيفاوي الكبير جمال بدران الذي لفت إهتمامه إلى الزّخرفة وتشكيل الألوان.قبل أن يحقّق، وعيه التشكيلي، نقلة نوعية. حيث تعرّف، عن كثب على فن التصوير والرسم.وقدأراني أشياء نادرة جدّا حملهامعه من

بيت لحمهي لوحات رسمها على شرائح من خشب الزيتون أوالورق... أذهلتني.
فلسطين دائما وأبدا. لا تغيب عن روح أعماله الفنيّة التشكيليّة. مثلما هي مبثوثة في نثره وسرده وشعره... وتأثره الواضح بالفن العراقي الذي أثّر فيه وتأثّر به.
وكم حزنت عندما رأيت ذلك البيت / المتحف قد تحوّل إلى حطام بفعل غارة دمّرته تدميرا. في سنوات الحرب الأخيرة (2010)

كان بيته مفتوحا لأهل الفنوالأصدقاء وقد دعاني إليه في أكثر من مناسبة.وفرحت لمّا عرفت أنّه على صلة بفارس ليس لمجرد كونه المشرف على رسالة الماجستير التي يعدها حول مسرح شكسبير بل لأنّه يعتبره صديقا أيضا. وقد زرناه معا عدّة مرّات ...
عرّفني على زوجته العراقيّة الدكتورة لميعة العسكري...التّي أنجبت له ولدين سدير وياسر...وكانت تتكلّم الانجليزية بطلاقة، في حياتها اليوميّة ومع من حولها.
وذات زيارة لبيت جبرا، بعدما توطّدت علاقتنا، وكانت صباح معي. اكتشفنا أنّ "بسّام يوسف جبرا "زميلنا الطالب الفلسطيني بكليّة التصرّف. يكون ابن أخ الدكتور جبرا. ويقيم مع عائلته في بغداد أيضا. وهومن تواضعه لم يكن يستعرض ذلك أبدا. حتّى أنّنا لم نعرف به من قبل. لكن عرفنا أنّه سيتزوج عراقيّة عن قريب وكانت موجودة حينها معنا: فتاة في غاية الجمال والرّقة.
كما تعرّفنا إلى العائلة الكبيرة وإلى " أبوبسّام" شقيق جبرا الأستاذ يوسف وزوجته: هذه العائلة الوفيّة ظلّت تسأل عنّي

وتزورني في القسم الداخلي طوال إقامتي ببغداد. وبقينا على صلة حتّى عندما عدت إلى تونس.وبعد تخرجي دعيت للعراق في مؤتمر من المؤتمرات كصحفيّة، ففوجئت بعائلة الأستاذ يوسف جبرا تزورني في فندق المنصور الذي كنّا ننزل فيه. جاءني هووزوجتهواستقبلتهما في اللوبي ليبلغانني كامل اعتذارات الدكتور جبرا لأنه مسافر وقد أوصاهما أن يزوراني بدلا عنه.لأنّنيكنت قد أخبرته من قبل أنّني قادمةإلى بغداد في ذلك المؤتمر، وقد سرّ كثيرالعودتي.
منتهى الكرم والأخلاق والحفاوة العالية، منهم، لن أنساها أبدا. وقد حضرنا أنا وصديقتي صباح زواج بسّام في الكنيسة في بغداد بدعوة من الدكتور الذي رحّب بنا كثيرا... وأذكر أنّه التفت لي قائلا في غمرة الإحتفاء:"عقبالك حياة " قلت له " شكرا لكن موبالكنيسة دكتور هههه " وكنت أوّل مرة أحضر مراسم زواج في الكنيسة إذ لم يكن لدينا في تونس مسيحيون ولا نعرف الزواج في الكنائس. فردّ عليّ مازحا: "بالكنيسة أوبالجامعومهم. المهّم أن تتزوّجي عن حبّ." وظلّت كلمته ترن في أذني إلى الآن.
هوالمسيحي الأصل قد تحوّل إلى الإسلام كي يتمكّن من الزّواج من حبيبته المسلمه لميعه العسكري.

الفصل الواحد و العشرون

مع الدكتورعبد الرّحمان منيف

أمّا علاقتي بالروائي عبد الرحمان منيف فقد بدأت بحوار صحفي أيضا. ثم توطّدت وأصبحت عائلية. فقد انسجمت بسرعة مع زوجته سعاد كونها خرّيجة الفلسفة أيضا. وقد وجدت أنّها امرأة مختلفة، في تفكيرها وسلوكها، بعيدة عن صنف النساء التقليديات، فأحببتها وانسجمنا وصرنا أصدقاء يجمع بيننا السؤال الفلسفي والحيرة الوجودية.
من ناحية أخرى اكتشفنا، أن صديقتي، صباح السّورية، على صلة قرابة، مع الدكتور منيف، كما أسلفت ذلك أن إمرأة خالها السيّدة " حصّة منيف " السّعودية هي أخت عبد الرحمان منيف.ولما عرف الدكتور ذلك أراد رؤية جهاد أيضا شقيق صباح اللّاجئ السيّاسي في بغداد. وعزمنا ثلاثتنا عنده على الغداء يوم الجمعة.... وأمرنا بأن نأتي كلّ خميس وجمعة لننام عندهم، أنا وصباح، كنوع من الرّعاية والأبوة لفتيات الدّاخلي المغتربات. ولمّا تململنا خجلا من كرمه وأردنا أن نعتذر منه. تدخلت زوجته قائلة:" أوامر الدكتور لا تناقش " لترفع عنّا الحرج وتحسم الأمر. وكان للدكتور هيبة وكلمة مسموعة وكاريزما... وإذا قيل:" جاء الدكتور " يصمت من بالبيت، وتتبدّل أحوالنا، ونلتزم الصّمت، ولا نتكلم إلاّ إذا خاطبنا، حياء وإحتراما، كأنّنا في حضرة جنرال. أمّا في بعض سهرات الخميس، التّي

قضيناها عندهم، فيتحوّل" الجنرال" إلى إنسان لطيف ودود يسمعنا كثيرا من الشعر والملح والمزح... وكانت له إبنة، نسيت إسمها، لها ثلاث سنوات، تقريبا،حينها. ولكنّني لا يمكن أن أنسى تلك الطاقة التّي كانت لها في سرد الحكايات والخيال الخلاّق الذي تملكه. كانت تندسفي حضني، على كنبة قاعة الجلوس، مثل قطّة أليفة، وتبدأ في سرد حكايات لا تنتهي.... حتّى أتعب أنا، وأكاد أنام على الكنبة ولا تتعب هي. عقلها مصنع خلّاق، من القصص التّي تبتكرها وترتجلها، لا تشبه فيها قصّة أخرى أبدا...طفلة خرافية الحكي والسّرد. وهل أعجب من إبنة أكبر روائي عربي؟ تحمل السّرد والخيال الخلّاق في جيناتها.

وكثيرا ما كنّا نلتقي، بعائلة جبرا ابراهيم جبرا عندهم. ذلك أنّ الروائييْن كانا على علاقة صداقة، وطيدة وعميقة. وقد كانا يكتبان حينها رواية مشتركة هي: " عالم بلا خرائط " قرأتها فيما بعد بكثير من الفضول والحيرة لأعرف متى يكتب منيف ومتى يكتب جبرا؟ لكن التناسق والتشابك الفنّي لهذه الرواية، كان على درجة عالية، يستحيل معها التصديق بأن هذا العمل مؤلف من قبل كاتبين إثنين. وهي ربّما من الأعمال الأدبية النادرة على مستوى العالم العربي التيتكتب من طرف شخصين اثنين (1982) وبقيت ألّح في السؤال، الذي كان يحيّر النقاد والصحافيين حينها أيضا، حتّى صرّح لي الدكتور منيف ذات مرّة باختصار شديد هامسا متكتّما:"كلّ واحد منّا كتب فصلا". ولم يزد. وكانا متحفظين على طريقة كتابتها. وقبل ذلك كانت روايات:" الأشجار واغتيال مرزوق " أولى

روايات الدكتور منيف كتبها سنة (1973) ثم قصّة حبّ ماجوسية (1974) وحين تركنا الجسر (1979) والنهايات (1977)وخاصّة " شرق المتوسط(1975) للدكتور منيفوسباق المسافات الطويلة(1979)
تلفت اهتمام النقاد والقراءكأخطر ما كتب عن الأنظمة القمعيّة العربيّة. نقرأها ونعيد قراءتها ونتبادلها فيما بيننا لجرأتها، في طرح موضوع، التعذيب، في السجون، الذي تمارسه الانظمة، الشمولية، العربية، في المنطقة وفي شرق المتوسط.
ولا تزال بعض جملها ترن في أذني إلى الآن:**" نحن الذين خلقنا الجلاّدين ونحن الذين سمحنا لهم بتعذيبنا، من خلال تساهلنا وتنازلنا عن حقوقنا. ومن خلال إستسلامنا لمجموعة من الأصنام والأوهام... ثم لمّا أصبحنا الضحايا لم نعد نعرف كيف نتعامل مع هذه الحالة "**
كما صدى كلمات رجب، بطل الرواية، المناضل، مازالت عالقة بذهني وهويعذّب حدّ الموت تحت كرسيّ الإعترافويقاوم حتى يخرّ جسده..... وهويردّد في أعماق نفسه:" الصّدق مذلّة الصّدق عار"

حتى جاءت " عالم بلا خراط" التّي كتبت ما بين 1979 و1980
وقد كان إسمها "عموريّه" في الأوّل حسبما كنت أسمع عنها في بيتالدكتور منيف باسم عموريّة وهواسم المدينة التّي اختاراها كمكان لأحداث الرواية وهي مدينة غير موجودة أصلا إلاّ في خيالهما. أراداهاكذلك،لتكون كلّ مدينة في العالم يحدث فيها ما يحدث.

كانت فكرة كتابة رواية مشتركة بين منيف وجبرا قد جاءت كعفوالخاطر من الدكتور عبد الرحمان الذي كان يشرب القهوة في بيت جبرا على عادته كل صباح جمعة حيث يلتقي الكاتبانوكان الحديث يدور حينها حول رواية جبرا "البحث عن وليد مسعود" الصادره حديثا ورواية منيف " سباق المسافات الطويلة" التي صدرت بعدها فإذا بعبد الرّحمان يخرج عن سياق الحديث ويقترح:" جبرا. ما رأيكفي أن نكتب أنت وأنا رواية مشتركة؟"

ويتحفّز جبرا بعفويته المعهودة وحماسته لكل فكرة جديدة:" والله فكرة حلوة."

بشهادة الناقد، ماجد السمرائي، الذي كان حاضرا، في هذا اللقاء والذي أسرّ لنا، في الجريدة أنّ مشروعا، جديدا، سيخرج قريبا، في شكل رواية، بين الكاتبين...وبذلك يكون ثالث تجربة مشتركة في الأدب العربي الحديث، بعد تجربة طه حسين وتوفيق الحكيم. وعبد السلام العجيلي وأنور قصيباتي.

وعندما سألت الأستاذ ماجد كيف كتباها؟

قال يبدووحسب ما اطلعت عليه، (لأنّهما متكتمان على هذه التفاصيل) أن واقع الكتابة فيها جرى بالتناوب: يكتب جبرا بضع صفحات، فيأخذها منيف ويواصل الكتابة، ثم يعيدها إلى جبرا ليكمل... وهكذا، حتى اكتملت الرواية التي أخذ منيف مسودّاتها واحتفظ بها لنفسه بعد أن استنسخها كاملة بخطّ يده، وأعطاني نسخة مصوّرة عنها كما كتبها بقلمه هو."

وكان كلامه مشابها لما قاله لي الدكتور منيف أنّهما كتباها فصلا فصلا تقريبا.

الفصل الثاني و العشرون

شبهـــــة التقاريــــــر

في مجال الصّحافة دائما، عشت تجربة أخرى، مع مركز إتحاد إذاعات الدّول العربّية الذي كان مقره في بغداد حينها. والذي يشرف عليه الدكتور "نوّاف عدوان" وهوبعثي، من أصل سوري، درزي، لاجئ سياسي في العراق.... بيته مفتوح دائما لكلّ الأصدقاء. كأنه فندق، ينزل عنده كلّ الضّيوف من معارفه أوحتّى من معارف معارفه... يقيم العزائم والسّهرات الكثيرة... وتعيش معه بصفة دائمة، بعض قريباته الطالبات، من بنات بلده، الدرزيات. في نمط عيش متفرد ومتمرّد عن البيئة التقليدية العراقيّة. كان متزوّجا من فرنسيّة وله صبيّة منها، تعيش مع أمّها في فرنسا ولم نرها أبدا ولكنّه كان يسافر لها كثيرا. يتكلّم الفرنسية بطلاقة. ويحبّ التوانسه كثيرا. بعدما عاش بعض

سنوات في تونس وربّما هذا ما قرّبنا منه... كان يدعوني دائما، إلى الندوات والمؤتمرات التّي يقيمها الإتّحاد في بغداد. ومرّة كلّفني بمهمة إعلامية إلى الأردن وتحديدا إلى إذاعة عمّان بالذات. وهناك تعرّفت إلى الأستاذ "سليمان خير الله" مدير قسم الأخبار بإذاعة عمّان حينها. وحينما أنهيت مهمّتي على أحسن وجه، اقترح عليّ مدير الأخبار العمل معهم. حيث انتدبني كمراسلة إخبارية لإذاعة عمّان من بغداد: أوافيهم بتقارير صوتيّة وكتابيّة عن أهمّ الأحداث السياسيّة التي تجري في العراق. وكنت أجد صعوبة في الإتّصال بهم، كطالبة، لا تملك مكتبا، ولا هاتفا خاصّا بها. فكنت أذهب إلى دار الجماهيرللصحافة والإعلام وأبعث لهم بعض المراسلات بالفاكس من هناك. وكنت أوّقع تحت كل نصّ " حياة الريّس " كما كان يختزلاسمي في الشرق. وفي يوم من الأيّام، جئت الى الدّار، صباحا، كعادتي. فأوقفني مشرف الإستعلامات، معتذرا، لأنّي ممنوعة من الدّخول. وعندما استوضحت الأمر. تبيّن، أنّني متهمّة، ببعث تقارير، عن حياة الريّس. يعني عن حياة الرئيس، صدام حسين إلى الخارج... وماجت الدّنيا وراجت.... صرت أضحك ولكن مخلوعة القلب: لتفاهة التباس الموضوع، من جهة. وخوفا من المخابرات العراقيّة، من جهة أخرى، التّي لا ترحم. حتّى شرحت لهم الموضوع بتفاصيله.... لكن المسألة لم تمرّ على خير. وصل الأمر إلى القيادة القوميّة. ووقعت دعوتي إلى هناك. وتأسّف المسؤول الذي كان يستجوبني أنّني لست "منتمية " وأفهمني أنّني لوكنت منتمية إلى حزب البعث، لما صار سوء التفاهم هذا.

لأن الحزب بمؤسساته الإعلاميّةله ثقة في أعضائه. ويستطيع أن يدافع عنهم وقت الحاجة وينقذهم...
وأذكر أن عضوالقيادة القطرية السّورية، إستدعاني إلى مكتبة، في إستجواب خاصّ. وسألني عن علاقتي بنواف عدوانالسّوري؟وإن كانت هناك علاقة خاصّة بيننا؟ ووعدني أنّه سيقرّب بيننا أكثر، وأنّه سيسهّل لي حتّى أمر زواجي به... إن أنا أفدته ببعض أسراره المخفيّة وأخبرت عن تحركاته.... وأنا ذاهلة لا أكاد أصدّق الفلم الذي أقوم ببطولته دون أن أدري... تماسكت،وأفهمته ببساطة شديدة وعفوية أن لا علاقة خاصّة لي بالدكتور عدوان.وهوشخص واسع العلاقات وبيته مفتوح للجميع ولا يربطني به غير العمل. وكونه يحبّ تونس التّي عاش بها زمنا ويحبّ التوانسه.... أمهلني الرّجل يومين لأفكر جيّدا فيما عرضه عليّ؟ وهويزيّن لي أمر الزواج من الدكتور عدوان، ويغريني به...
لمّا خرجت من مقرّ القيادة، رحت مباشرة إلى فارس الذي كان ينتظرني بالكليّة، على أحرّ من الجمر. وجدته أمام البوّابة. أوّل ما رآني أوقف سيّارة تاكسي وأخذني من يدي وركبنا معا. قال للسائق: " مطعم الصنوبر بالكراده لوسمحت عمّو." ففهمت أنّه يريد أن نبتعد..كان يأخذني إلى هذا المطعم عندما نريد أن نبتعد عن الطلبة والوجوه التي نعرفها في المطعم اللبناني مثلا.
هناك أخبرته بتفاصيل كامل اللّقاء كلمة كلمة..قلت له عضوقيادتكم، القطريّة، السوريّة، يريد أن يسهّل أمر زواجي من ابن بلدك نوّاف عدوان. وكان فارس يعرف نواف جيّدا ويعرف علاقتي به وكنّا نزوره سويّة أونلتقى

عنده في عزائمه وسهراته... ضحك فارس وقال لي: "كان الأولى أن يسهّل أمر زواجي بك لوكان ذكيّا". قلت له فعلا هوغبيّأويستغبلأنّه يعرف جيّدا أنّ نواف درزي والدروز لا يتزوجون إلاّ من بعضهم. وفعلا قد عرفت بعد سنوات عديدة أنّ نواف تزوّج من صديقتنا " تغريد " ابنة بلده الدّرزية وانتقلا الى العيش معا في تونس.
...ثمّ طمأنني فارس أنّ أمر هذه المشكلة سينتهي تماما. وأنّني لن أحتاج حتّى العودة إليه. وتدخّل فعلا بمعارفهوعلاقاته وموقعه في الحزب وانتهى المشكل بسلام.

لكنّني واصلت شغل المراسلة مع إذاعة عمّان، لمّا توّضحت الأمور. حتّى لمّا عدت إلى تونس بعد تخرّجي. وكنت سعيدة بهذا الشّغل إذ أنّني كنت أُعتبر موظّفة في إذاعة عمّان. لي راتب قارّ أذهب لإستلامه كلّ شهر، من عمّان بحوالي 100 د. وكنّا ننعم به جميعا...كنت آخذ معي صباح وبعض صديقات أخريات ونذهب إلى عمّان نستلم الرّاتب، ننفقه في المطاعم والسهرات وبعض الهدايا والحاجيات... ونعود إلى بغداد فرحين مسرورين مزهوين بحياتنا.

لا يمكن أن أنهي هذا الشريط الخاصّ بذكريات عملي الإعلامي في بغداد. دون أن أذكر مجلة "فنون " العراقية ورئيس تحريرها الدكتور "محمد الجزائري" رحمه الله الذي أكرمني جدّا بالتعاون معه: فتح لي أبواب المجلة ومنحني شرف الكتابة في الصفحة، الأخيرة، عدّة مرّات...كان شخصا ودودا دمث الأخلاق عليه كثير من الوقار والإحترام... كان كلّما دخلت عليه مكتبه يقول لي:" كم

تشبهين " نتالي وود " الممثلة الأمريكية ويخاطب ضيوفه الموجودين عنده بالمكتب ألا ترون معي ذلك؟" وأضحك أنا وأقول له:"ليتني محظوظة وموهوبة مثلها بالتمثيل ومن نجوم هوليود فعلا ههههه"

الفصل الثالث و العشرون

عراق الحبّ والحرب

في السّنة الأخيرة، من دراستي الجامعيّة، في بغداد، سنة التخرّج، اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، في شهر سبتمبر، الذي صادف أوان العودة الجامعيّة.

..كانت بعض المناورات والإشتباكات الحدودية بين العراق وإيران قد قامت منذ شهر مايو1980 وكنا في الأيام الأخيرة من الدّراسة ولم نكن نتصوّر حينها أنّها ستتطوّر إلى حرب شعواء.

في شهر سبتمبر من تلك السّنة كنت أستعدّ للعودة إلى بغداد بعد العطلة الصّيفيّة كالعادة من كلّ سنة وقطعت تذكرة السّفر، قبل رحلتي بوقت قصير.

في ذلك الشّهر بالذّات شهر سبتمبر، الّذي لا ينسى كانت قد

تطورت الأحداث واشتدّت حدّة المعارك الحدوديّة، واتّهم العراق الإيرانيين بقصف البلدات الحدودية العراقية واعتبر ذلك بداية للحرب.
إثر تلك الإتّهامات، أعلن الرّئيس العراقي الرّاحل صدّام حسين يوم 17 سبتمبر، إلغاء إتفاقيّة الجزائر الّتي أبرمت سنة 1975 (والّتي تنصّ على أنّ منتصف شطّ العرب هوخطّ الحدود الفاصل بين إيران والعراق) وأعتبر صدّام حينها في إعلانه: أنّ مياه شطّ العرب بكاملها عراقيّة. كما أعلن سيادة العراق على كامل أراضيه، لتعبر بعدها الوحدات والتّشكيلات البريّة العراقيّة في 22 سبتمبر الحدود الدوليّة المشتركة مع إيران ولتهاجم أهدافا في العمق الإيراني.
ردّت إيران بقصف أهداف عسكريّة وإقتصاديّة عراقيّة... واشتعلت الحرب، لتتحوّل الحدود بين العراق وإيران، مسرحا لأطول حرب، شهدها القرن العشرين... ولتكون الحرب الدمويّة الأكبر في منطقة الشّرق الأوسط.
أثناء ذلك أغلق المطار: مطار صدّام حسين الدّولي وتعطّلت الحركة الجويّة، ممّا زاد الطّين بلّة وتعقّدت الأمور أكثر معي وتعطّل سفري العودة إلى الجامعة، فالعراق قد أصبح رسمّيا في حالة حرب.

حيّرتني العودة إلى بغداد كيف ستكون؟ واحترت ماذا سأفعل؟ هل أنتظر أن يفتح المطار؟ أن تنتهي الحرب؟ هل أقبل بسنة بيضاء؟ هل أغيّر الجامعهوبلد الدراسة؟ وذلك يعني تغيير حياتي كلها.

لم أكن مهيّأة نفسيّا لأي تغيير، سيما وأنّي شعرت، بأن أيّ تغيير أتّخذه سيكون تنكرا وخيانة أمام نفسي للبلد الّذي درّسني وفتح لي جامعاته، أن أتولّى وأتحوّل عنه بمجرد أنّه دخل في محنة. كان الأمل في تجاوز كلّ هذه الأسئلة، أن يفتح المطار بعد أيّام وأعود لبلدي الحبيب ولجامعتي.
لكن مرّت الأيّام والأسابيع... ولم يفتح المطار ولم تتوقّف الحرب (التي دامت 8 سنوات. لا أحد كان يصدق ذلك) وكنت قد وصلت إلى مرحلة من القلق والإنتظاروالفراغ والمصير المجهول لا تطاق.
كنت أعيش حالة توتّر مع عائلتي القلقة على مستقبلي، الحائرة أمام هذا الوضع المفاجئ للعراق الشّقيق. أبي قلق يتابع الأخبار بإستمرار، مسمّر أمام نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونيّة.
أمّي صامتة حزينة: لا هي تفرح لبقائي بجانبها ولا نفسها تطاوعها أن تثنيني عن الجامعة.
رغم كل ما عانته من عذابات فراق إبنتها البكر... وكم ذرفت من الدّموع وكم كابدت ألم البعد منذ أول سنة سافرت فيها... هي تواصلكعادتها صبرها وتجلّدها أمام هذا القدر الأحمق لأجل حرّيتي ومستقبلي.
وأذكر مع كل ما عشناه من قلق وتوتّر لم يفكر أحد منهما (أمّي وأبي) أن يقترح عليّ تغيير بلد الدراسة أوالبقاء بتونس كحل مؤقّت. بقيا صامتين ليتركا لي حريّة الإختياروالتصرّف.
مع كلّ ما أنا فيه، كان هناك أمر آخر يحيّرنيِ:" وجه مدينتي؟ ترى كيف أصبحت بغداد بعد الحرب؟ (ولم أكن قد عشت الحرب قبل ذلك). ترى كيف هي الصّباحات ببغداد؟

هل تغيّر طعم القهوة؟ هل ذهبت تلك النّكهة الصباحيّة؟ هل مازال النّاس يعزمون بعضهم بعضا على استكانات الشاي في كل خطوة وعند كل كبيرة وصغيرة كمدخل للونسةوللثرثرة؟ ... هل مازال العشّاق يتهامسون بشوق في شارع أبي نواس: (شارع العشّاق) ... كيف يسير النّاس في الشّوارع أيّام الحرب؟ هل يتزاورون كالعادة؟ كيف يتصرفون في بيوتهم؟

كنت أتابع النّشرات الإخبارية المرئية وأتلصّص على وجه مدينتي. علّني أقف على تفاصيل الحياة فيها. أنزلق بين الكلمات والصّور وأراوغ وجهة الحدث لأظفر بركن أووجه من وجوه أحبّتي... أعرف منه كيف أصبح وجه مدينتي؟ هل مازال النّاس يتنزهون في الحدائق: في الزوراء ومدينة الألعاب، (أين كنا نسرح ونمرح). والوزيريّة؟ كيف هي منطقتنا؟ هل مازال العشّاق يخرجون ليلا،شبّاناوشابات من الأقسام الدّاخلية لطلبة الجامعه. يلتقون عند نزلة الجسر الحديدي؟ يتنزهون في الشّوارع والأنهجالجانبيّة. اليد في اليد أومتعانقين... وباسل الجسور الّذي يكسر مصابيح الكهرباء بمصيدة العصافير لتنتشرالعتمة في ليالي "الوزيريّة " ليظفر بقبلة مسروقة من حبيبته خلف أشجار الكاليبتوس الوارفة....
آهيا ليالىالوزيريّة، العاشقة، هلمازلت تعبقين بشذى شبّوالليل، بزهورهالصّغيرة،الزرقاءأوالبنفسجيّة، الّتي تنمو، على سيقان، مستطيلة، لا تتفتّح إلاّ بعد المغيب، لتنشر شذاها، الذي يدّوخ الألباب، للسّهرانين والعاشقين؟

وأشجار اللّيمون والنارنج: القدّاح، تغطي رؤوسها الزّهيراتالبيضاء الأولى وقد تفتّحت معلنة الرّبيع. كم استظللنا بظلّها، من الشّموس الحارقة بالنّهار وكم ملأ عبقها ليالينا ونحن نقطعها عائدين من سهراتنا بمطعم الأعظمية أومن روابط الطّلبة السّوريين أواللّبنانيّين يشيّعنا أصدقاؤنا الشّباب حتّى باب المبيت.

هل مازال هناك وقت للفرح؟ أم أنّ الحرب تجرف كل شيء معها؟ وتقضي على الأعياد والزّينة... أرى مشاهد القنابل والحرائق وأتساءل: ترى هل الحرب هيَ زلزلة كيان الإنسان من الداخل؟ وتدمير إحساسه فعلا؟ وهل تمنع الحرب النّديم من شرب كأس مع نديمه؟ وتمنع الخليل من البوح بحبّه لخليله؟ هل تستطيع الحرب القضاء على الحبّ؟ أم أنّ الحبّ يتأجّج زمن الحرب؟ هل يتزوّج النّاس وقت الحرب...والجنود في الجبهة هل يبعثون (كما في الأفلام) برسائل الحبّ لحبيباتهم وأمّهاتهم وزوجاتهم.... ترىترىترى...؟ معذّبة بتفاصيل كلّ ذلك،وأكاد لا أتبين وجه مدينتي؟

لكنّ قلبها كان يناديني ويحدّثني بأخبار غير تلك الأخبار الّتي يأتي بها المراسلون الرّسميون من الجبهة. أخيرا اتفقت أنا وقلب بغداد أن نلتقي.

حملت حقائبي وقصدت المطار: مطار تونس قرطاج الدّولي ومنه إلى مطار عمّان الدّولي. بعدما عرفت أنّ النّاس يدخلون إلى العراق من عمّان عن طريق البرّ. في المطار كان بي إحساس بائس وموجع: كل النّاس ذاهبون إلى مدن الحياة إلا أنا مسافرة إلى مدينة الموت.

ولكن مدفوعة بقوة الحياة أيضا.
نزلت مطار عمّان ومنه بحثت عن محطة الحافلات الّتي ينطلق منها المسافرون إلى بغداد. وبعد عناء طويل ورحلة عذاب وصلت وأنا أجرجر حقائبي الثقيلة، محطّة الحافلات المكتظّة بالمسافرين العراقيين العائدين إلى بلدهم وأهلهم وأرضهم... كنت التونسيّة الوحيدة الرّاجعة إلى بغداد.
ما إن رأيت إسم بغداد على الحافلة، حتى تحاملت على نفسي وجمّعت ما بقي فيَّ من قوّة وصعدت الحافلة،مرهقة، يكاد يغمى عليَ من التّعب، لأرتمي على المقعد الخلفيّ، المستطيل. ورحت في شبه إغماءة... لكنّني كنت أشعر بكوكبة العراقيّين حولي رجالا ونساء يغمرونني بعطفهم وعنايتهم... وبالكاد فهموا مني أنّي طالبة تونسيّة عائدة إلى بغداد.ومهما حدث لن أنسى أولئك الّذين اعتنوا بي منهم،فالّذي كان يأتيني بقنينة ماء،والّذي ناولني الساندويتش والّذي أتاني بكبّاية شاي... والحجيّة الّتي جلست (يمّي) وجعلت رأسي على ركبتها ويدها على رأسي... لا يمكن أن أنسى ذلك السّخاء وذلك الحبّ أبدا...
وانطلقت الحافلة العائدة بالعراقيّين إلى أرض الوطن وكنت وحدي العائدة إلى أرض النّبض والقلم. وظلّ العراقيّون كلّ شوي يعودونني، يتنقّلون من مقاعدهم الأماميّة ويرجعون للحجيّة يسألونها عن أحوالي؟ وكانت تردّد: " خطيّة طالبة عربيّة. إجّتي من تونس على مود تكمل دراستها بالعراق. خطيّة،ما تقبل تعوف العراق بهالظروف ". وكانت تدمع عيناي لسماع كلماتها، الّتي لم أستطع أن أقولها، والّتي كانت أقوى وأحّن مما لوكانت تخرج من فمي. أحسست حينها أن "عشتار": الأمّ الكبرى، هي التّي

تتكلّم...وأنّنيأغفوعلى ضفّة نهردجلة...تحتضنني حضارة بلاد الرافدين...
بروحي تلك الأرض... ما أعظم اللقاء والذكرى...

وصلت بغداد أخيرا. أخذت تاكسي مباشرة إلى القسم الدّاخلي الرّئيسي بالوزيريّة: سكننا المعتاد. وأنا أفكر: ترى هل سأجده آهلا كالعادة بالبنات أم سأجده مقفرا؟ هل سأجد كلّ صديقاتي وبنات غرفتي صباح ونوّال نهى؟ ... وصديقاتي التّونسيّات منية جلال ومنية الجزيري؟ ممن التحقن بالدّاخلي في السّنة الأخيرة.
لمّا وصلت لم أجد إلاّ بعض الفلسطينيّات واللبنانيّات والتونسيّات ممّن لم يغادرن السّكن بالصّيف ولم يعدن في العطلة إلى تونس نظرا لغلاء التّذكرة وبعد المسافة. وكلّ البنات القريبات من سكّان الكويت والأردن وسوريا لم يعدن: صباح ونوّال ونهى. حزنت لعدم وجودهنّ. وتجمّعنا نحن التونسيّات في غرفة واحدة بالطابق الثالث الغرفة 51 غرفتي السّابقة، أذكرها كما الآن. وبدأن يقصصن عليَّ أخبار القصف والحرب والرّعب وأثار القذائف...ثمّ أخذنني إلى البلكونة حيث أثار سقوطبعض القذائف على زاويتها اليمنى الإسمنتيّة المنخورة، السوداء... والحمد لله أن لم يكن بها أحد حينها. تلك البلكونه التّي احتوت سهرنا وفرحنا وثرثرتنا وأسرارنا وضحكاتنا ومراجعاتنا اللّيليّة حول إبريق الشّاي وحول العشاء...الآن لم يعد أحد يستطيع الجلوس بها. سوداء عليها أثر الرّصاص، خربانة، مهشّمة، كقلوبنا...

كان القسم الدّاخلي حزينا وموحشا وخاليا من بهجة الحركة الدائبة...
سألت عن الكليّة إن كانت مفتوحة وعن سير الدروس؟
قيل لي: أنّ الكليّة مفتوحة والدوام متقطّع، حسب الغارات وحسب القصف على بغداد.لم يكنهناك حديث إلاّ على الغارات وآثارها...
من الغد ذهبت إلى الكليّة: كليّة الآداب، بنفس مجمّع السّكن الدّاخلي. كان الجوّخانقا وحارّا ورائحة الإسفلت والقطران تغزوالمكانوالجدران سوداء عليها أثر الرّصاص... والأحبّة قد رحلوا والأصدقاء قد التحق بعضهم بالجبهة (ومنهم بعض التونسيّين) والبقيّة قد تطوّع في الجيش الشّعبي الذي لعب دوراً كبيرا أيّام الحرب، وقد كان يشرف عليه القيادي طه ياسين رمضان، نائب رئيس الجمهوريّة، مباشرة. ولكن الدّروس كانتتسير رغم كلّ ذلك ولوسيرا متقطعا.
وتطوّعت بدوري مع البنات في العمل الشّعبي في دائرتي: في الوزيريّة ودائرة الأعظميّة. وكنّا نتدرّب على الإسعافات الأولية ونطبخ للجيش الشّعبي ونمرّض الجرحى...
طبعا لم نعد نتمتّع بالكهرباء طوال الليّل والنّهار. وكم درسنا على ضوء الشّموع وعلى صوت القنابل في الملجأ الّذي ننزل إليه عند صافرات الإنذار.
ومرّت فترة كان "الخميني" يبعث لنا صواريخه كلّ فجر دون أن يخلف لنا موعدا. وكانت صافرات الإنذار تصحّينا عند الفجرونحن في عزّ النّوم. ولا تهدأ حتى تقتلعنا من دفء فراشنا وتسحبنا من تحت أغطيتنا، بنذيرها الملحاح. وما ترى حينها إلاّ أبواب الغرف قد فتحت وهبّت منها الصّبايا الطالبات في قمصان النّوم، منفوشات الشّعر،

حافيات الأقدام، منتفخات الأعين، منخلعات القلوب...لاعنات الخميني المجرم ألف مرة.... مبعثرات في الأروقة، راكضات في الدّرج من الطّوابق الأربعة حتّى الأسفل حيث الملجأ...
أمّا أنا فقد كنت حرونا. لا أريد أن أنزل ولا أن أغادر فراشي، مهما صرخت صافرات الإنذار...يركبني حينها عفريت عبثي: أموت ولا أفسد نومي. وكانت بنات غرفتي بين الهلع والفزع يصرخن بي دون جدوى. ويصعب عليهنّ تركي للقصف والقنابل ويحترن في أمري... وكانت منية جلال تأخذني برفق وحنوّ، كأمّ لا تريد أن تترك ابنتها. وتأبى أن تنزل إلاّ معي. فتصعب عليّ وأقوم متهالكة إكراما لها فقط. وكانت صديقتي المفضّلة، بين التونسيّات. كنت في هذه الحالات وعندما تشتدّ لعلعة الرّصاص في الجوّ، أفقد الإتّجاهات وأفقد توازني وسط العتمة والهلع. فكأنّما تصيب موطن الذّاكرة في الرّأس... فأصعد الدّرج، عوض أن أنزل وأنحرف يمينا، بدل أن أتّجه شمالا. وقد أتعبت البنات، في تدهوري بين الطوابق... وهنّ يصوّبن إتّجاهي، ممّا يعطّل حركةوسرعة النّزول إلى الأسفل.وقدإشتدّ صراخ صافرات الإنذار واختلط بدويّ صوت القنابل وأزيز الطائرات، فوقنا...
وبعد أيّام كأنّ صديقتي منية جلال قد وجدت الحلّ لمعضلتي. فصارت تجعل نفسها ورائي دائما. لتقوم بدور الدّليل، الملتزم بي، الملازم لي وهي تصرخ عند كل منعطف:" حياة... تحت... يمين...شمال... يمين... شمال...تحت... " حتّى نصل الملجأ تحت الأرض.

وكنّا نذكر ذلك المشهد بعد كلّ غارة وإلى الآن ونهلك من الضّحك.
وأوّل يوم وصلنا فيه إلى قاعة الملجأ وجدنا أرضيتها، قد فرشت بسجّاد، جديد، سميك، أخضرلامع، كأنّه العشب، فخم، وثير ومغر بالإرتماء فوقه... فانبطحنا، نحن التونسيّات من حينها عليه، لنكمل نومنا... ولم نهنأ بنعيم دفئه، حتّى جاءنا صوت صديقاتنا اللبنانيّات والفلسطينيّات ممّن خبرن الحرب. وهنّ واقفات، ملتصقات بالحائط. يصرخن بنا خوفا علينا: " لا. لا. ما بيصيرهيك. إنتمالتونسيّات،تعالوا مثلنا لصق الحائط. واقفات وقت الغارة لا منبطحات أرضا.ما بيصيرهيك. هذا خطر عْلَيْكن." وكان واضحا، أنّنا لم نعرف ولم نخبر، الحرب من قبل. فنقوم مكرهات، متثاقلات، آسفات على رفاه سجّاد الملجأ وكأنّنا حرمنا من رخاء وقت الشدّة. ونلتصق بالحائط مثلهنّ.

أذكر، أوقات الغارات أيضا، بالنّهار، عندما أكون بالشّارع وتباغتنا غارة وتدوّي طلقات الهاون فوق رؤوسنا وتصبّ الطّائرات الإيرانيّة، عناقيد القنابل والمتفجّرات، فوقنا، لتدكّ بها البيوت دكّا.... أنفصلُ عن الوجود وأخالني في فلم رعب، عن الحرب، تختلّ ركبتي اليسرى، بشدّة، حتّى لم تعد تحتملني وتوقعني أرضا... وتتملّكني، نوبة ضحك هستيري، من شدّة أصوات القصف، المزعزعة للكيان. لا أستطيع السّيطرة عليها...ومرّة تفطّنت لي، سيّدة عراقيّة قريبة منّي، وقت الغارة، على بغداد. فجرّتني جرّا حتّى جلست بي تحت شجرة وسقتني ماء من زجاجة بيدها...

ومن ذلك الوقت وأناكلّما أرتعب أويباغتني شيء مفزع، أغرق في هستيريا من الضّحك وأكاد لا أتماسك.

الفصل الرابع والعشرون

موكب سريالي للحبّوالحربوالحرّ

كنا مجموعة طالبات، تونسيّات: منية جلال ومنية الجزيري وسلوى التارزي وأنا. وكان لنا صديق، طالب تونسي هوأحمد السّالمي، نعزّه كثيرا ونقدّره أكبر تقدير. كان بمثابة الأخ الأكبر لنا. يرعانا ويسهر على راحتنا، خدوما جدّا، كلّما احتجنا شيئا..كان الأسرع في الإتيان به، ممّا يخجلنا في كثير من الأحيان... وكان أحمد يعيش قصّة حبّ منذ سنته الأولى، في الجامعة مع سمر الطالبة العراقيّة... ولكنّها قصّة مأساوية. ذلك أنّ والدها لم يقبل أبدا فكرة ارتباط إبنته بطالب، غريب، وحيد في العراق، ليس له أهل ولا شغل... وما كان ذلك إلا ليزيدهما إصرارا وتعلّقا ببعض. وفي نهاية السّنة الجامعيّة: سنة التخرّج بدأ الوضع يتأزم أكثر: إذ أحسّ كلّ منهما، أنّ النّهاية قرّبت وأنّ المصير مازال معلّقا بيد الأب الرّافض للزواج. جاءنا أحمد، وطلب منّا، أن نذهب إلى بيت سمر ونخطبها له من أهلها بصفة رسميّة. ما دام ليس له أهل فيالعراق وبما أنّنا بمثابة أخواته وأكثر. لعلّنا نستطيع أن نقنع الحجّي بأمر الزواج وكانت الحرب على أشدّها. في شهر جوان (يونيو) والحرّ على أشدّه والجوغير مناسب أبدا. لكنّنا لم نكن نستطيع أن

نرفض لأحمد طلبا. إذ كنّا نعيش معه أزمته، مع سمر التّي أحببناها، نحن أيضا، لسماحتها وطيبتها وحسن معشرها وقد كانت آية في الجمال (رحمها الله): بضّة، بيضاء، بشعر طويل، أسود، وعينين سوداوين، طويلة، ممتلئة، حنونفيها شيئ من أمومة فائضة وحنوّ. جعلنا نتعاطف معها ونحاول فعل المستحيل، لتكون لأحمد ونحن نعرف مدى حبّها له.
في يوم قائض، ككلّ أيّام بغداد، في مثل هذا الفصل. قرّر أحمد، أن نخرج إلى بيت سمر، الذي يقع في مدينة سلمان باك، في قضاء المدائن. بعدما أجّلنا الموعد عدّة مرّات بسبب القصف. ولكن نظرا لحالة أحمد المتوّترة، طاوعناه وخرجنا أربعتنا إلى هناك: أحمد
ومنية جلال ومنية الجزيريوأنا.
جاء أحمد إلى القسم الدّاخلي، ليأخذنا، صباح ذلك اليوم، فوجدنا، في أتم أناقتنا وزينتنا ابتهاجا واحتفاء وتفاؤلا بهذا الحدث. رغم كلّ شيء...
انطلقت، سيّارة التّاكسي، التويوتا، البيضاء، تشقّ شوارع بغداد، لتصل قضاء "المدائن "عاصمة السّاسانيين سابقا، التّي تقع على بعد 32 كيلومترا، جنوب شرق بغداد، على نهر دجلة.
أين يوجد " مجمع المدائن السيّاحي " الذي بُني أيّام السّلم (أواخر السبعينيات) وكم كنّا قد استمتعنا به وفي أجنحته وخاصّة المسبح الأولمبي، الذي مرحنا به وتراشقنا بمياهه...وكم كنّا نزاحم الأطفال في حدائق اللّهوالغنّاء، المخصّصة لهم... أيّام الجُمع وفي العطل. وقد كانت أسعاره زهيدة، وفي متناولنا، كطلبة. كما كانت الكثير من العوائل، تأتي إلى هذا المجمع خصوصا أيام العطل، الرّسمية

والدّينية، حيث اعتاد البغداديّون، قضاء اليوم الذي يلي عيديْ الفطر والأضحى والذي يسمّى بـ الكسلة" في هذا المكان. والكلّ يردّد الأهزوجة، الشعبيّة:" اللّي مايزوره لسلمان عمره خسارة...."

وسلمان هذا هوقبر سلمان الفارسي، صحابيّ الرسول محمد(ص).

كان يقع على ضفاف نهر دجلة، الخالد، وسط غابات من أشجار الحمضيّات وأشجار النّخيل، التّي تشتهر بها المنطقة. وعلى مسافة لا تبعد عن طاق كسرى أكثر من كيلومتر واحد.

أمّا الآن فقد كسدت الحركة نظرا لظروف الحرب. وكم كنت أتمنى في داخلي لوأنّنا ذاهبون في زيارة سيّاحية، لنقف على آثار إيوان "كسرى أنوشروان". وقد بدا السائق يحدثّنا، عن بانوراما، القادسيّة، التّي تجسّد معركة القادسيّة، الشهيرة. بالضوء والصوت، ذات التقنيات العالية وربطها بالحرب، العراقية / الإيرانية. على مقربة من الإيوان بنفس الموقع، الذي شهد انتصار المسلمين، على الفرس، في معركة القادسيّة. حيث سار الجيش بقيادة سعد بن أبي وقّاص، نحوالمدائن. وبمجرد رؤيتهم لإيوان كسرى، تذكروا وعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهم بفتح إيوان كسرى، فحاصر سعد، المدينة في ذي الحجة سنة 14 هـ، فهرب أصحاب القصر، ودخل سعد وجيشه المدائن والقصر الأبيض.

وبالمدائن مرقد الصحابة سلمان الفارسي وعبد الله الأنصاري وحذيفة بن اليمان (رضي اللهعنهم). وأن أقف على آثار السّاسانيين...

لكنّنا الآن، نحن، ذاهبون في مهمّة " رسميّة ". وقد استوينا جالسين في سيّارة التويوتا، الفخمة، الطويلة، بكامل أناقتنا، بما يليق بالتونسيين الذّاهبين، خاطبين، راغبين، في بنت الحسب والنسب "سمر" العراقية.... تشيّعنا زغردة الرّصاص من منطقة، لتستقبلنا صافرات الإنذار في منطقة أخرى...

وعجلات السيّارة، تطوي الطّريق، الملتهبة، فوق الإسفلت، المصهود، بحرارة شمس بغداد التي لا تطاق. على إيقاع أغاني الحرب، تنبعث من الرّاديو، بصوت "صلاح عبد الغفور" يهزّ أرجاء التويوتا زهوا ونخوة... والسائق يردّد معه بحماس ملتهب:

"تقدّم وإحنا ويّاك إثنين... جيشين لصدام حسين"
تقدّم كلّ الشعب ويآّك ...وعَلّي الهيبهلهاي القاع
ورُدّ الدّين لراية سعد .....وأولاد القعقاع"

موكب سريالي، يسير، تحت القذائف، ممّا يشعل الجوّ أكثر فأكثر... و"حرارة بغداد لا تطاق بأيّام السّلم فما بالكم بأيّام الحرب؟ " يقول أحمد. وقد صرنا بعزّ الظهر. كأنّما ألهبت شمسها الحارقة، الرّصاصَ الملعلع في الجوّ وأوقدت شمسُها القاتلة اشتعال الحرائق...أضيف لكلام أحمد مخفّفة وطأة الجوّ: " ترى أيّهما أرحم نار الحرّ والحرب أم نار الحبّ المستحيل؟ "... يضيف أحمد ورفض الحجّي هوالجحيم بعينه...."

والعمُّ صاحب التّاكسي، يكرّر الشريط ويعيده كلّما خلص. منسجما تمام الإنسجام، مع قادسيّة صدّام. أوربّماهويحتمي بها، من أصوات القذائف، ليستطيع أن يتقدّم بنا أكثر. وصلاح عبد الغفور يعود معه، ملعلعا بصوته:

"تقدّم وإحنا وإياك إثنين جيشين لصدام حسين "
فهمست لمنية بجانبي: " عبالك رايحين الجبهة مولخطبه؟ "
انفرطت منية من الضحك: " صرت تحكين عراقي زين..."
قلت لها:" خوش آني أتدرب ع الحكي العراقي على مود يقدر الحجّي يفتهم علينازين،وعلى اللهيقتنع بنا"
ثم وجّهت صوتي نحوالسائق:
" تدري عمّوإنّوإحنا رايحين نخطب في هاليومالمشهود؟"
إلتفت إليّ السائق بعدما أخفت صوت المسجّل أخيرا:
" ع الخير إن شاء الله. الله ويّاكم. مبارك عليكم "
قلت له لكن عنّا مشكله:" البنيّه العراقية اللّي رايدينها، ما يقبل أبوها يزوّجها لهالشّاب التّونسي الحليوه اللّي جالس يمّك. بشرفك موحرامات...؟
التفت العمّوإلى أحمد بجانبه وكان أحمد وسيما وخجولا... وقال متواطئا:" إيه والله خوش ولد، حبّاب. بشرفي لوعندي بنت جنت أنطيت إياها حتّمن غير رضاها هههه " وإنفرطنا من الضّحك...
قلت له:" لا عمّو. إحنا ما رايدين منك شئ. غير تغيّرنا هالشريطوتحطلنا أغنية فرح." مدّ يده للجهاز وقال تلك الكلمة العراقية التي تأسرنا وتسحرنا وتقتلنا عذوبة:" تدلّلين عيني. شن تريدون تسمعون؟ ترى عندي هواية شرائط."
قلت من غير أن أفكر " إنت عمري لأم كلثوم " يمكن لأن أعمارنا اليوم على كفّة عفريت؟
قالت لي منية فيما بعد:" أنا نفسي كنت أردّد في داخلي: ألسنا مجانين نسير إلى حتفنا برجلينا؟ "
كان العمّ يبحث في صندوق سيّارته.... وكنت أسرع منه... مددت له شريطا، لأمّ كلثوم، أحتفظ به، مع أشرطة أخرى،

للسّت دائما بحقيبتي. أيّام كنّا نسمع الأغاني من الكاسيتات. وانطلق صوت أمّ كلثوم: " إنت عمري...." وسرح كلّ واحد منّا في تفاصيل عمره...ووحده أحمد كان عمره بين يدي الحجّي اليوم ...

كانت أمّ كلثوم تملأ السيّارة حبّا وأملا وحياة..... وتغطي على صوت صافرات الإنذار التّي اندلعت من جديد... تجاهلناها في الأوّل. وبقينا نتقدم، ربحا للوقت، حتّى وصلنا قرب مصنع المفاعل النّووي، العظيم، الذي بطريقنا. والذي كان مفخرة العراق حينها.... والصّفير يزداد إنذارا ونحن نزداد توغّلا في الطريق. نريد تجاوز منطقة الخطر، بأكثر سرعة... كأننا نتسابق معه، أونريد أن نفلت منه، بطيّ الطريق طيّا وهذا ضرب منالجنون طبعا. أكثر خطرا من خروجنا أصلا.
وفجأة اعترض طريقنا، أمام المجمع النووي، بعض الحرس، من مجموعة العساكر، التي تحرس المكان. هرعوا نحوسيّارة التاكسي، يصرخون بنا وهم في أشدّ حالات الحنق والغضب يصيحون بالسائق:" ده إرجع عيني إرجعإرجع لوراء إنت ما تسمع ما تفتهم ما تحترم الأوامر؟؟؟؟ شنهوإنتما تسمع صافرات الإنذار ما تعرف إنّوآكوغارة؟؟؟ وكادوا يطخونه لعصيانه الأوامر. كانوا يتقدمون نحونا ويصرخون ويحاصرون التّاكسي الذي صار يتراجع إلى الوراء أمتارا وأمتارا بسرعة جنونية في طريق ذي إتّجاه واحد وهم يصيحون به وأيديهم تلوّح بكلّ عصبّية وحنق علامة الرجوع.

تراجع السائق كثيرا، إلى الوراء. حتّى لم نعد نرى العسكر الحارس للطريق.
حينها وقفت التاكسي. ونزل العمّو، غاضبا، حانقا، منّا ومن نفسه، يلعن هذا اليوم المنحوس.وأمرنا بالخروج من السيّارة والإختباءبخندق على يمين السيّارة.
نزل هووأحمد الخندق، المترب، الوسخ وقد احتوى كلّ أنواع النفايات... وأبينا أن ننزل أنا و البنات: منية جلال ومنية الجزيري. بل احتمينا في جنب السيّارة، الطويلة. وكان العمّويصرخ بنا ويصرخ... وفجأة ضاع صوته، أمام دويّ انفجار رهيب، هزّ المكان هزّا... وشاهدت بأمّ عينيّ لأوّل مرّة في حياتي، ويا لهول المشهد. رأيت في السّماء، سرب طائرات، حربيّة، تجتاح المكان. تدنومن الأرض وتنزل واطئة أكثر فأكثر.. يصدع أزيزها الآذان ويُفقد العقول... ووابل قنابل، ينزل منها، كالمطر، على شكل عناقيد...كما كنت أشاهدها في الأفلام تماما.
لحظات واشتعل الجو... كان ذلك أمام المفاعل النّووي تماما، في ذات المكان الذي كنّا فيه. أين كانت السيّارة تريد أن تعبره بنا، وحيث صدّنا العسكر عن مواصلة الطريق.
ارتمينا على بعضنا، هلعا ورعبا...لا نعرف إن كان يجب أن نفرح، أوأن نلطم ونصرخ...؟ نكاد لا نصدق أنّنا نجونا. وأنّنا كنّا هناك قبل قليل...وأنّه كان يمكن أن نكون هباء الآن... صعدنا ركضا، مرتفعا غابيّا، فوق الخندق، هروبا من رائحة الدّخان والحرائق والشمس تصهد رؤوسنا... مرّ مشوار طويل حتّى استرجعنا أنفاسنا...وعندما هدأت الأوضاع قليلا، بدأ مشهد آخر لم نره من قبل: بدأت رؤوس تطلّ بحذر، من مخابئها. تسأل بعيونها هل مرّ الخطر؟

وكان وجودنا فوق الأرض رسالة طمأنة لهم...وبدأوا ينتشرونفوق سطح الأرض شيئا فشيئا... أخذت النّاس تخرج من تحت الأرض ومن كلّ مكان... رأينا قامتيْ شابّين، بالزيّ العسكري، الكاكي، الأخضر المرقط، يخرجان محنيّين، دون أن يلتفتا لأحد، من جوف قناة مجاري، إسمنتية، ضخمة، فارغة، متروكة في هذه الغابة. وركضانحوالطريق العام أمام دهشتنا... فالرّوح عزيزة مهما يكن. ولحظة الموت يتساوي فيها كلّ البشر.
وعلى جانب آخر رأينا امرأة بدينة، تزيح عنها لحافا كبيرا سميكا أخضر بلون الأعشاب، من تحت شجرة، وارفة، عالية وتخرج من تحته... لم ننتبه له نحن أيضا ظنّناه من العشب الأخضر. كانت تلك طريقة تمويه تستعمل وقت الغارات.سرنا إليها لنقول لها الحمدلله على السلامة. وبينما كنّا كذلك، سمعنا أصواتا... رجل وامرأة يخرجان من حفرة واسعة غير عميقة في الأرض. المرأة طويلة ممتلئة، ممشوقة، تلبس فستانا، طويلا، أنيقا، أسود. كأنّها كانت في سهرة وتضع وردة كبيرة حمراء على شعرها. تمسك آلة تسجيل بيدها ينبعث منها صوت أمّ كلثوم يصدح عاليا... والرّجل يصرخ بها ويهدّدها... يريد أن يكسر المسجّل من يدها خوفا من أن تعود الغارة.... وهي لا تعبأ به: " آني أريد أموت وأنا ده أدخن سيجارتي وأستمع لأمّ كلثوم. ما عليك أنت روح بعيد."
ما إن فهمتُ الحوار حتّى ركضت نحوها: " أنت صديقتي الآن. لأنّي مثلك أريد أن أموت وأنا أستمع لأمّ كلثوم...." ضحكت المرأة أكثر، ودعتني إلى جانبها وكانت قد إستوت

بقاعدتها الضخمة، العريضة، على شبه دكّة، حجريّة بالمرتفع.
وهي تدخن بشراهة، سيجارة طويلة، عرفت أنّها سيجارة "كانت" المفضلّة عندي. ولا تردّ على الرّجل، الذي يصرخ بها ويصيح، في شبه خبل. وقد كان نحيلا أشعث الشّعر، جاحظ العينين، يصيح بها أن تغلق المسجل. وهي لا ترغب في ذلك. تأخذ نفسا شهيّا، من سيجارتها وتضحك ويزداد هوجنونا...
توجّه لي الرّجل بالكلام. كأنه يشتكي لي منها. قال لي: " ترى هي اللّي علّمت علينا وجلبت لنا الغارة، بهذه الوردة الحمراء في شعرها. والعبّاس هي التّي علّمت علينا ما كوغيرها. هذه الوردة كانت علامة بينها وبين الطيّار الذي رمى القنابل ليقتلني.... إنّها تريد أن تتخلّص منّي. "
كان يرغي ويزبد... فاقدا لتوازنه ويبعث على الشّفقه. ورأيت في عينيه إحمراراوشررا...
جذبتني المرأة إلى جانبها. قالت لي: لا تردّي عليه. حرامات هذا تخبّل. من وقت الحرب زادت شكوكه وصار يتوهّم أشياء... خطيّه"
جلسنا كلّنا على الدّكة وعلى الأرض حول الحفرة... كأننا بُعثنا أبناء قبيلة واحدة: جماعة ما بعد الغارة. أخرجت المرأة ذات الثوب الأسود والوردة الحمراء، علبة السجائر، وقدمت له سيجارة فالتهمها، بأصابع مرتعشة. ثم جثا على ركبتيه بالأرض تحت قدميها كحمل وديع... كما وزّعت علينا سجائر بمناسبة انبعاثنا أحياء من جديد.
ولا أذكر أنّني دخّنت بمثل تلك الشّراهة. وأمّ كلثوم لا يمكن أن تصدح في مثل تلك اللحظة بغير " أنت عمري "

وإبتديت دي الوقت بس أحبّ عمري...صاحت منية: " أنت عمري مرّة أخرى...؟عاشت السّت." منقذتنا الأبديّة. لن ننسى هذه الأغنية أبدا. ولن ننسى هذا اليوم"
وكم أحببنا أعمارنا تلك اللحظة. أعمارنا التي كانت على كفّة عفريت... وهل هناك أقدر من لحظة الموت على تحريضنا على حبّ الحياة والتشبّث بها أكثر فأكثر وإدراك قيمتها؟
وهل هناك أقدر من الفنّ على تأجيل قيامة العالم؟ مكثنا مدّة أحسبها عمرا إستثنائيا، كتب لنا من جديد. كلّ يحكي حكايته ما قبل الغارة... ضحكنا كثيرا إذ تذكّرنا الجنديين اللّذين خرجا من قناة المجاري...
ولكن العمّ صاحب التّاكسي لم يستطع أن يكتم سؤالا بقلبه أكثر قال لنا: " لخاطر الله. أريد بس أعرف إنتمليش ما كنتم تقبلون تنزلون الخندق وقت الغارة؟" غرفنا في الضحك... قلنا له " عمّوإنت مانك شايف كيف كنّا متشيّكين و لابسين؟ ونسيت إنّوإحنا قايلينلك إنّا رايحين نخطب؟هههه.
ورحنا بيت سمر واستقبلتنا أمّها وأختها سعاد، المتعاطفة معها. وقبل الحجّي على مضض بعد محاولات ومحاولات أخر، زواج ابنته العراقيّة منأحمد التونسي. وكأنّ الموت قد خاتلنا جميعا. فقد تزوج أحمد وأخذ سمر معه إلى تونس. ونجيا من الحرب. أنجبت له بنتا مثل القمر سمياها " تمارى " لكن سمر لم تفرح بابنتها ولم تتربّى في حضنها. بل كفلتها أختها سعاد، عندما عاد أحمد بعد حوالي سنة، بجثمان زوجته إلى العراق وبابنته الرضيعة إلى بيت جدّها. لأنّ سمر توفيت بتونس بأزمة قلبيّة فجأة ومن دون

سابق إنذار.
كأنّ ما سرنا إليه زمن الحرب لم تكن نهايته سوى الموت.

الفصل الخامس و العشرون

عروس المربد

لم تنقطع علاقتي بالعراق حتّى بعدما تخرجت ورجعت إلى تونس. صارت تأتيني بعض الدّعوات في مناسبات ثقافيّة كأديبة وصحفيّة. أوّل دعوة جاءتني سنة 1984
تلتها دعوة أخرى. كانت من مهرجان المربد الشّعري السّابع سنة 1986 عن طريق المركز الثقافي العراقي بتونس الذي كنت أتردّد عليه دائما كامتداد لعلاقتي ببغداد. والمربدمهرجان شعري كبير تقيمه وزارة الثقافة العراقية منذ سنة 1971 ويشارك فيه العديد من الأدباء والشّعراء والإعلاميين العرب، وغير العرب. يستمّد اسمه من سوق

المربد،التّي كانت تقع في قضاء الزبير من محافظة البصرة. وهي أشبه بسوق عكاظ قبل الإسلام وكانت السّوق مخصّصة لبيع الإبل والبغال قبل أن تتحوّل في العصر الأموي إلى ملتقى للشعراء والأدباء والنحاة...الذين كانوا يجتمعون فيها وينظمّون مناظرات شعريّة وحلقات نقاش أدبي وفكري، وبخلاف الأسواق الأدبية الأخرى، التّي كانت مخصّصة لأقوام الجزيرة العربيّة كانت سوق المربد متسعاً لأعراق مختلفة من فرس وصينيين وهنود وأقباط وعرب...ومن أبرز شعراء المربد جرير والفرزدق وبشّار بن برد وأبي النؤاس.كما أن الجاحظ والفراهيدي والأصمعي وسيبويه والكندي كانوا من أشهر رواد السّوق، التي تعرّضت إلى الإندثار قبل قرون.
كان المركز الثقافي العراقي في تونس، يقع بقلب تونس العاصمة وبأحد أهم شوارعها " شارع الحريّة " بجهة البلفيديروكان نشطا جدّا ومفتوحا للعموم... وكان قبلة المثقفين خاصّة منهم المتعاطفين مع العراق، المؤازرين له في حربه مع إيران آنذاك.وكان الشّارع التونسي كلّه مع صدّام حسينويرى فيه البطل المنشود،خاصّة بعد رحيل جمال عبد الناصر. وكان النّاس يبكون، لضحايا الحرب. ويجمعون التبرّعات ويبعثونها للعراق.
وكنت أنا موجودة يوميّا تقريبا بالمركز.أساعد في الحملات الإعلاميّة والإتصالات الصحفية أيّام الحرب...ومرّة طلب منّي أبوميسون، مدير المركز أن أعرّفه بالكاتب الصّحفي " هشام القروي "، الذي كان يعمل حينها بجريدة "العمل " لسان الحزب الحاكم: (الحزب الإشتراكي الدّستوري الذي أصبح فيما بعد: التّجمع الدستوري الديمقراطي.)

ولست أدري إن كان يعرف بعلاقتي الخاصّة به؟وكنت تعرّفت إلى هشام قبل حوالي الشّهر،فيإتّحاد الكتّاب التّونسيين (عندما قدّمنا له روايته الأولى (ن). عندما كنت أدير وأنشط " منتدى القصاصين " بالإتحاد، أيّام رئيسنا الأديب الكبير محمد العروسي المطوي رحمه الله. الذي وافق بكلّ تشجيع على اقتراحي ببعث هذا النادي سنة 1984 إثر عودتي من العراق ودخولي الحياة الثقافية التونسيّة....) وكنت لازلت لم أحدّد طبيعة علاقتي به بعد. لكنّني كلّمته وبلّغته رغبة مدير المركز العراقي في رؤيته. فتهاتفاو اتّفقاعلى موعد.)

أخبرني هشام بالموعد في المركز العراقي. وترجاني أن أكون حاضرة معه، حوالي منتصف النهار. فذهبت ودخلنا مع بعض إذ كان هشام ينتظرني أمام المركز.... قام أبوميسون، ورحّب بنا في مكتبه. قدّمت له الصّحفي الضّيف. وبقينا نتجاذب أطراف الحديث...وكانت الحرب العراقية / الإيرانية حديث السّاعة.

وبعد برهة، تذكّر أبوميسون شيئا وقال لهشام:" أين هي خطيبتك؟ ألم تقل لي أنّك ستأتي مع خطيبتك؟ فبسط هشام كفّا واثقة، باذخةالنخوة، والإعتزاز نحوي، مشيرا إليّ، مع إبتسامة مخاتلة... وقد كنت أجلس قبالته بصدر الأريكة الخضراء، بصالون المكتب وقال لأبي ميسون:إبنتكم: فلانة الفلانية.اختلطت على وجه "أبوميسون" تقاسيم الدّهشة بالسّرور وقام فهنّأنا وقال له:"وأنت من الآن ابننا أيضا "... وشعرت كأنّ في نفسه عتبا عليَّ، أنّني لم أخبره بذلك. وكنت صديقة مقرّبه للعائلة... لكنّهشام أنقذ الموقف وقال له: " حبّينا نعملها مفاجأة " لكن الحقيقة أنّني أنا التّي فوجئت

بأمر خطبتي ههمولم يكن هشام قد خطبني رسميّا من أهلي ولا حتّى من نفسي.
وبهذه المناسبة عزمنا أبوميسون على الغداء بنزل أميلكاربضاحية"سيدي بوسعيد " السيّاحية شمال تونس العاصمة: التّي استقبلتنا بقبابها وبناياتها البيضاء تزيّنها شبابيكها وأبوابها الزرقاء المستمدة من لون البحر الأبيض المتوسط. المشهورة بها عالميّا.
اخترنا طاولة (بالتراس)على البحر. ننعم بنسائمه وكنّا في شهر أكتوبر ومازال الحرّ لم يهجر بعدُ تماما. كان الحديث عن الحرب أيضا...وواضح ما كان يريده أبوميسون دون طول شرح. من الغد نزّل هشام مقالة مساندة وتضامن مع العراق في حربه العادلة ضدّ العدوالفارسي، الحاقد، منذ فجر التاريخ الإسلامي... استغربت، أنا من تلك السّرعة ولكنّني استحسنت الأمر في داخلي.

بعد مدّة من بداية علاقتي بهشاماكتشفت علاقته بفتاة أخرى...صدمت وأصابني كثير من القرف من هذه العلاقات الهابطة... ودونأن أنبس ببنت شفة أوأن افتح معه الموضوع أوأن أكشفه أمام نفسه. اتجهت مباشرة إلى الخطوط الجويّة التونسيّة.قطعت تذكرة ذهاب الى باريس دون رجعة.قرفانة من كلّ شيء.كنت قد مللت البلد منذ عدت من العراق طوال هذه السنوات الخمس. ذلك أنّني لم أستطعأن أتأقلم من جديد مع بلدي الذي كان قد تغيّر في غيابي كثيرا و العلاقات تغيرت أوأنا التّي تغيّرت؟ لا أدرى. المهّم، كنت أشعر أنّ الذي هاجر وخرج لسنوات عدّة من بلده لن يعود إليها ابدا بروحه كما كان وإن عاد

بجسده.ولم تعد تقنعني حدود تونس. كنت أشعر أنّني أعيش بقلب طائر مهاجر لا يخفق إلاّ للرحيل وكانت باريس شهوة قديمة في نفسي...وأمنية عمري أن أعيش بها طال الزّمان أم قصر.
لعنت الدّنيا كلّها بقرفها وغدرها وخياناتها ورميت بها ورائي وقررت السّفر إلى باريس حلم عمري.
عرفهشام بأمر سفري بل فوجئ به. ظلّ مدّة طويلة يستسمحني ويتوّسلنيويشرح لي الموضوع ويبرّر ويتبرّأ... ثم أخيرا طلب منّي أن ألغي سفري، لأننا سنتزوّج ونسافر معا إلى باريس ونعيش بها إن كانت هذه رغبتي.وكطفل يمتصّون غضبه بقطعة حلوى، قبلت الموضوع. المهّم أنّني سأسافر إلى باريس وأعيش فيها. ثم جاء هشام مع أهله وخطبني حسب الأصول.
بعد ذلك بمدّة أعلمني ابوميسون بدعوتي إلى مهرجان المربد الشّعري.وكان حدثا كبيرا في ذلك الوقت، يتهافت عليه المثقفون ويتمنون حضوره والمشاركة فيه والسّفر الى العراق ويوسطون ابوميسون لذلك بوصفه له صلاحيات الاختيار واقتراح الاسماء وتوزيع الدعوات.
اما انا فطلبت منه ان يدعو هشام. قال لي ابوميسون انه سيبعث المقترح الى الجهات العراقية وأظنّها كانت وزارة الإعلام.
سُرّ هشام بمقترحي وأنّنا سنسافر مع بعض إلى العراق. لكنّني بعد مدّة فكرت أنّها ليست حلوة بحق أهلي أن أسافر مع خطيبي قبل الزّواج. كنت أعرف أن عائلتي لن تقبل. وربّما منعني أبي من السفر أصلا.

احتراما لأهلي قررنا أن نتزوج ثم نسافر للعراق ومنها إلى باريس.
في الأثناء جاءت دعوتي من بغداد.وسلمني إيّاها ابوميسون كان ذلك في شهر أكتوبر وتأخرت دعوته وانتظرنا طويلا حتى اقترب موعد زفافنا في منتصف نوفمبر ولم تأت. كان هشام قلقا طبعا ومحرجا أمامي كونه صحفي وكاتب روائي معروف أيضا ولم تات دعوته.
ذات مساء كنّا نتمشى تحت نخيل شارع محمد الخامس الطويل...صارحني هشام بهواجسه وظل يلقيها عليّ كيقين مؤكد. قال لي:
"العراقيّون يريدون التفريق بيننا: واضح أنّهم لا يريدونني ان أكون معك." هكذا صدمني بهواجسه التّي توصّل إليها بعد طول تفكير وتحليل كما زعم.أجبته بكل غرابة ودون تفكير: ولماذا يريدون التفريق بيننا؟ مستهزئة مستبعدة الأمرعن خاطري قال:" لأمر يعرفونه هم وحدهم ". ثم صمت وساد جومكهرب ثقيل بيننا... فأضاف:" ربّما يريدونك بمفردك لأمر ما؟ ضحكت بتوتر وقلت: ما هوهذا الأمر؟
_" ربمّا يريدون استخدامك في مهمة سريّة، خاصّةأنّهم بحالة حرب؟
تلك اللّيلة رجعت الى البيت قلقة.... في الصباح تلفنت الى ابي ميسون ورجوته أن يستعجل وصول الدعوة. لكن الدّعوة تأخرت أكثر ممّا ينبغي وبدأت وساوس هشام وهواجسه تكبر..وتأخذ سيناريوهات أخرى... وكنت أحاول دائما إبعاد هذه الهلوسات عن ذهنه: فلايعدوأن يكون الأمر مجرد روتين إداري وتأخر إجرائي للدعوات التّي تصل

على دفعات...وأمام دفاعي الكبير عن العراق، حبك خيال الروائي سيناريوجديد... وفي ليلة حالكة أخرى صارحني بشكوك أخطر وقال لي:" لعلّك أنت من يؤخر هذه الدعوة ولا تريدينني أن أذهب معك؟ ربّما تخافين من كشف بعض علاقاتك العاطفيّة السابقه بالعراق...؟

وهنا جنّ جنوني... انفجرت في وجهه وتركته فورا ورجعت إلى أهلي مباشرة لأعلمهم بفسخ الخطبة من هذا المجنون ، المريض، الشكّاك والغاء هذا الزواج من أصله.

من الغد وصلت دعوة المربد ولكنّني كنت قد قرفت وكرهت كلّ شيء...وكالعادة جاء يستسمحني ويتوّسل إليّوأنّه كان فقطمجرد استعراض سيناريوهات تحتمل الصحّة كماتحتملالخطأ. وما كان عليّ أن احملها محمل الجدّ.

ذهبنا إلى المربد أخيرا بعد أن كتبنا كتابنا عشيّة 15 نوفمبر في بلدية الحيّ العريقة بباردوفي احتفال رسمي، بسيط تحلّلا من طقوس الأعراس التقليديّة الثقيلة.

ولكن أهل زوجي فاجؤونني بحفل موسيقي كبير كان ينتظرنا بالنزل الذي ذهبنا إليه.

بعد يومين سافرنا إلى العراق ونقش الحنّاء مازال في يديّ واستقبلنا أصدقاؤنا المنظّمون للمهرجان استقبالا خاصّا وأخبرنا ابوفراس صديقنا الشاعر المدير السّابق للمركز الثقافي العراقي بتونس الذي جاء لإستقبالنا أيضا في المطار بكلّ فرح ونحن في السّيارة مع الصديقة المشتركةالصحفيه/ الكاتبة خيره الشيباني في طريقنا إلى مقر إقامتنا وهويستعيد معنا ذكرياته بتونس التّي أحبّها حدّ الجنون... أخبرنا:أنّهم سيقيمون لنا حفل زفاف ثان بالمربد...ومن الغد توّجتني

الصحافة " **عروس المربد** " ونزلت صوري بالطرحة والفستان الأبيض بعناوين كبيرة عن " شهر العسل بالمربد " و"خيمة الشّعر والعسل ".... ما زلت احتفظ بها إلى الآن واحتفت بنا الصّحافة احتفاء خاصّا طوال أيّام المهرجان ودعتنا الإذاعة والتلفزيون...

وتهاطلت علينا التهاني والهدايا وامتلأت غرفتنا بباقات الورود.... وجاء أصدقائي: الطلاّب القدامى الذين درسوا معي والعائلات الّتي أعرفها في بغداد من العراقيّين والعرب.... ولكن هشام لم يكن منشرحا، بما يليق بعريس. كان منزعجا جدّا من فيض هذه العلاقات الّتي تغمرني وتأخذني منه.... كان لا يتركني لحظة أبدا: يراقب كلّ تصرفاتي وحركاتي وكلامي وسلامي.... وينتقدني عند كل حركة ويحدّد لي ما يجب أن اقول وما لا يجب... ويريد أن يعرف أصل وفصل كلّ إنسان يقترب منّي،أويعرفني في السّابق، بشكل يربكني ويخجلني أحيانا مع أصدقائي ومعارفي... ولم أعد أستطيعأن أقوم بعملي الصّحفي وإجراء بعض الحوارات واللقاءات بأريحية وبكلّ حريّة مع القامات والأسماء الأدبيّة الهامّة الّتي يعج بها هذا المحفل العربي الكبير. كان يتدخّل في الأسئلة ويطلب منّي أن أطلعه على الأسماء الّتي أريد أن أجري معها حواراتي قبل كل شيءوكان لا يفارقني حتّى أثناء هذا العمل.... وبدأتأضيق ذرعا بهذا التصرّف الأحمق وهذه الغيرة المرضيّة والوصاية البائسة.

وبدأت أفقد عفويتي وطلاقتي واختفت ضحكتي وحلّت محلها عبرة تؤلمني وبدأت فعلا أختنق.

وذات ليلة حبسني هشام بالغرفة وطلب منّي أن أسرد عليه

كلّ تاريخ علاقاتي العاطفيّة ببغداد أيّام دراستي.... وقد علت وجهه مسحة من الشّر، الكامن تحت الأقنعة التّي بدأت تسقط عن المثقف، الكاتب والصحفي الذي يدّعي الحداثة والتحضر ويكتب عن حقوق الإنسان ويناصر قضايا المرأة.. وها هويتحوّل أمامي إلى مخبر صغير يستجوبني بأساليب خسيسة...

لم أستطع أن أكون سعيدة للأسف في هذا المربد السّابع رغم أنّني كنت متوّجة كعروس. كنت أبكي في غرفتي وأداري تعاستي وصدمتي وأتكتم على مشاكلي. كنت أحسّأنّني تورطت بهذا الزّواج النحس.وبقيت أفكر كيف أخلّص نفسي من هذا الأسر الذي وقعت فيه. في الأثناء وضمن برنامج المهرجان جاءنا منظموالمهرجان ببدلات عسكرية لكلّ واحد منا نساء ورجالا استعدادا للزّيارة التّي سنقوم بها إلى جبهة القتال في مدينةالبصرةلمشاهدة المقاتلين الأبطال.وللتأكيد على العلاقة المتينة بين حملة القلم وحملة البندقية كما خطب فينا أحد رؤساء أركان الفيلق، الذي استقبلنا معبّرا عن سعادته بوجودنا مؤكدا لنا أنّ التحام القصيدة والعقيدة منذ أن اندلعت الحرب هوالذّي صنع النصر وأنّ مقاتلينا في خنادق الشّرف يستمدون العزم والقوّة من قصائدكم طوال سنوات الحرب مستشهدا بمقولة القائد الفذ:" الأمّة التّي ليس فيها فنانون كبار وشعراء كبار ليس فيها سياسيّون كبار " وصفقنا وصفق الكلّ لذلك طبعا وأكّد قائلا أيضا:" أنّ بنادقنا دروعا تدفع الشرّ عن بلدنا وعن القيم التي تؤمنون بها في أدبكم....." وكانت لنا زيارات في مختلف بقاع المعارك...

"هناك في أحد المقاطع، تصدّر رجل قاعة الضّيافة. فشاعت الهيبة في الغرفة. تطفح على وجهه أمارات الطمأنينة والثقة. رأيت وجهه الآمن فعرفت أنّ الحدود آمنة. ذلك هوالعميد الرّكن "عبد مطلك حمود الجبوري" الذي كان يجلس بين جنده...الرّجل الذي لم تنسه مهامّه الحزبيّةوالحربيّة أن يهنئنا بزواجنا على الملإ. لقد أذهلني ذلك في أوّل لقائه بنا وزاد ففاجأني بهديّة في آخر الجلسة "
هذا الكلام نزل في جريدة القادسيّة بتاريخ 24 نوفمبر عندما سألني أحد الصحفيّين عن رأيي وانطباعاتي عن زيارة الجبهة ضمن روبورتاج مصوّر، يملأ الصفحة كاملة بعنوان " أدباء المربد في جبهات القتال."

عندما عدنا إلى الغرفة في فندق إقامتنا، فتحت الهديّة لأرى ما بالعلبة الكبيرة، المغلّفة بورق زهري وشرائط ملوّنة فوجدت طقما نسائيا أنيقا من التويد الأزرق السّماوي أعجبني.
عندما قرأ " العميد الركن مطلك الجبوري " ما كتبته عنه بالجريدة فاجأنا بزيارة للغرفة في وفد من بعض رجاله من غير سابق انذار. رحبنا به كثيرا أنا وهشام. تجاذبنا حديثا عن تونس والعراق والحرب والشّعر... جدّد لنا تهانيه ولم يطل الزّيارة.
عندما خرج الرّجال كان هشام لايزال تحت وطأة الدهشة.وكان يلزمه وقت طويل الآن، لاستيعاب الزّيارة المفاجئة. ولصنع سيناريوهات محتمله لها... سألنيإن كان لديّ خبر بها قلت له لا طبعا... ثم أضفت العراقيّون أناس لطفاء.وشرف أن يزورنا العميد بنفسه وهي لا تعدوأن تكون

في النّهاية إلاّ زيارة مجاملة.
سكت هشام ولم يردّ. بل دخل في حالة صمت غامض، يخيفني، سرح بعيدا وبدا مشغولا بهمّ ما... يشعل الغليون ويعيد، يقرن ما بين حاجبيه ولا يتكلّم.... وقد أصبحت أخشى على نفسي سيناريوهات تهمه الجاهزةوشكوكه المتواصلة...وبدأت أهيئ نفسي لاستقبال مصيبة جديدة... مرّ يوم ولم يفتح معي الموضوع.

أخيرا نطق قال لي:" الهديّة التي قدموها لك لا تليق بك."
قلت له:"هل كان يجب أن يقدّموا لي وزني سبائك ذهب. حتى ترضى..." قال الذّهب في مستقبلنا في باريس". لم أفهم، زاد فشرح: العراقيّون لهم صحف كبيرة ومشهورة بالمهجر بباريس وكان يقصد " مجلتيْ"الوطن العربي " و" كلّ العرب " خاصّة،ونستطيع أن نعمل بها وعليك أنت أن تطلبي منهم ذلك.ومن العميد الرّكن مطلك بالذّات. ذهلت أنا. وانتفضت ثمّ خارت قواي... "العراقيّون عشت معهم أربع سنوات ولم أطلب منهم شيئا وعلاقتي بهم لا تقوم على أيّة مصلحة..." هكذا جاء ردي سريعا.
ثم تركته ونزلت اللّوبي لا ألوي على شيء...اعترضني صديق قديم عزيز عليّ، أصّرعلىأن يجلس معي ويعرف ما بي؟ صارحته بالأمر دون تحفظ. ربّت على يدي وقال لي: لا عليك سأفاتح أنا العميد مطلك بالأمر.وقد هوّن عليّ فعلا حتى أحسست أنّ جبلا ثقيلا أزيح عن كاهلي.والتمعت في عينيّ باريس...وراودني حلم عمري مرّة أخرى وعدت أحلم بها وأحلم بالعمل في الصّحافة بها.

وسافرنا إلى باريس.كما اردت. ولكن هل جرت الامور كما اريد؟

انتهت